

سلسلة نقد العقل التجريدي

في الإسلام

الكتاب الأول

الفكر السياسي

تأليف

د. هاني المرعشلي

كلية الآداب - جامعة طنطا

تقديم

د. حنفى



0205108

Bibliotheca Alexandrina

سلسلة نقد العقل التجديدي

في الإسلام

الكتاب الأول

الفكر السياسي

د. هاني المرعشلي

كلية الآداب - جامعة طنطا

تقديم

الأستاذ الدكتور / حسن حنفي

٢٠٠١

المكتب العلمي للنشر والتوزيع

ص ب ٢٨٤٠ توزيع الإبراهيمية الاسكندرية

رقم الإيداع . ٢٠٠١/٢٢٠٥
الترقيم الدولي 977-318-048-4

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأهداء

إلى روح أبي الطاهرة ..

أول من غرس في مكانة العقل العربي

إلى الروح العذب ..

الشاعر مرسى جميل عزيز

رائد صياغة الوجدان العربي

إلى ملتقى العقل والوجدان ..

زوجتي وأبنائي الأحباء

مى .. محمد .. سارة

تقديم

بقلم الدكتور حسن حنفى

جمال الدين الأفغانى هو رائد الحركة الاصلاحية الثورية الحديثة .
مكثا كتب على نصبه التذكارى فى كابول . فهو الذى صاغ الاسلام من
جديد فى العصر الحديث ، الاسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر
فى الداخل . وهو الذى اعاد تفسير الدين باعتباره ثورة . فقد انتهى عصر
تفسير الدين كعقائد وشعائر ومؤسسات ونظم . فتلك معركة قد كسبت من
قبل . أما اليوم فالمسلمون فى معركة جديدة هم فيها خاسرون ، الثورة ضد
الاستعمار والقصر ، ضد القهر والتخلف . فآفة الشرق امراؤه للمستبدون
وعلماءه الجاهلون . لذلك عمل الأفغانى على تكوين ايدىولوجية ثورية كان
منبرها " العروة الوثقى " وحزب ثورى كان قوامه تلاميذه فى كل مكان يحط
به خاصة فى مصر المحروسة ، وجماعير ثورية قادرة على الانقلاب على
الحكام فى أفغانستان وايران ومصر والسودان ، فالاصلاح لديه كان ثورة فى
مقابل الطهطاوى الذى كان الاصلاح لديه نهضة وشبلى شميل الذى كان
الاصلاح لديه علم طبيعى . الاستعمار حرب عدوانية والجهاد حرب
عادلة^(١) .

وقد نشأ الأفغانى فى عصر ضعفت فيه الخلافة ، وفقد فيه الحكم
الاسلامى ، وطمع الاستعمار الغربى والشرقى على حد سواء ، البريطانى

(١) جمال الدين الأفغانى : الأعمال الكاملة ، نشر د. محمد عمارة ، المؤسسة
المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، الحرب العادلة والحرب
العدوانية ، ص ٤٣٦ - ٤٤٢ ، الاستعمار ، ص ٤٤٢ - ٤٥٢

والقيصري في تركة الرجل المريض فيما عرف في ذلك الوقت بالمسألة الشرقية . وكانت هناك تيارات ثلاث . الأول العثمانيون وعلى رأسهم أبو الهدى الصيادي الذي كان فقيها للسلطان ، يود ابقاء الخلافة على ما هي عليه ، قهر وتخلف مادامت مصدراً للرزق وسلطة للعلماء . والثاني رد فعل على الأول حزب " تركيا الفتاة " الذي على منواله نشأ حزب " مصر الفتاة " ، للدعوة إلى القومية الطورانية والعلمانية والأخذ بأساليب الحداثة ومناهج العصر كما هو الحال في الغرب ، تقليداً وتبعية له وانتهاء لدور الخلافة وتأسيساً للدولة القومية الحديثة . والثالث حزب الإصلاح الذي كان منه الأفغانى وعبدالله النديم ومحمد عبده وكل تلاميذ الأفغانى . وقد كان هدفه تجديد الخلافة وإصلاح الامبراطورية العثمانية ، الأخذ بأساليب الحداثة دون ترك الأصالة ، والدخول في العصر دون التخلي عن الهوية .

كان هذا التيار الثالث يمثل أغلبية المسلمين علماء وجمهوراً في مقابل القوتين عثمانيّة وطورانيّة . على عكس ما هو حادث الآن من صراع بين السلفيين والعلمانيين ، بين الأخوة الأعداء ، كثرة من الجماهير السنية وقلّة من القادة العلمانيين . وغلب التيار الإصلاحى الأفغانى باستثناء دعاة الاسلام المستنير الذى يود تحقيق حلم الأفغانى الأول ، التغيير من خلال التواصل حفاظاً على التراث والتجديد ، الأصالة والمعاصرة (٢) .

وإذا كان سبب تخلف المسلمين هو التجزئة والتعنّت والانقسام كان من الطبيعى البحث عن مقومات الوحدة ومستوياتها . ولما كانت مصر واحدة عبر التاريخ ومهد التوحيد فإن وحدة شعب مصر قد تكون ركيزة

(٢) المصدر السابق : أبو الهدى الصيادي ص ٥٣٩ - ٥٤٠ الأصالة والتقليد ص

١٨٩-٢٠٣ ، بين الاجداد والأحفاد ص ٢٠٣-٢٠٧ أصالة العرب العلمية ٢١١ -

٢١٨ تراثنا المجيد ص ٢١٨ - ٢١٩ .

وحدة شاملة وأعم . لذلك ارتبط "الأعني مصر . وهو واضح شعار " مصر للمصريين" كما أن تلميذه محمد عبده هو الذي حرر برنامج الحزب الوطني . لذلك لزم تقوية مصر وتحريرها من الاستعمار والتعصب ، من التبعية والقهر ، من النهب والبيروقراطية . وهو ما أرادته محمد علي لمصر ، كما أرادته من قبل فراعنه مصر ، وهو ما سار عليه أيضا عبد الناصر في هذا القرن . مصر المحروسة ، مصر المحمية أحب بلدان الله ، جندها خير أجناد الأرض وشعبها مرابط إلى يوم القيامة . لذلك كتب الكندي " فضائل مصر " . وهي متكورة في القرآن خمس مرات ، بلدا للطغيان وبلدا للأمان^(٣) .

ومن مصر تبدأ ستة دوائر : وحدة وادي النيل ، ووحدة مصر والشام ، ووحدة المغرب العربي ، والوحدة العربية ، والوحدة الإسلامية ، والجامعة الشرقية . فالسودان هو الامتداد الطبيعي لمصر ، ووحدة وادي النيل ركيزة للوحدة العربية والتي أصبحت في هذا القرن دعامة للوحدة الأفريقية . والمهدية في السودان والثورة على الإنجليز من تعاليم الأفغان . لذلك أرادت بريطانيا درءا لمخاطر الثورة جعل الأفغان ملكا على السودان ! إن احتلال مصر هو احتلال للسودان الشمالي ، واحتلال السودان هو احتلال لمصر الجنوبي ، وتقسيم لوحدة وادي النيل وقضاء على دولة الوحدة في نواتها الأولى . يقضاء على الاستعمار في الوادي هو تحقيق لواجب الدين والوطن^(٤) .

(٣) المصدر السابق : مصر ص ٤٦٥ - ٤٧٢ مصر والحكم الثنائي ص ٤٧٢-٤٧٥
عن مصر والمصريين وحكم الشرق حتى ١٩٧٦-١٩٨٠ احتلال مصر ينبيه الأذهان
ص ٤٨٢ - ٤٨٨ المعتمد البريطاني في مصر ص ٤٩٢-٤٩٧ .

(٤) المصدر السابق : السودان ص ٤٩٨-٤٩٦ زلزال الإنجليز في السودان ص
٥٠١-٥٠٥ رفض للترويج سلطنا على السودان ص ٥٠٥-٥٠٦ .

ويمكن ان تتحقق دولة الوحدة في وحدة مصر والشام ، وحدة أفريقيا وآسيا ، فالوادي في أفريقيا وسينا في آسيا . وسيناء هي الممثل الشرقي لمصر ، وهي امتداد جنوبي لصحراء الشام . وطالما اتت الغزوات من حدود مصر الشرقية منذ الهكسوس قديما حتى الصهيونية حديثا . فوحدة مصر والشام هي نواة الوحدة ظهر تلك ايام صلاح الدين لهزيمة الصليبيين ، وفي اول تجربة وحدوية في تاريخ العرب الحديث في ١٩٥٨ - ١٩٦١ في عهد عبد الناصر . وفي سوريا نشأت القومية العربية . وفي دمشق استشهد لواتل القوميين العرب . وهو بر واحد ، بر مصر وبر الشام .

وبالاضافة الى جناحها الشرقي في الشام يمكن لمصر نواه الوحدة ان تتحد مع جناحها الغربي في المغرب العربي ، فهي جزء منه عبر تاريخها الطويل منذ الفتوحات حتى جواهر القائد الى تاريخ مصر الحديث الذي جسده مساعدات مصر للجزائر في حرب التحرير ولتونس والمغرب من أجل نيل الاستقلال . ففي القاهرة أسس مكتب المغرب العربي ، وعلال الفاسي آخر تلاميذ الأفغاني ، وهي مساحة واحدة عبر الحجيج من المغرب الى الحجاز عبر مصر ، صوفية مصر معظمهم مغاربة . والوطنية والاسلام توأمان دون تدخل القومية بينهما كما هو الحال في الشام .

ويمكن لمصر ان تكون نواة الوحدة العربية ، فقد كانت الأمانة على نشر اللغة اiban الاحتلال الغربي للوطن العربي . وفيها قامت أولى المحاولات لتوحيد مصر والشام ومصر والسودان ومصر والحجاز اiban محمد علي ، ومصر والشام في عهد عبد الناصر . موقعها في القلب بين جناحيها المشرق العربي والمغرب العربي . حافظت على التراث العربي الاسلامي من الانتثار . وفيها تم تكوين الموسوعات الكبرى . مصر كعبة العروبة ورائدة التعريب ليست العروبة عرقا أو جنسا بل هي الحامل للدين والثقافة والحضارة . ومن قبل الاسلام دون اللغة مثل الاتراك والفرس فانهم

ياخذون الآداب ويتركون اللسان، العروبة معه مفعلة على الديمقراطية في
الداخل والاساتية في الخارج (٥) .

وتستطيع مصر ان تكون مركزا للوحدة الاسلامية ، فيها الازهر
الشريف حملت لواء العلم وحفظت للتراث الاسلامي ، يقصدها القاصي
والداني . فعصبة الدين تجب عصبة الجنس ، والولاء للفكر يتجاوز الولاء
للعرق . وقد قام للتوحيد بهذه المهمة ، توحيد الشعوب والقبائل والأقوال أمام
مبدأ واحد عام شامل يتساوى أمامه للناس جميعا . وهي أمة واحدة بلا
مذاهب سنة أو شيعية . فبالوحدة تؤكد سيادة الأمة ، وبالفرة ينال منهم
الاعداء (٦) .

ولما كانت مصر كوكب للشرق فإن الوحدة الكبرى هي الجامعة
الشرقية وحدة شعوب الشرق في مقابل الغرب الاستعماري . فالأفغانى من
أوائل مؤسسى " ربح الشرق " والاتجاه نحو الشرق . وقد انتشر الاسلام
شرقا قدر انتشاره غربا ، وكانت تجلوته وكان علمه فى الشرق وما زالت
آسيا الوسطى مخزونة البشرى الاقتصادى الأول ففى آسيا أربعة أخماس
المسلمين . حل المسألة الشرقية فى الجامعة الشرقية حيث يصح للرجل
المريض . عيب الشرق أحزابه السياسى المتخلفة المتفرقة التابعة لغرب
والتى لا ترعى مصالح الأمة . الصراع الحقيقى هو بين الغرب والشرق
وقد أضاف اليه جيلنا الصراع بين الشمال والجنوب وسياسة انكترافى

(٥) المصدر السابق : العروبة والتعريب ص ٢١٩-٢٢٠ فعاليات آداب اللسان ص
٢٢٠ - ٢٢٢ بين العرب والترك ص ٢٢٢-٢٢٧ الاساتية والقومية
والديمقراطية ص ٤٢٧ - ٤٣٠ .

(٦) المصدر السابق : عصبة الجنس وعصبة الدين ص ٣١١-٣١٥ أمة واحدة لا سنة
ولا شيعية ص ٣٢٤-٣٢٦ الوحدة الاسلامية ص ٣٤٠-٣٤٧ الجنسية والديانة
الاسلامية ص ٣٤٧-٣٥٢ الوحدة لو السيادة ص ٣٥٢-٣٥٨

الشرق هي سياسة الاستعمار ، الامبراطورية التي لا تخيب عنها الشمس .
وسيدة البحار ، قناة السويس وعين والرجاء الصالح وسنغافورة وهونج كونج
ونيو يورك (٧) .

ونظرا للقهر في العالم الاسلامي من للحكام أصبحت الحرية الفردية
والديمقراطية السياسية نمونجا يقدمه الأفغانى للأمة وليس النظام الملكى
القاهر ، وليس النظام الجمهورى الفوضى . يفضل الأفغانى النظام الملكى
الدستورى الذى يحفظ للسلطة وحدتها وللشعب حقه والنظام الدستورى نظام
برلمانى يقوم على تعدد الأحزاب والصحافة الحرة ومسئولية الحكومة أمام
البرلمان . ومن هذا الطريق تتحقق الاشتراكية التي تمثل العدل للاكثرية
وليس عن طريق القساعات المادية . والأفغانى هو صاحب مقولة المستبد
العدل الذى لا يصلح الشرق الا به ، للدولة القومية التي تحقق العدل بين
الناس ، السلطة المركزية القادرة على تجنيد الشعب وهو ما تحقق أيام محمد
على وعبد الناصر بدلا من الدولة للرخوة والفساد وينب الفساد الى الدولة من
بطانة الملك ورجال الدولة وعلماء السوء (٨) .

هذا المشروع الثورى التحررى ساندته ليدولوجية روحية أخلاقية عبر
عنها الأفغانى فى الرد على الدهريين نظرا للخطر الذى كانت تمثله المادية .
فى القرن الماضى على العقائد الدينية والقيم الأخلاقية كما جسدتها نظرية
التطور . فوقع الأفغانى فى الخطابة والانشاء ، وحول قوانين المجتمع
والتاريخ الى قوانين اخلاقية روحية ، فاصلاح للمجموع فى اصلاح الفرد ،
وتغيير الخارج مشروط بتغيير للداخل . الحياء والأمانة والصدق ثلاث
خصال يحركن المجتمع والتاريخ . وصنف الاشتراكيين وفلاسفة الثورة

(٨) المصدر السابق : العدل ص ٤٠٨ - ٤١٣ الاشتراكية ص ٤١٢-٤١٤ رجال
الدولة وبطانة الملك ص ٢٩٦-٤٠١ .

الفرنسية فونتير وروسو ومونتسكيو في هذه البرعة . ووصفها -العلمية
والأخلاقية واتهمها بالاحاد وإنكار الألوهية . ثم يستند الأفغانى مشروعه
الثورى بايدلوجية ثورية . لذلك بدأ مشروعه فى الأقول بداية فشل الثورة
العرايية فالسياسة والطم فى القرآن . والوهم والجبر من اسباب تخلف
المسلمين والأمل وطلب المجد طريق التقدم . وعلى المسلمين الصبر
والثبات (٩) .

خبا مشروع الأفغانى الى النصف على يد محمد عبده بعد هزيمة
العرايين واحتلال مصر . وخشى محمد عبده من الثورة عن طريق
الانقلاب على السلطة وأثر التغيير الاجتماعى البطئ عن طريق تعليم اللغة
العربية وتطهير الدين من الخرافات واصلاح المحاكم الشرعية ونظم التعليم
وتغيير عادات الفلاحين ، واتارة العقول ، والدخول فى العصر بتقودة وثقة .
فلما قامت الثورة الكمالية فى تركيا فى ١٩٢٤ خشى تلميذه رشيد رضا من
انتشار العلمانية بعد سقوط الخلافة ونشأة الحركات القومية التجزئية كوريث
لوحدة الأمة فارنك سلقيا بعد ان كان اصلاحيا . وخبا مشروع الأفغانى مرة
أخرى الى النصف . ولما أراد حسن البنا ، وهو تلميذ رشيد رضا فى دار
العلوم ، اعادة نشر المنار فى ١٩٣٥-١٩٣٦ وتحقيق حلم الأفغانى بإنشاء
حزب ثورى يحقق مشروعه الاصلاحى والذي لم يستطع الأفغانى تأسيسه
نظرا لمطاردة السلطات له وعدم استقراره فى بلد واحد ، أنشأ حسن البنا
جماعة الاخوان المسلمين لتحقيق هذا الحلم . ثم اصططمت الجماعة فى
١٩٥٤ بالثورة المصرية صراعا على السلطة وانتهت الجماعة تحت الأرض

(٩) المصدر السابق : رسالة الرد على الدهريين ص ١٢٧-١٨١ التشوء والارتقاء
ص ٢٤٩-٢٥٤ الوهم ص ٣٦٤-٣٧٠ الجين ص ٣٧٠-٣٧٥ الأمل وطلب المجد ص
٣٨٨-٣٩٤ الصبر والثبات ص ٣٩٤-٣٩٦ .

وخرجت في السبعينات وحتى الآن غاضبة تريد الثأر والانتقام من الثورة
وأصبح معالم في الطريق هو الوريث للرد على الدهريين .

هنا ما حاوله . . هذا الكتاب " جمال الدين الأفغاني " أن يعرضه في
فصوله الثلاث . الأول " مدخل إلى فكر جمال الدين الأفغاني " لعرض
عصره وتياراته وفكرة قضية أصل الأفغاني ، وهي قضية آثارها الاستشراق
بدافع عرقى قومي - فلا يهم إذا كان الأفغاني فارسيا أم أفغانيا ، بل هو مسلم
ينتمي إلى الأمة الإسلامية التي تتجاوز رابطتها العرق والقوم والشعب
والأصل . والفصل الثاني " فكرة الجامعة الإسلامية عن مستويات الوحدة
ومركزها مصر . والفصل الثالث " الحرية والديمقراطية " النموذج الذي
آثره الأفغاني لإعادة بناء الأمة من الداخل .

فاللؤلؤ منا كل تحية ، راجين له الاستمرار في سلسلة " التجديد في
الفكر الإسلامي المعاصر " . فنحن جزء منه وهو جزء منا . ولعل مزيدا
من البحث فيه يصبح فيما بعد تأكيدا على أهمية دراسة الماضي في الحاضر
وخلق نوع جديد من المفكرين الباحثين ، والاساتذة الملتزمين بقضايا الفكر
والوطن .

مقدمة

بمصاد موضوع الدراسة :

وكتسب موضوع التجديد في الفكر الاسلامي اهميته القصوى في
عصرنا الحاضر من عدة نواح :

- فهو من ناحية يوضح تلك المحاولة النبوية المتواصلة لآخر الانبياء
الكتيبية لتجديد فهم البشر له على النحو الذي يجعل حياتهم المعاصرة
يتقاصمها المتعددة والمتغيرة تجد تنظيمها الأمثل في إطاره ، وذلك تأسيسا
على ما يعبر عنه الدكتور محمد قبل خير تعبير من ان الاسلام كان آخر
الانبياء لانه جعل التحكيم العقل ، ولم يجعله لتقاليد الاسلاف . وكذلك تأسيسا
على ان الديانتين الكتيبيتين الاخرتين - اليهودية والمسيحية - قد تحدد نطاق
سيطرتهما الخاص عبر تطور تاريخي طويل ، بحيث انه لم يعد هناك من
مجال للحديث عن التجديد فيهما بالمعنى الذي نتحدث فيه عن التجديد في
الاسلام .

- ومن ناحية اخرى لانه يوضح إلى أي مدى يمكن للاسلام - بوصفه
نظاما اعتقاديا لجل سكان العالم الاسلامي في وقتنا الراهن وبوصفه تلك
النظام الحاكم للقيم والافكار وشتى مناحي الحياة قبل إسترخاء قبضته على
المجتمع الاسلامي في أوائل القرن العشرين ، وإضمحلال قوته الفعالة في
الحياة الاجتماعية والسياسية - ان يعود تقديم نفسه كحل لمشكلات الحياة
المعاصرة فكريا وعمليا إزاء الطول الأخرى المستتاة من الفكرة اللاتينية ،
والتي أفلحت في أن تنجي الاسلام كقوة منظمة قادرة على ممارسة تأثير
مباشر على المجتمع والدولة ، سواء تمتعت تلك الطول في الأخذ بالفكرة
الليبرالية منذ مطلع القرن الحالي أو في الأخذ بالفكرة الاشتراكية في النصف
الثاني منه .

- ومن ناحية ثالثة لأن هناك خلافا جوهريا حول مفهوم التجديد يتجاوز في شدة ذلك الخلاف الذي وقع بين المدارس الكلامية بعضها البعض وبين المدارس الفقهية بعضها البعض ، أو بين المتكلمين والفقهاء أو بين أهل السنة ومعتكلى الشيعة ، ليس لأنه ينتج عنه تبادل الاتهامات بالكفر والخروج عن دائرة الشرع - فقد حدث هذا من قبل - ولكن لأن أحد المفاهيم الحديثة للتجديد يشير للشك في فعالية الاسلام ذاته - كنظام شامل - ما لم يتبنى الأسس الفكرية للمدينة الغربية الحديثة . وبذا ، فإن الامر يتعدى نطاق الاختلاف في إطار الاسلام مهما تعددت الاتهامات بالتكفير ، ومهما تعددت الاعتقادات بخصوص طبيعة الفرقة الناجية وفقا للحديث الشريف عن ان الفرقة الناجية بعد تقسيم المسلمين هي من هي على مذهبه - صلوات الله وسلامه عليه - وأصحابه . ان الامر يتعدى نطاق هذا الى الاختلاف حول الاختيار بين الاسلام نفسه باجتهاداتنا المختلفة داخل إطاره وبين نظام فكرى آخر خارج إطاره .

والنقطة الاخيرة في غلبة الامة لانها تمثل لب فكرة التجديد ، إذ أنه على ضوءها يتحدد مدى فعالية التصور المقترح للاسلام لزاء الشعوب الاسلامية ولزاء المدنية الغربية ، وبالتالي مدى نجاح فكرة تنظيمه الدينى للحياة فى عصر اللادينية .

وبالرغم من إعتراقنا بعظمة الجهود التي بذلت لتكليل الصغريات أمام دروس الفكر الاسلامى اقيم وحديثه ، فإنه لأمر شائك فى مناخ فكرى أسهمت فى سيادته عناصر متعددة غير اسلامية ، ان يسعى الباحث بوضوح منهجى لكى يحلل ويقارن بين مناهج الاجتهاد والتجديد المختلفة حتى يميز الخبيث من الطيب ، خاصة إذا كان للخبيث اتصاله الاقرباء ، وإذا كانت حركة نشر التراث الاسلامى قد ولعت فريسة لحركة الإستشراق الاجنبى منذ بدأ المستشرقون يرسمون منذ منتصف القرن السابع عشر قواعد اسلوب معين

فى تناول إتراث الفكرى للأمة الاسلامىة ، يهدف الى تصوير تلك التراث على انه يحمل فى كفاة مجالاته ما يؤكد إتصاف الفكر الاسلامى بالتعبىة والعفوىة كخصائص جوهرىة للعقل العربى من ناحية ، وللتعاليم الدينىة الاسلامىة من ناحية أخرى .

والنتىجة هى حدوث خلط وتشوش للمفاهيم يستلزم جهدا منهاجىا شاقا لازالته وتوضىح غموضه .

- ويكتسب التجديد أهمىته أخيرا لأن قضىة التجديد تثير قضىة التفاعل بين الثقافات المختلفة ، بحيث ان المنحرج من ذلك التفاعل يقنف به الى فريق الجامدين ، بينما يرحب بالمتحمس له ، بوصفه مؤمنا بوحدة الحضارة العالمىة ، وهى الحضارة الغربىة بالطبع .

كما ان موضوع التجديد فى الفكر الاسلامى ، تتبع أهمىته من انه بمثابة القلب فى أية محاولة للإحياء الاسلامى .

فعلى المستوى الفكرى إرتبط إزدهار الاسلام والدولة الاسلامىة بالنشاط التجديدى العظيم الذى تمثل فى " الاجتهاد " ، وعلى العكس إرتبط إضمحلال قوة الدولة الاسلامىة باغلاق باب الاجتهاد ، وتحول النشاط الفكرى للامة الى الشرح وشرح الشرح على المتون .

ويأتى اسم " جمال الدين الأفغانى " على رأس رواد التجديد فى القرن التاسع عشر الميلادى ، الذى يمثل نروة الفترة الإنتقالىة للفكر الاسلامى كرد على التحدى الاوروبى الغربى المبدي بحملة يونانبرت ١٧٩٨م وما تلاها من إزدياد النفوذ الاوروبى فى أرجاء الدولة العثمانىة ، على النحو الذى أدى الى إضمحلالها وإنهاء الخلافة الاسلامىة ذاتها بعد ذلك بنحو قرن وربع قرن .

لهذا عولنا على ان نجعل من جمال الدين موضوعا لدراسة مستفيضة ومتعمقة ، فى محاولة لسبر أغوار العقل النهضوى العربى باعتبار جمال

الدين أحد أسس هذا العقل وجنوره ، ورائد لمدرسة قائمة بذاتها في مجال التجديد في الفكر الاسلامي المعاصر ، ويكفي أن الأستاذ الإمام " محمد عبده - وهو من هو مقاماً ومكانة - أحد تلاميذه النجباء .

وقد خصصنا الدراسة الحالية حول الفلسفة السياسية لجمال الدين ، على أن نقوم في دراسة تالية بدراسة فكره للفلسفي والاصلاحي .

ما هو الهدف الاساسي أمام جمال الدين الأفغاني والذي عبر عنه بفكره وحركته ؟

يمكن القول إن ذلك الهدف كان هو التنبؤ بشرق بعينه آسيوي كمقابل للغرب ، وتحقيق هذا الهدف سعى الأفغاني لإنقاذ أمم الشرق من ثباتها على الفهم السلفي الجامد للدين الذي أدى في - إليه إلى تخلفها ، ومن ثم إلى خضوعها للاستعمار الغربي ، ولذا فإن السعي نحو تطوير أو تحديث الدين كان - يهدف إلى تحريك الشرق على يقوم الاستعمار ومن ثم إزواجه في الأفغاني تحديث الدين على مستوى الفكر ومقاومة الاستعمار على مستوى الحركة سعياً وراء هدفه الاساسي .

والسؤال هو : هل أن مقاومة الاستعمار كانت تكتسب فعاليتها مع تطوير الدين الاسلامي ليتقبل أساسيات الفكر الغربي ، الامر الذي كان يعني تبعية أمم الشرق في نهاية الامر للغرب أو تحقيق عكس ما كان الأفغاني يرمى إليه ؟

هذا ما حاولت الدراسة الكشف عنه .

ومن إزنواجية الفكر والحركة هذه في جمال الدين الأفغاني ، رأت الدراسة أنه ينبغي الفصل بين كافة الجوانب المختلفة في شخصيته ، ودراسة كل جانب على حده ، وذلك على النحو التالي :

بدأت الدراسة بفصل تمهيدى ، يوضح إشكالية مسيرة جمال الدين الافغانى من حيث غموض أصله ، وذلك ليكون بمثابة " مفتاح الشخصية " الذى نلج به عالمه المتشاك .

يلى ذلك باب فى فلسفة السياسة ، وخصصناه لدراسة الفكر السياسى لجمال الدين ، مؤكدين على الاهمية القصوى للجانب السياسى فيه ، والذى هو بمثابة اللب من كافة افكاره واعماله .

وجاء هذا الباب فى فصلين . الاول تناول فكرة الوحدة والتكامل الاسلامى ، والتى اطلق عليها البعض اسم " الجامعة الاسلامية " عارضا لنشأة الفكرة ، ثم تقييم الدارسين لها لدى جمال الدين الافغانى ، ثم قام الباحث بدراسة الفكرة بنفسه ، مستندا الى نصوص جديدة ، بعضها لم ينشر من قبل ، وبعضها لم يستند اليه الباحثون ، محاولا إثبات جانب جديد فى جمال الدين ، وهو الجانب القومى العربى .

وجاء الفصل الثانى ليتناول فكرتى " الحرية " . والديموقراطية " لدى جمال الدين ، من حيث المعنى والاستخدام ، فى محاولة لقراءة افكاره السياسية على ضوء الفلسفات السياسية السائدة قبل ، وإبان القرن التاسع عشر .

هذا وقد نيلنا الدراسة بملحق يحتوى على النصوص والمقالات التى استعنا بها لتوضيح رأينا وللإستدلال على مواقف جمال الدين ، بلسان جمال الدين ذاته ، وليس بغيره ، وذلك عونا لمن أراد الإطلاع على النصوص كاملة فى صورة كاملة ، لا جزئية مقطعة .

وخلال ذلك كله حاولت الدراسة إكتشاف الخيط الفكرى الواحد ، الذى ينظم أفكار جمال الدين كلها فى عقد واحد .

بصدد المنهج :

اعتمدت الدراسة " المنهج التحليلي التاريخي المقارن " كأفضل منهج ليرتأته صالحا لمثل هذه الدراسة ، وذلك تفاديا للبس الذي قد ينشأ من الغوص في مباحث متعددة الكم ، متنوعة الكيف ، مما قد يجعل بالتالي التصدى لمثل هذا البحث عمل شاق لكثرة الكتب والدراسات السابقة ، فربما كان الاقناعي حسن الحظ إذ ظفر بجهد الباحثين ، وتوفر عليه النظر والبحث باللغات العربية والاوروبية .

إلا أن الاقناعي - كما رأت الدراسة - لم يحظ بدراسة شاملة ومتكاملة تتأوله كحقيقة كلية ، أيا كان الحكم عليها ، بدلا من توفره بهذا الشكل المحير ، كحقائق جزئية متعددة تؤدي كل منها لحكم يصدق بقدر إقترابه من إحداها ، ويكذب بقدر إبتعاده عن الحقائق الأخرى .

لقد حفلت معظم الدراسات والأبحاث كما رأتها الدراسة ، بالقصور ، الناشئ عن الغموض والضعف وإضطراب الحقائق وتضارب الأحكام .

ويعود جزء كبير من ضعف العرض والإضطراب الفكري ، إلى قلة الجهد المبذول من الدارسين لجمعها وتنقيحها وربط بعضها ببعض في سياق معقول ، تتوفر فيه شرائط القرينة التاريخية والعرض المنطقي ، وهو ما حولت الدراسة تلاقيه وتجنبه .

لذلك حاول الباحث دائما ، أن يسلك مسلك الباحث عن الحقيقة ، المتحدث بلسان غيره ، لا مسلك المتحرك بدواعي جاهزة ومسبقة ، الذي يحاكم ويصدر أحكامه .

ويأمل الباحث من خلال ذلك كله ، أن يكون قد أفلح في تجنب تلك

المخاطرة التي تواجه من يتصدى لموضوع كثير الورد ، لما يترتب على ذلك من زهد الناس في القراءة لوفرة ما قرأوا ، أو نفورهم لغنى ما رأوا ، ومن هنا فلا بد أن يضيف الدارس الجديد جديدا ، أو يكشف عن شيء كان معي ، وأن يجلي أمر كان في حاجة إلى بيان وإعراب •

نسأل الله العون والتوفيق ، وله الحمد والشكر من قبل ومن بعد •

دكتور

هاني عبد الوهاب المرعشلي

فصل تمهيدي

المدخل إلى فكر جمال الدين الافغانى

المبحث الأول : تمهيد عام

المبحث الثانى : السيرة : مشكلة .. وحل .

حقيقة عصره :

بنظرة عامة على القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع الميلادى - ، وهو العهد الذى نشأ فيه جمال الدين وظهر نجمه ، نجد أنفسنا إزاء معطيات كانت بمثابة إرملصات أدت بالضرورة إلى ظهور جمال الدين بدعوته ، كنتيجة لازمة عنها ورد فعل لها . -

ومعطيات العصر فى هذا الآن هى :

أ - حالة أوروبا .

ب - حالة الدولة العثمانية .

ج - حالة الشرق عامة ، كنتيجة للحالتين السابقتين .

وسنحاول ، بإيجاز ، الحديث عن كل من هذه المعطيات بقدر الامكان ، لأنه ليس من طبيعة بحثنا هنا الخوض فى هذه الأمور التاريخية ، الا بقدر ما نخدم موضوع بحثنا الأصلى .

(أ) أوروبا :

كان لتوجيه الفلسفة نحو الوجهة العملية فى أوروبا أثره فى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى - الثامن عشر الميلادى - ، فلقد جد الجد وتحققت أحلام " روجر بيكون " فى الفلسفة ، فوصلت البحوث الفلسفية العملية إلى قوة البخار وقوة الكهرباء فى هذا القرن ، وقد كان لهاتين القوتين أثرهما فى قوة أوروبا وعظمتها .

وبان القرن الثالث عشر الهجرى - التاسع عشر الميلادى - ، كان التقدم العلمى فى أوروبا يسير جنباً إلى جنب مع التقدم السياسى ، فأدى تقدمها العلمى إلى اختراعات جديدة غير التى ظهرت فى القرن السابق ، فظهر فى أوروبا اختراع التليفون (المسرة) ، والفتوغراف (حاكى للصوت) ، وغيرهما من الاختراعات ، إلى أن توصلت إلى اكتشاف القنبلة الذرية وغيرها من الاختراعات النووية .

ومن جهة أخرى فقد بلغت أوروبا غاية عظمتها في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي - ، حتى صارت فيه هي المتسلطة على أمور العالم والمهيمنة على مقاليدته ، تصرفها وتديرها كما تشاء سياستها وعلى وفق مصالحها ، وقد لامت في هذا العهد دول كثيرة مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وروسيا ، ولولا تنافسها على حكم العالم لتم لها التسلط عليه بأجمعه .

(ب) الدولة العثمانية :

كانت معاهدة (كارلو فوتسي) التي تمت بين الدولة العثمانية والتركية من جهة ، والنمسا وروسيا والبندقية وبولونيا من جهة أخرى سنة ١١٠ هـ - ١٦٩٩م ، عقب الحرب التي قامت بينهم على عهد السلطان العثماني مصطفى الثاني (١١٠٦ هـ - ١١١٥ هـ = ١٦٩٥ - ١٧٠٣ م) ، بداية لظهور ما عرف باسم (المسألة الشرقية) التي تقوم أساساً على أساس الاستيلاء على تبالاد الإسلامية بأسم الاستعمار السياسي ، ولتستمر خلفه للقضاء على الدين الاسلامي ، الذي يقف حجر عثرة في سبيل هذا الاستعمار .

وما أن حل القرن الثالث عشر الهجري ، حتى كانت الدولة العثمانية تعرف بين دول أوروبا باسم (للرجل المريض) ، وكانت تلك الدول قد اتفقت على تقسيمها في القرن السابق ، إلا أن أطماعها فيها قد تضاربت في هذا القرن ، فصارت كل دولة منها تتنزع ما يمكنها لتتراجع منها في غفلة الدول الأوربية الأخرى ، وقد كان لتضارب هذه الأطماع وإضطرابها فضل بقاء هذه الدولة في هذا القرن ، وإن كانت قد بقيت مريضة لا يرجى شفاؤها ^(١) ، لأن أوروبا عملت

(١) عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الاسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر الهجري ١٠٠ هـ - ١٣٧٠ هـ . الطبعة الثانية ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجواميز ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ص ٤٤٦ .

على إيقاتها كذلك ، عن طريق شغلها بالحروب المتوالية ، وإثارة الفتن الداخلية فيها .

فى هذا القرن فقدت الدولة العثمانية أكبر أملاكها فى أوروبا ، كما فقدت الجزائر فى المغرب باستيلاء فرنسا عليها سنة ١٢٤٦هـ = ١٨٣٠م ، والتي كانت قد استولت على مصر أيضا سنة ١٢١٣هـ = ١٧٩٨م ، ولم تتمكن السلطنة العثمانية من إخراجها منها إلا بعد ثلاث سنوات بمساعدة إنجلترا ، إلا أنها استولت بعد ذلك على تونس سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م ، وبمقد معاهدة باريس سنة ١٨٥٦م التي انتهت بها حرب القرم ، أصبحت تلك الدولة كأنها تحت حماية إنجلترا ، وصار سفير إنجلترا فى الأستانة كله الحاكم الفعلى للدولة العلية وما يتبعها من ولايات^(١).

(ج) الشرق :

الاستعمار الأوروبى فى قمة عنفوانه وجبروته ، وأمم الشرق إما خاضعة له ، أو هى محط هدفه ومقصده^(٢) فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تغزو لقرية ، كانت بريطانيا تعمل على أن تطأ أقدامها جنوب جزيرة العرب ، فاحتلت عدن سنة ١٨٣٩ ، ثم أخذت تبسط نفوذها على مر السنين فى المناطق القريبة والناحية ، بحيث لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى مدت شراكها إلى الكثير من الأصقاع الجنوبية من شبه جزيرة العرب ، وكانت تحتل الهند ، وتدير بلاد المكائد الأفغان .

وفى ذات الوقت كانت معظم جزائر الهند الشرقية (أندونيسيا) خاضعة للاحتلال الهولندى وسلطانة الغاشم . ومصر كانت تكتنفها المطامع الاستعمارية

(١) محمد ضياء الدين الرئيس : الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث . ط ٢ ، مكتبة الشباب بالقاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٤٢ .

(٢) عبد الرحمن الراعى : جمال الدين الأفغانى ، باعث نهضة الشرق ١٨٣٨-١٨٩٧ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١١ .

وتلاحقها من كل فج ، فبريطانيا لم تزل تحاول تعويض إحقاقها في حملة فريزر سنة ١٨٠٧م لاحتلال مصر ، وفرنسا تنافسها في بسط النفوذ السياسي والاقتصادي على مصر ، وقد امتدعت في عام ١٨٥٤م امتياز حق حفر قناة السويس . وكان " اسماعيل " والى مصر وقتئذ قد ساق البلاد سوقاً إلى الخراب المدمر ، فباع مولد البلاد ثمناً للربا، وأغرقها في الديون .^(١) وايران لم تزل منذ القرن الماضي ، موضع نزاع بين الدول الاستعمارية ، فكانت روسيا وإنجلترا تتصارعان على التدخل في شئونها ، ووضع اليد على مولدها .

الإطار العام لظهور جمال الدين

بداية من القرن الثامن عشر الميلادي إلى أواخر القرن التاسع عشر تكاثرت العوامل السابقة بما واكبها من عوامل مهيئة ووسائل معينة ، وما ترتب على ذلك من نتائج ، لكي تبرز لنا العصر الذي نشأ جمال الدين في ربوعه ، عصرًا متميزاً بسماته .

فلقد كان عصر جمال الدين هو عصر ازدهار الاستعمار ، أو عصر الغارة الأوروبية على العالم الإسلامي ، بداية من دخول التأثيرات الحضارية الأوروبية إلى البلاد الإسلامية ، لاسيما بعد الحملة الفرنسية^(٢) ، واستعمار الغرب لهذه البلاد ، إلى عملية الهجوم على الإسلام باستخدام البعثات التبشيرية المسيحية ، وتغريب التعليم .

كان هدف الاستعمار الغربي في الشرق الإسلامي هو إضعاف المسلمين في إسلامهم بالذات ، وانشغرت سياسته في توجيه الفكر الإسلامي ذاته نحو تحقيق

(١) محمد ضياء الدين الرئيس : الشرق الأوسط في التاريخ الحديث ، مرجع سابق ، ص

(2) A History of Muslim Philosophy, with short accounts of other disciplines and the Modern Renaissance in Muslim Lands, Edited and introduced by M.M. Sharif, No 1, Two. OTTO Harroswitz. Wiesbaden, P. 1482

هذه العاية ، إلا أن هذا التوجيه - ثر - فعل منشئ له - جوبه بتيار مقنوم
يعترض طريقه .

وبذا يكون الاستعمار الغربى - دون أن يدري - بسياسته ، قد ولد لأمنا
اتجاهين متضادين ، على النحو التالى (١) :

(١) الاتجاه الأول :

اتجاه ممالى للاستعمار ، يتمثل التوجيه الاستعمارى لإضعاف المسلمين
وحصر الإسلام . وقد برز هذا الاتجاه فى تيارين :

التيار الأول :

قيام بعض مفكرى الإسلام بحركة تقدمية فى الإسلام ، تبغى تقرير سلطة
المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين ، بسند من وجهة النظر الإسلامية بما
يؤدى إلى عدم تحديه ومعارضته ، سواء فى مباشرة سلطاته على المسلمين ، أو
إدخاله ما يسميه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم .

ويمثل هذا التيار : حركة السيد أحمد خان بالهند ، وما تفرع عنها من
القاديانية ، ثم الأحمدية .

التيار الثانى :

يهدف إلى إبراز الخلافات المذهبية ، والفجوات بين طوائف المسلمين
وشعوبهم من الوجهة الشعبوية أو الجغرافية أو السياسية (نظم الحكم) ، مع
القيام بعرض الإسلام ، يشرح مبادئه بصورة مشوقة تتحرف بها عن أهدافها
الأصلية . وقد قام بتلك المهمة خير قيام بعض من المستشرقين .

(١) الاتجاه الثانى :

اتجاه إسلامى فكرى مقاوم للاستعمار الغربى ، كرد فعل عاى مباشرة ، نعى
مظهره السياسى ، وإنما يستبطنه من عدااء للإسلام ومحاولة إضعافه ، وما كان

(١) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى . ط٦ ، دار الفكر

- بيروت ١٩٧٢ ، ص ص ٣٥ - ٣٦ .

من توجيهه للفكر الإسلامى نفسه ، عن طريق بعض مفكرى المسئمين ، لتحقيق غايته ، كما رأينا على النحو السابق .

ولقد كان هذا الاتجاه وايد العصر بارهاصاته وظروفه التي كانت تحتم ظهور هذا الاتجاه بممثليه . كان الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت يبرز تحت نير شعورين قويين فى وقت واحد .

أما أولهما : فهو الشعور بالاحتطاط الداخلى سياسياً ، وعلمياً . حقيقة ان الدولة العثمانية قد ظلت باقية فى هذا القرن ، إلا أن فضل بقائها إنما يرجع إلى صراع الدول الأوروبية فيهما بينها من أجل تحقيق لطماعها فى انتراعها ، وبرغم بقائها إلا أنها قد بقيت كما هى " الرجل المريض " الذى لا يرجى له شفاء ، لأن أعداءها من دول أوروبا قد عملوا على بقائها مريضة ، وذلك بشغلها بحروبهم المتوالية ، وبإثارة الفتن الداخلية فى أرجائها ، مستغلين فى ذلك ما حصلوا عليه من امتيازات فى بلادها خلال القرون السابقة ، تلك الامتيازات التي تمكنوا بها من استمالة بعض أهلها إليهم ، ممن كان لهم موقف يزيد من سقم الرجل المريض ، ولا سيما الطوائف المسيحية بموالاتهم لأوروبا ، وهو موقف لا نجد له تفسيراً مقنعاً ، فالبعض ^(١) يلتمس العذر لهذه الطوائف فى أنها كانت مرتعاً لفسائس الأوروبيين ، فكثروا يستغلونها بأسم الدين ، بينما هى تجهل أنهم مستعمرون سياسيون يريدون إعادة استعباد اليونان والرومان لبلادهم ، غير مفرقين فى استعبادهم لها بين مسلم ومسيحي من أبناء تلك البلاد . فالعذر هنا ملتمس لتلك الطوائف بأسم الدين .

إلا أن بعض الدارسين المتخصصين يوردون رأياً آخر ^(٢) ، فيرى أن معاهدة برلين التي أنهت أزمة ١٨٧٥-١٨٧٨م ، أظهرت أن الامبراطورية العثمانية لم تعد ممسكة بزمام مصيرها ومصير كل ولاياتها . وقد جاء الاحتلال

(١) مثل : عبد المتعال الصعيدي : المجددون فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص

2) Houran Abbert, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939, Oxford University Press, 1967, P 103.

الفرنسي لتونس سنة ١٨٨١م ، والاتجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م ، ليكشف عما خفى من حقيقة تلك الواقع المر . " وبذا تحول الفكر السياسي للشرق الأدنى ، منذ تلك الوقت ، تحولاً جذرياً . نعم ، كانت حسنت الوجود الأوروبي ، في نظر بعض نصارى الشرق الأدنى ، تفوق سيئاته . إذ لم تكن السيطرة الأوروبية لتعارض مع نظريتهم العامة في الحياة ، ناهيك بما علقوا على هذه السيطرة من آمال النفوذ والثقافة لطوائفهم والفلاح لأنفسهم ."

فالحذر هنا يرجع إلى توطد وجهة النظر بين هذه الطوائف وبين أوروبا ، بالاضافة إلى أطماعهم الشخصية التي يعرضون على أوروبا في تحقيقها . ويقتصر هذا الاحتياط السياسي ، اتخذت له بين تلمذتين في هذا القرن ، وصار عاماً قديماً باتياً لا جدوى فيه ، ولا يناسب العصر الحديث ، بعد أن مضى عليه قرنان ودخل في الثالث ، ومع هذا ظل حامداً كما هو لجمود أمله عليه جموداً شديداً ، حتى أنهم كانوا يريرون غيره حكاماً ، وكان أحد الزعماء يرمون بهذا القيل المشهور (لا علم إلا بالحري) (١) ، قائلاً هو ضم الأرض فقط ، ولا تمتاز علينا أوروبا إلا بالتمساعة فقط .

أما الشعور الثاني : فقد نجم عن الأول ، وهو الشعور بالخطر الداخلي أولاً ، والذي يتمثل في الاحتطاط الداخلي بنوعيه - والذي يمتد للخطر الخارجي ثانياً - والمتمثل في الاستعمار الأوروبي . فقد صارت الدولة العلية كئيباً تحت حماية لجلترا . أكثر عن هذا كانت روح الانبهار والإعجاب بالمستعمرين تسرى بين الشعوب الإسلامية ، وظهرت دعوة قوية إلى اتباع الغربيين (٢) .

ومن ثم كان على المسلمين الدفاع عن ترصيمهم ضد المستعمر ، وعن عقيدتهم ضد الغزو الفكري الأجنبي . ولذا نشأت الحاجة إلى تطويع التراث وابتداع أساليب جديدة للحياة ، لتغلب على ضعفهم الذي كشفه الاستعمار الغربي .

(١) الصعيدي : المجنون في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٤٩ .

(٢) محمد ضياء الدين الرئيس : الشرق الاوسط في التاريخ الحديث ، مرجع

سابق ، ص ١٤١ .

كانت قضية الاحتفاظ الداخلي قد شغلت عقول المسلمين دوماً ، أما الآن فقد اقرنت بها قضية جديدة هي قضية البقاء ، المطروحة على الشكل الآتي :

كيف يمكن للدول الإسلامية مقاومة الخطر الخارجي الجديد ؟ (١)

عندما أيقن المسلمون في هذا القرن بأن ما حل بهم من النكبات هو بسبب تقدم أوروبا عليهم في علومها وأنظمتها الحديثة ، رأى الذين شعروا منهم بالخطر المحقق بهم ، أنه لا بد لهم من تقليد أوروبا في علومها وأنظمتها التي نهضت بها ، وهذه الأنظمة بعضها يرجع الى نظام الحكم ، وبعضها يرجع إلى نظام الحرب ، وبعضها يرجع الى غير ذلك من الأنظمة (٢) .

أما الذين لم يشعروا بهذا الخطر ، فلم يذهبوا إلى تقليد أوروبا فيما جد عندها من علم وأنظمة ، بل رأوا أن الخطر الحقيقي إنما يكمن في تقليد أوروبا ، لأن هذا التقليد يؤدي إلى ضياع الدين والدولة ، ويصير بالأمة الإسلامية إلى حالة التبعية لأوروبا .

ومن هنا برزت من جديد الدعوة إلى التجديد ، فلقد كان المسلمون بحاجة الى مجدين آخرين ، بخلاف السابقين يدركون مدى ما وصلت إليه أوروبا في مدنيّتها المتقدمة ، ومقدار حاجة المسلمين إلى اللحاق بها ، بعد اتساع الشقة بينها وبينهم .

وقد حفل هذا القرن بالمجدين وبدعواتهم ، لأنه امتاز على غيره من القرون السابقة ، بكثرة من تنبه فيه من المسلمين إلى تأخر المسلمين عن غيرهم ، وإلى ضرورة السعي لإصلاحهم (٣) :

هؤلاء المجدين في هذا القرن ، الثالث عشر الهجري = التاسع عشر الميلادي ، منهم مجددون مدنيون مثل : السيد أحمد خان ، ومنحت باشا ، وخير الدين التونسي ، ومنهم مجددون من المتفكّهة والمتصوفة : كالشوكاني اليمني ،

(1) Hourani, Albert Arabic Thought Op. Cit., P. 104 .

(٢) عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ، مرجع سابق ص ٤٥٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٧٠ .

والقاضي الأنصاري ... وغيرهم ممن تأثروا بنزعة ابن تيمية في التجديد،
ومجددون مثل : محمد بن علي السنوسي ، والأمير عبد القادر الجزائري ، وهما
من المتصوفة .

ومنهم مجددون جمعوا بين الثقة في الدين والدنيا ، وسعوا في الإصلاح
الديني والمدني ، مثل جمال الدين ، ومحمد عبده . وفي نفس هذا القرن ظهر
ميرزا علي ، المعروف بالباب ، وتبعه في دعواه طائفتا البابية والبهائية (١) .
وهكذا تزامن الانحطاط الداخلي سياسياً وعلمياً ، مع خطر الاستعمار
الخارجي وما أتى به من ألوان الغزو الفكري الأوروبي ، وظهرت دعوة قوية
إلى اتباع الغربيين ، وكان هناك عاملان على رأس هذه الدعوة ، هما السلطان
عبد الحميد في تركيا ، والخديو إسماعيل في مصر .
وكانت رسالة جمال الدين هي منع الشعوب من الوقوع في هذا الشرك (٢) .

السيرة :

من المعتقد لدى الباحثين عند تناول سيرة المفكرين الذين هم بصدد
دراستهم، ان يملأوا سرياً على تلك الجزء من الدراسة باعتباره من الأمور التي
ليست لها أهمية كبيرة في تحديد المسار الفكري للشخصية موضع الدراسة .
فهذا المسار يعتمد في تحديده على دراسة التطور الفكري ذاته .
ومن المعتقد أيضاً ألا يشير الجزء الخاص بالسيرة في أية دراسة ، أية
مشكلات علمية ، بل يتعلق بحقائق تقريرية غير مختلف عليها .
غير أن الأمر في حالة السيد جمال الدين يختلف . فبالرغم من أننا هنا لزاء
شخصية تاريخية باهرة ، ومن المفترض ألا يشير أمر سيرتها جداً ، إلا أننا نجد
على العكس من ذلك ، أن دارسي جمال الدين - عرباً وغير عرب - قد اختلفوا
لزاء حقيقة نسبة إلى قرينتين ..

(١) الصعدي : المجددون في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٧١ .

(٢) محمد ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط في التاريخ الحديث ، مرجع سابق ص ١٤١ .

فريق يرى أنه ينتسب إلى أفغانستان ، والآخر يدافع عن انتسابه الى إيران .
ونلاحظ هنا أن أغلب الدارسين يقرر انتسابه لبلاد الأفغان ، أو لإيران ،
ولا يتوقف كثيراً لبيان الدواع التي حدثت به الى ترجيح إحدى وجهتي النظر
على الأخرى ، أو لا يذكر شيئاً بالمرّة عن الطبيعة الخلقية للمسألة .

ونحن لا نزعم أننا توصلنا إلى حسم المشكلة ، وإنما نعرض الحجج
المتعارضة بصددّها ، مفترضين أنها مسألة جديرة بالتحقيق ، ومختلفين في هذا
مع عديد من الدارسين الذين يغفلون أهمية هذا الموضوع .

وأهمية الموضوع من وجهة نظرنا تتلخص في أن الباحثين استندوا في
تقييمهم لفكر جمال الدين ، ضمن ما استندوا إلى تحديد واضح لسيرته .

فيمكن القول على وجه الاجمال إن الدارسين الذين أبدوا وتعاطفوا مع أفكار
جمال الدين ، قلّوا بأنه أفغاني الأصل ، ولد في قرية (أسعد آباد) من أعمال
كابول ببلاد الأفغانستان ، وإنه سني حنفي المذهب ، لأن القول بأفغانيته يجعله
منتسباً إلى مذهب أهل السنة ، مما حدا بأحد المستشرقين إلى نعتّه بـ«بسه كان سنياً
وصوفياً في آن معاً»^(١) . على حين أن الذين وقفوا موقف العداء من أفكار
ومواقف جمال الدين قد قالوا بأنه إيراني الأصل ، ومن ثم فهو شيعي المذهب ،
وإن كان هذا لا يمنع من وجود دراسات تقرر الأصل الشيعي لجمال الدين ، دون
أن تناصبه العداء^(٢) .

وكما قلنا فإِنَّه ليس من هنا أن نحسم الخلاف بين الفريقين لصالح
أحدهما ، أو أن نوفق بينهما على نحو ما حاول البعض أن يفعل ، ويجعل من

1) Smith, W.C. Islam in Modern History, Princeton University
Press, Princeton, New Jersey, 1957, P. 48 .

(٢) انظر في تفصيل هذا :

ميرزا لطف الله خان : جمال الدين الأسد ابادي المعروف بالأفغاني : التعريف به
وباثاره . ترجمة الدكتور عبد النعيم محمد حنفين . ط ١ ، دار الكتاب اللبناني ،
بيروت ١٩٧٢ .

جمال الدين أفغانياً وإيرانياً في آن معا (١) . بل نكتفي بالقول بأن مسألة أصله لم تحسم بعد ، على نحو ما ذهبت إليه بعض الدراسات المعاصرة (٢) .

ففي حقيقة الأمر يمكن القول إن تقرير أي من الأصليين ، الأفغانى أو الايراني ، لجمال الدين ، لا يلزم عنه ، بغض النظر عن بواعث أغلب دراسيه - أكثر من جلاء وجه الحقيقة ، إحقاقاً لأمانة البحث العلمى وتزاهته . ولا يلزم عن ذلك القول بأن جمال الدين كان سنياً أو شيعياً .

فالحق أن دراسة فكر الرجل - على نحو ما سوف يبين فى الفصول التالية - لا تشير إلى شئ من هذا القبيل ، فجمال الدين كان فوق المذاهب وانفرد . وبالرغم من أن محمد عبده يقرر أن مذهبه - أى جمال الدين - كان (حنيفياً) ، إلا أنه انتهى به الأمر إلى أن أصبح مجتهداً لا يقلد مذهباً من المذاهب (٣) ويقرر الفرد بلنت أن جمال الدين " كان يوحى الشجاعة بجرأته وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب أبى حنيفة ، فيقبل الناس نقده بما لم يمكن أن يتيسر لرجل غيره " (٤) .

فمنهج الباحث إذن هو بيان حجج القائلين بسنية جمال الدين ، والقائلين بشيعيته ، ثم - بالاستناد إلى أقواله - توضيح أنه لم يكن من جماعة أهل السنة ، ولم يكن كذلك من أهل الشيعة ، ليكون ذلك بمثابة مدخل صحيح لدراسة فكر

(١) " ذهب شيخ إيراني درس في الأزهر إلى أن والد السيد جمال الدين كان إيرانياً وضابطاً في جيش الإيراني ، ثم رأت حكومته أن تبعث به في مهمة رسمية إلى حدود بلاد الأفغان ، فأعجبه هذه البلاد ، فأرضاعها مقاماً له ، وبني بأحدى بكراته الأمر فيها ورزق منها بالسيد جمال الدين " .

انظر محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته . مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٠ .

(2) Sharif M.M., "Ed". A History of Muslim Philosophy. Otto Harroswitz, Wiesbaden. Nolume Two, P. 1484.

(٣) محمود أبو رية : جمال الدين الأفغانى ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧١ ، ص ٤٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

جمال الدين .

يمكن القول إن الرأي الشائع بخصوص سيرة السيد جمال الدين هو الرأي القائل بسنيته تأسيساً على انتمائه لبلاد الأفغان ، ولعل أبرز القائلين بهذا الرأي : عبد القادر المغربي ، الذي يذكر أنه كتب مقالاً في : (جمال الدين ، أهو أفغاني أم إيراني) ، تتلخص حججه في أن الشك في أفغانية جمال الدين : " يورثنا الشك في كثير من أخبار رجال التاريخ الأقدمين ونسبتهم " .^(١) وأن لجمال الدين كتاباً في تاريخ الأفغان أسماء : (البيان في تاريخ الأفغان) ، وهذا الكتاب خاقل بمقاطع كثيرة " يستأنس بها على أن السيد كان أفغانياً سنياً ، لا إيرانياً شيعياً " .^(٢) ويؤيد هذا الرأي الشيخ محمد عبده في ترجمته لجمال الدين^(٣) ، إذ يقرر أنه ولد في بلاد الأفغان في قرية أسعد آباد " في خطة " كندر " من أعمال كابل ببلاد الأفغان ، وأن مذهبه كان حنيفياً حنفياً ، وهو وإن لم يكن في عقيدته مقادراً ، لكنه لم يخالف السنة الصحيحة . .^(٤)

(١) عبد القادر المغربي : جمال الدين الأفغاني : تكميات واحاديث ، ط ٢ ، سلسلة أقرأ ،

دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ ، ص ٢٨ .

(٢) وينقل المغربي نقرة من الكتاب المذكور بعاليه تؤيد ما يقول : " وجميع الأفغانيين

سنيون متذهبون بمذهب أبي حنيفة ، لا يتساهلون رجالاً ونساءً ، حضريين وبدويين في

الصلاة والصوم سوى طائفة (نوري) فانهم متوغلون في التشيع ولهم محاربات شديدة

مع جيرانهم السنيين ولا يبالون الصلاة والصوم ، وإنما يهتمون بأمر مائت الحسين

(رضي الله عنه) في العشر الاول من محرم ويضربون ظهورهم واكتافهم مكشوفة

بالسلاسل . . ويعقب المغربي قائلًا : إنه لو كان الأفغاني إيرانياً لكانت لهجة في

التحدث عن سنية الأفغانيين وتشيع بعض طوائفهم غير هذه اللهجة . . نفس المرجع ،

ص ١٩٢ .

(٣) أنظر : محمد عبده ، الشيخ : التأثير الإسلامي جمال الدين الأفغاني ، كتاب الهلال ،

القاهرة ، أكتوبر ١٩٢١ .

(٤) نفس المرجع ، ص ص ١٧ - ٢٨ .

ويعزو الدكتور محمود قاسم نسك في أفغانية جمال الدين إلى الروح
المذهبية التي سادت في الخلاف بين أهل السنة وأهل الشيعة (١) .

ومن الدارسين للدين يذهبون إلى الرأي نفسه ، من يذهب إلى أماد أبعد في
تقييم فكر جمال الدين استناداً إلى تقرير حقيقة نسبه ، فيذهب الدكتور محمد
عمارة إلى أن جمال الدين وإن كان قد ولد في بلاد الأفغان ، إلا أن نسبه يعود به
إلى أصول عربية ، إذ يرتفع به النسب إلى السيد علي الترمذى ، ثم يرتقى إلى
الإمام الحسين بن علي ، رضى الله عنهما ، وهو النسب الذى لم يحفظ فقط
لجمال الدين صورة للعربى الأصل من ناحية الشكل ، وإنما جطه فكراً وعملاً
منتزحاً ومنحازاً إلى جانب الحضارة العربية واللسان العربى بوصفهما أبرز
ملامح الحضارة الإسلامية التي عاش لها وأعطاهما من عقله وجهده الشيء
الكثير (٢) .

وصوف نرى أن مسألة الأصل للعربى لجمال الدين تستخدم من ناحية أخرى
لتدعم موقف للقاتلين بشيعيته . ومن المهم هنا أن نوضح أن الكتاب الذين قالوا
بأفغانية جمال الدين (٣) ، وقفوا جميعهم على اختلاف مواقعهم موقف المؤيد

(١) يذكر محمود قاسم أن السبب في الرواية القائلة بأن جمال الدين يرائى ربما يرجع إلى
ما ذكره (محمد حسن خان) الملقب باعتماد الدين في كتبه المعروف باسم (الآثار
والآثار) من أن جمال الدين نشأ في قرية " سد آباد " من أعمال إيران ، وأن له مقصداً
عالياً في العلوم القديمة والحديثة يفخر به أهل إيران ، ويرد الأمر في جملة إلى
الرغبة في التفاخر بجمال الدين . أنظر :

محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى ، مرجع سابق ، ص ص ٩ - ١١ .

راجع أيضاً : عبد القادر المغربى ، مرجع سابق ص ص : ٨٦ - ٨٨ .

(٢) محمد عمارة : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ، دار الكتاب العربى للطباعة
والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ص ١١ - ١٢ .

(٣) أنظر في تفصيل هذا الموقف ، علوة على ما ذكرنا من دراسات ، : محمد

المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ، دار الفكر الحديث ، لبنان ط ٢ ،

١٩٦٥ ، عباس محمود العقاد : على الأثير ، دار الفكر العربى بالقاهرة ، د . ت .

لأفكار جمال الدين بوصفه داعية لليقظة ومحارباً للاستعمار ، بل ودافعوا عن هذا لأنهم يعلمون أن الشك في حقيقة نسب جمال الدين ربما يدفع إلى الشك في حقيقة دواقعه .

وثمة تعرف آخر من الباحثين ^(١) يستند إلى أدلة أخرى للقول بأن السيد جمال الدين كان إيرانياً ومن ثم شيعياً ^(٢) ولعل لوفى عرض تلك الأدلة نجده في تلك الدراسة التي قدم لها الدكتور عبد النعيم محمد حسنين للترجمة التي كتبها ابن أخت السيد جمال الدين عنه ، تلك الترجمة التي استند إليها بعض الباحثين مثل الدكتور محمد محمد حسين ^(٣) .

(١) أنظر في تفصيل ذلك الدراسات الآتية :

ميرزا لطف الله خان : جمال الدين الأسد آبادي ، مرجع سابق . محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، بيروت دار الفتح ، ط ٢ ، ١٩٧٣ ، كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، .

Albert Howrani, Arabic Thought; Op. Cit.

محمد جبريل : هذه الأعمال الناقصة للأفغانى ، مقال في مجلة الموقف العربي ، العدد ٢٠ ، ٢١ ، ديسمبر / يناير ١٩٧٩ .

فتحى الرملى : البركان للتائر ، دار الثقافة العامة بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٦ .

(٢) غير أن هناك بعض الدارسين مثل : محمد صبيح ، يرى أنه إيراني وسني في أن معاً ، فالسيد جمال الدين بالرغم من أنه من أبناء إيران " فضل أن ينتسب إلى بلد مجاور له فيه جهاد ، حتى لا يظن أحد أنه شيعي بنسبته إلى إيران ، وهو سني " .

أنظر : فتحى الرملى : البركان للتائر ، مرجع سابق ، المقدمة ، ص ٨ .

(٣) الدكتور محمد محمد حسين ، رأى شامل فيما يتعلق بسيرة واهداف جمال الدين . وقد بسط هذا الرأى في أهم دراساته ، ومنعرضه بتفصيل عند تقييم أفكار جمال الدين .

أنظر محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، مرجع سابق ، ص ٧٥-٩٠ .

ومن ناحية أخرى يستند بعض الباحثين إلى دراسة مستفيضة ومهمة قامت بها باحثة أمريكية هي الدكتورة / نيكى كيدى بجامعة كاليفورنيا ^(١)، مما يتركز بصنددها أنها تحتوى على معلومات تهز المتوارث مما كتبه المؤرخين عن السيد جمال الدين ، حيث ثبت أنه من مواليد إيران وليس أفغانستان ، وأنه كان شيعياً وليس سنياً ، وإن لقب الحسينى الذى أضافه إلى اسمه ، أراد أن ينتسب به إلى آل أبييى دون أن يركز فى ذلك على الحقيقة .

وتتخلص حجج إيرانية جمال الدين ومن ثم شيعته فى وجود عائلة جمال الدين فى إيران ، وانعدام أى أثر لها فى أفغانستان ^(٢) ، وإن نشأته وأسلوب تحصيله يرجحان أنه شيعى إيرانى ، لا سنى أفغانى ^(٣) . لأن ثقافة جمال الدين الفلسفية وتوسعه فى دراسة المنطق وعلم الكلام إلى جانب دراسة الفقه وعلم الأصول هي الدراسة الشيعية التقليدية التى تنمى ملكة الجدل وقوة الاستدلال . بينما تتبع الدراسة السنية طريقاً آخر يقوم على دراسة الفقه والأصول والحديث

(١) راجع على وجه الخصوص : فتحى الرملى : مرجع سابق ، ومحمد جبريل : مرجع سابق . والواقع أن الدكتورة كيدى كتبت كتبين عن جمال الدين ، ولكن المعنى هنا هو أولهما وهو :

Keddie, N.R., An Islamic Response to Imperialism, Political and Religious Writings of Sayyid Jamal ad-din "Al-Afghani," Berkeley and Los Angeles University of California Press, 1968 .

(٢) يذكر عبد النعيم حسنين أنه زار شخصياً أسد آباد القريبة من همدان بليزنى وتقى تقطن عائلة جمال الدين فى حى من أحيائها يدعى " سيداء " ويرى بالإضافة إلى ذلك أن اسم والد جمال الدين (صندر) أى معزق الصفوف لا يوجد له مسمى فى أفغانستان أو أى بلد منى آخر ، فهو لا يوجد إلا بين الشيعة .

أنظر : ميرزا لطف الله خان ، مرجع سابق ، المقدمة : ص ١١ - ١٤ .

(٣) ويؤيد حورانى هذه التكررة عندما يذكر أنه يمكن الاستدلال على ذلك من مؤلفات جمال الدين وخطبه التى تتم عن معرفة أكيدة بترك الفلسفة الإسلامية ، لا سيما فلسفة ابن سينا التى بقيت حيايتها فى المدارس الشيعية بأكثر مما بقيت حية فى مدارس الإسلام السنى .

أنظر : Hourani, A., Arabic Thought, Op Cit P. 10

والتفسير واللغة والأدب " ، (١) وإن جمال الدين اهتم بإيران مركزاً رئيسياً للجامعة الإسلامية وكان يتحدث الفارسية باللهجة الإيرانية ، وكان أسلوب كتابته بالفارسية أسلوباً إيرانياً خالصاً (٢) .

وكل هذا يدل على انتمائه لإيران .

ولكن لماذا انتسب جمال الدين إلى أفغانستان دون غيرها من البلاد ؟ يجب كارل بركلمان عن هذا السؤال بقوله إن جمال الدين أثر لأسباب سياسية أن ينسب نفسه إلى أفغانستان ، البلاد التي قضى فيها شبابه (٣) ويزيد الدكتور عبد النعيم حسنين الإجابة تفصيلاً بقوله إن الظروف يسرت لجمال الدين الانتساب إلى الأفغان ، حيث رحل إلى أفغانستان في بداية تجواله في العالم الإسلامي ، ولقب أثناء إقامته في هذه البلاد بالإفغاني ، وقد وجد جمال الدين أن انتسابه إلى أفغانستان ييسر مهمته في دول العالم الإسلامي السنية ، حيث يدخل إليها بصفته عالماً سنياً ، أنه كان يكفي أن يعرف الناس في العالم الإسلامي السني أن جمال الدين إيراني شيعي ، فلا يلتفت إليه أحد . بل لقد حقق له انتسابه إلى الأفغان نفعاً آخر إذ جعله بعيداً عن متناول ممثلي إيران في الخارج (٤) .

وكان من السهل أن تروج أفغانيته بين الناس في البلاد التي نزحها ، لأن أفغانستان لم يكن لها تمثيل دبلوماسي خارجي في ذلك الوقت ، وكان للإنجليز نفوذ كبير فيها وكان يرعون اتباعها في الخارج (٥) .

(١) محمد محمد حسين : مرجع سابق ، ص ٧٧ .

(٢) يورد عبد النعيم حسنين عدة شواهد من حياة جمال الدين تثلل على ما يقول ، مثل دوره

المكرر في تحريك الأحداث الإيرانية (الغاء امتياز التبغ - حدث اغتيال الشاه ناصر الدين)

(٣) كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، الترجمة العربية ، ط ٤ ، دار الطلم

للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٦١٧ .

(٤) ولم يكن يحمد على إيران في صيانة حقوقه ورعاية شتونه ، لعدم ثقته في حمايتها

لرعاياها في الخارج .

راجع الملحق في : ميرزا لطف الله خان : مرجع سابق ص ص ١٥٩ - ١٦٠

(٥) محمد محمد حسين : مرجع سابق ، ص ٧٧ .

من هذا العرض يتضح لنا أن شقة الخلاف بين الفريقين متسعة ، وأن مسألة السيرة أصبحت تتخذ مدخلاً لترجيح وجهة نظر أو أخرى بخصوص فكر جمال الدين كما رأينا عند بعض الباحثين الذين يربطون بين نسب جمال الدين الأفغاني وميله للعرب ^(١) . أو الذين يستدلون بنسبه نفسه على إيرانيته ومن ثم شيعيته ^(٢) . وبهنا هنا ان نوضح أن جمال الدين نفسه كان حريصاً على تأكيد انتمائه لأفغانستان ، غير أنه لم يكن يرى نفعاً لرواية سيرته ^(٣)

وحقيقة الأمر أيا كان الأمر في القول في أصل جمال الدين ، إيرانيا كان أم أفغانياً ، إن جمال الدين بأفكاره ومواقفه كان فوق الإلتساب لمذهب بعينه ، فلم

(١) انظر الصفحات السابقة من الدراسة ، خاصة ص ص ٢٥ - ٢٦

(٢) يقول عبد النعيم حسنين ، إن حرص جمال الدين على أن يوقع باسم (جمال الدين الحسيني) يرجح أنه شيعي إيراني ، لأن لقب (الحسيني) له معنى خاص عند الشيعة الإيرانيين لشدة تعلقهم بآل البيت ولا سيما الحسين بن علي ، الذي كان جمال الدين يعد نفسه من نسله .

انظر : ميرزا لطف الله خان : مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٣) فقد أجاب على سؤال محمد المخزومي له عن ترجمة حاله : " أي نفع لمن يذكر أنني ولدت سنة ١٢٥٤ هـ ، وعمرت أكثر من نصف عصر ، واضطرت لترك بلادي " الأفغان " مضطربة تتلاعب بها الأهوال والأغراض ، وأكرهت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، أو إن شئت قل نفيت منها ، ومن الاستئنة ، ومن أكثر عواصم الأرض . كل هذه الأحوال - خاطرات - لا تسرنى وليس فيها أدنى فائدة للقوم " .

انظر : محمد المخزومي : خاطرات ، ص ٥٠٠ ، مرجع سابق ، ص ٥ .

وقلن : ميرزا لطف الله خان : مرجع سابق ، ص ٢٦ .

حيث قرر عبد النعيم حسنين ، أن السلطان عبد الحميد تأكد أن جمال الدين إيراني شيعي بعد أن وصلته عريضة من أهل أسد آباد بهمدان تؤكد هذه الحقيقة ، وأن جمال الدين لم يستطع أن ينفي عن نفسه ذلك ، ولو كان أفغانياً حقيقة لسارع بتكذيب ما جاء في العريضة .

نحتر له على ما يدل على تمذهبه بمذهب أهل السنة ، أو مذهب أهل الشيعة ،
وإنما عثرنا على دعوته إلى التقريب بين هذين المذهبين ، فقرر جمال الدين أن
الخلاف بين المذاهب هو أمر سهل وجوده جهل الأمة وسفه الملوك الطامعين في
توسيع ممالكهم ، وأن التمسك بقضايا خلافة مضي أمرها وانقضى مع أمه قد
خلت ، ليس فيها إلا محض الضرر وتفكيك عرى للوحدة الإسلامية (١) .
فجمال الدين إذن كان حريصاً على الدعوة إلى تجاوز الخلافات المذهبية ،
وحدث أن سأل أحد علماء السنة : ما عقيدته ؟ فأجاب : إني مسلم .
فسأله ثانية : من أي المذاهب أنت ؟ فأجاب إني لم أعرف في أئمة المذاهب
شخصاً أعظم مني ، حتى أسألك طريقته .
ولما كرر عليه السؤال ، أجاب : إني أوافق بعضهم في أمر وخالقهم في
أمر (٢) .

خلاصة القول إن جمال الدين كانت له دعوة أخرى ، غير دعوى التمهيد
يختلف فيها مع أهل تلك المذاهب . فليس من معنى إذن لمحاولة التكليل على
سنيته أو شيعيته ، إذ أن المدخل الصحيح لدراسة فكر جمال الدين هو مدخل
التجديد واعلاء شأن العقل في فهم الإسلام .

(١) راجع مقالة جمال الدين بنصها في : محمد باشا المخزومي : خاطرات ، مرجع سابق ،

ص ١١٢ - ١١٤ .

(٢) انظر : الملحقات، في : ميرزا لطف الله خان : مرجع سابق ، ص ١٩٧ - ١٩٨

الباب الأول

الفكر السياسي

لدى

جمال الدين

الفصل الأول

أسس دعوة جمال الدين وأهدافها
الوحدة ، والجامعة الإسلامية

- الجامعة الإسلامية

- مدخل

١ - جمال الدين والوحدة الإسلامية : آراء الباحثين

- الاتجاه الأول

- الاتجاه الثاني

- الاتجاه الثالث

- تعقيب على هذه الاتجاهات

٢ - آراء جمال الدين في الوحدة الإسلامية ، وتمهيد للفكرة المحورية لديه

٣ - الفكرة المحورية لدى جمال الدين

- تمهيد

- نص ينشر لأول مرة

- العروة الوثقى

- الرد على "ارنست رينان"

- المخاطر

- المقالة الفارسية

- خاتمة

الجامعة الإسلامية

ملخص :

نود منذ البداية أن نوضح صعوبة طرق موضوع فكرة التكتل الإسلامي كما تبنت لجمال الدين ، إذ قد يبدو أن الأمر هين ، ميسور التناول لكثرة ما تناوله الكتاب وديجوا فيه من صفحات ، ولكن هذا هو عين الخطأ الذي نرمى إلى محاولة توضيحه في بحثنا هذا هادفين - بقدر الإمكان - إلى جلاء الغموض الذي يكتنف تلك "فكرة" ، كما يكتنف العديد من أفكار جمال الدين ، بل يكتنفه هو ذاته كما رأينا من سيرته . وقد أودت بنا المعاناة الطويلة بين هذا العدد الكبير من الأقلام التي تناولت هذه الفكرة - سواء لدى جمال الدين بصفة خاصة ، أم بصفة عامة - إلى تقدير مدى وعورة المسلك بينها جميعاً ، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار تباين المنطلق الأيديولوجي لتناول كل منهم .

لهذا قامت الدراسة - وربما لأول مرة - بتحليل كافة الكتابات التي أطلعت عليها ، وتصنيفها في اتجاهات محددة بالذات ، لا نعنى تصنيفها أيديولوجياً ، حتى لا نقذف بأنفسنا في منعطفات فكرية نحن في غنى عنها الآن ، وإنما نعنى تصنيفها بصدد موقفها تجاه فكرة التكتل الإسلامي لدى جمال الدين بالذات ، من حيث تفسيرها .

إلا أنه لا بد وأن يكون ثمة انطباع عام نكون قد خرجنا به من تلك الرحلة الشاقة بين تلك الآراء المبعثرة بعيداً عن متناولنا حيناً ، والمتناثرة بين طبقات بحوث التاريخ ، والسياسة حيناً آخر .

لذلك عولت الدراسة على تحديد هذا الانطباع العام الذي تكون لديها عن فكر جمال الدين بهذا الصدد أولاً ، ثم نخرج على التعرض لآراء الباحثين في هذا الجانب كما تراعت لنا مصنفة في اتجاهات تيسر عملية الإطلاع عليها ورصدها

كل في إطاره المحدد ، ثم نرى ذلك بتحديد فكرة جمال الدين كما تراءى لنا
تفسير اتجاهه بصددنا .

والواقع أن تفسيرنا هذا ربما كان متخفياً في ثانياً للطابع العام الذي حددناه
لحديثنا عن هذا الأمر . . قلنا أننا إنما نرمى إلى محاولة كشف الغموض الذي لا
يكتنف فكر جمال الدين بشأن فكرة الاتحاد الإسلامي فحسب ، بل وكل أفكاره ،
بل وهو ذاته بدءاً من سيرته . . وهذا يؤدي بنا إلى أول سمة من السمات الفكرية
للرجل وهي سمة الغموض . . أما عن السمة الثانية وهي التناقض ، فإنك
لملاقيها أينما جئت ببصرت في حياة الرجل وفكره ، فتكاد الفكرة العامة عن
جمال الدين أنه قد لا تكون له فلسفة متكاملة مترابطة ، بل قد تكون بعض أفكاره
متناقضة مع بعضها الآخر ^(١) ، وأما بشأن موضوع بحثنا الحالي فيوصف فكره
بعدم الوضوح في العلاقة ما بين (الجامعة الإسلامية) و (الوحدة الإسلامية)
وما بين (القومية) وتكوين المجتمعات على أساس قومي حديث ، ومن ثم جاء
فكره حاوياً لكثير من التعبيرات والأحكام التي تبدو متناقضة بعضها البعض
الآخر ، غير منسجمة في سلك واحد ، ولا هي صادرة من منطلق فكري كامل
الحسم والوضوح ^(٢) ، ومن ثم جاء فكره متسماً بالازدواج والخلط ^(٣) .

والسمة الثالثة في الإطار الفكري لجمال الدين ، هي موقع الدين لديه ،
فالدين عنده لم يكن غاية ، بل كان وسيلة ، فلم يكن اهتمامه بالأسلام كعقيدة
لذاته ، وإنما انصب اهتمامه على استغلال سطوته ونفوذه الروحي لدى الأفراد .

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أفكار جمال الدين الأفغاني السياسية (دراسة)
في " المجلة التاريخية المصرية " ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ،
المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ - ١٩٦٢ ، ص ٢٣١ .

(٢) محمد عمارة : الأعمال الكاملة للأفغاني ، ج ١ : الله . . والعالم . . والإنسان ،
ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٧٢ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

فالرجل لم يكن يستخدم الأمر الدينى إلا فى نطاق الإطار الشرقى بمفهومه
السياسى ، ولخدمة هذا الإطار .

ويتضح هذا أكثر عند كلامنا عن فكره السياسى والقومى الذى هوبل دعواه
وعقيدته . وربما ثار اعتراض على هذا المفهوم لموقع الدين فى فكر جمال
الدين، يسأله هذا الركاب من نصوص الرجل ومقالاته فى التعرض للدين
وأهميته، إلا أننا نبار بالرد على هذا الاعتراض مقدماً ، مؤكدين على
ملاحظتين، ...

أولهما : إن الفكرة القومية هى لحة فكر الرجل وسداه .
وعلى الرغم من أن ثمة تياراً معارضاً لذلك ممن يسلكون الرجل فى سلك
الداعين للجامعة الإسلامية بالمفهوم الدينى ، بل وينسبون له الدعوة إلى وحدة
العالم الإسلامى فى ظل دولة إسلامية واحدة ، وبذا يتصدرون به رأس القائمة
المعارضة للتيار القومى . . يقابل هذا من ناحية أخرى تيار معارض لذلك ،
معتبراً جمال الدين من الدعاة للقوميين ، زاعماً أن فكر الرجل فى الفترة الأولى
شابه لزواج الفكرة القومية بالأمر الدينى ، ثم نضج فكره القومى بعدئذ فظهر
جلياً لديه وبذا يضعونه على رأس قائمة زوال الفكر القومى العربى . .

إلا أننا نعتقد أن كلا الرأيين فيه من الصحة فقط بقدر وجود تلك النصوص
المقطعة من سياق مقالاته وأحاديثه ، كل خدمة لدعواه .
على أن كلتا الدعوتين قد شابهما القصور عن معاناة تتبع فكر الرجل بعناية
وتروى ، ومن هنا كل التسرع فى عرض فكره ، كل من وجهة نظره .

وهذا ما حاولت للدراسة أن تتلافاه واضعة نصب أعينها أن يكون حسم هذا
الأمر فى تتبع التطور الفكرى للرجل من بدايته لنهايته فى سياق فكرى واحد ،
يقوى حيناً ويضعف حيناً ، إلا أنه بمثابة الخيط الفكرى الواحد الذى ينتظم فكر
الرجل بأجمعه حيال فكرة التكتل الإسلامى ، مبرزين بقدر ما أتاحت لنا

المصادر، والمقدرة التحليلية ، أن الرجل لم يسبح إلا في التيار القومي منذ البداية وحتى النهاية .

الملحوظة الثانية : إننا نتفق مع المعترضين على أساس تبدى الأمر الدينى لدى الرجل ، ولكن مع تحفظ مهم إلا وهو تحديد الباعث لاعتماد الرجل على هذا الأمر فى تلك الفترة من فكره . . .
ونعتقد أن الدافع لذلك هو حالة العالم الإسلامى فى تلك الآونة وما كانت تصطبغ به الأمور من صبغة دينية قوية لم يكن ثمة من يجرو على التصدى لها دونما مجازفة .

ويوضح الدكتور / محمد محمد حسين^(١) تغلب النزعة الإسلامية على العصية الجنسية والرابطة القومية فى مصر حتى أوائل القرن العشرين بأكثر من دليل . فالمصريون لا يجدون غضاضة فى الاعتراف بسلطة الخليفة التركى . وإبان قيام عرابى بثورته لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليها، فهو يعرض عليه خطوته ، مستندا منه السلطة فى كل ما يفعل^(٢) وبرنامج الحزب الوطنى الأول - كما جاء فى مقدمته التى وصفها المستر بلنت ، يعترف بسلطة الباب العالى وإن جلالة السلطان عبد الحميد هو مولاهم وخليفة الله فى الأرض وإمام المسلمين^(٣) ، وقد كانت كل خطب للعرايين تدور حول الحرص على الدفاع عن الدين الإسلامى^(٤) ، وتشير بعض الدراسات التاريخية إلى هذا أيضا متسائلة : ماذا دفع الشعوب الإسلامية فى تلك الفترة إلى التجمع تحت راية الخلافة العثمانية والتمسك بفكرة الجامعة الإسلامية ؟

(١) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الألب المعاصر ، دار النهضة العربية ،

بيروت ، ط ٣ ، ١٩٧٢ ، ص ص : ١٧ - ١٩ .

(٢) مذكرات عرابى ، ١ : ص : ٧١ ، ٢٢٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ١١٧ .

(٤) سليم نقاش : مصر للمصريين ، ج ٥ ص ص : ١٩٤ - ١٩٨ .

الجواب في كلمة واحدة . . . الدين (١) .

بل إن المسألة الشرقية ، وهي أحد أهم العوامل في تاريخ تلك الفترة ، على الرغم من إنها قد مرت بمراحل متعددة إلا أنها في تلك الفترة كانت ملونة بلون ديني يكاد يكون امتداداً للنزاع الصليبي في العصور الوسطى ، وقد ساعد على تجمع الشعوب الإسلامية حول رؤية الخلافة العثمانية ما كان يبدو بوضوح من مطامع الدول الأوروبية في هذه الشعوب جميعاً (٢) . فكانت روسيا لا تنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركي ومدتهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين (٣) . وكانت العرائض تنهال على الملكة فيكتوريا طالبة انقاذ المسيحيين من مذابح المسلمين (٤) ، وكان جلاد ستون زعيم حزب الأحرار بإنجلترا يلقي الخطب الرنانة ويؤلف الرسائل المطولة ، ناسباً إلى تركيا اضطهاد المسيحيين مشيراً إلى السلطان عبد الحميد بقوله " الشيطان " و " عدو المسيح " (٥) ، بل وبلغ الأمر من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلاً للمسألة الإسلامية ، القضاء على المسلمين ونش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس (٦) .

كانت هذه واحدة وأما الثانية فهي عمل جمال الدين بجريدة العروة الوثقى المنسوب تأليفها إليه ، وهي على خلاف ما هو شائع .

(١) أنظر : خليل عبد الحميد عبد المال : دراسات في تاريخ الدول الإسلامية الحديثة

والمعاصرة ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، ص ص ٧٢ - ٧٥ .

(٢) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

(٣) أنظر في تفصيل ذلك : عبد الحميد ظل الله على الأرض ، ص ص ٧٢ - ٧٣

- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤١ .

- الأمير شكيب أرسلان : صدقة أربعين عاماً ، ص ٢٧٤ .

(٤) عبد الحميد ظل الله ، ص ٧٤ .

(٥) عبد الحميد ظل الله ، ص ٨٤ - تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٢٩

(٦) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٨٠١ .

فلقد كانت في مصر جمعية وطنية تألفت من خيار القوم ، اسمها جمعية العروة الوثقى فكلفته - أي جمال الدين - بأن ينشئ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العظمى ، وكلف صديقه " محمد عبده " أن يقوم على تحريرها ففعل ^(١) وبذا نشأت الجريدة ، والمهم فيما نحن بصدد ، أنه من المعروف أنه كان وراء الجريدة جمعية سرية منبئة في جميع الأقطار الإسلامية ، وضع لها يمين يقسمها كل من يدخل فيها ويتعهد بأن يبذل ما في وسعه لأحياء الأخوة الإسلامية وانزالها منزلة البنوة والابوة الصحيحتين ، وألا يقدم إلا ما يرضاه الدين وألا يؤخر إلا ما يؤخره الدين ، ولا يسعى قديماً واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلاً وقدره ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامي من كل نواحيه بقدر ما يستطيع ^(٢) :

وواضح في هذا القسم موقع الدين كركيزة أساسية • فمن كل هذا كان لابد أن يعمد الرجل إلى اللجوء للدين كقوة جنب لا يستهان بها في تلك الآونة كما رأينا •

(١) محمد باشا المخزومي : خاطرات جمال الدين الأفغاني ، مرجع سابق ، ص ٢٤ •

(٢) انظر : أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ط ١ ، مكتبة النهضة

المصرية ، ١٩٤٩ ، ص : ٨٠ •

- أحمد عبد الرحيم مصطفى : أفكار جمال الدين الأفغاني السياسية ، مرجع سابق ، ص : ٢٢٤

جمال الدين والوحدة الإسلامية

يقول "جيب" Gibb مما نلاحظه أن دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية متعددة الجوانب متشعبة للتوحي. (١) وربما كان في مضمون تلك العبارة ما يوجز مدى لطباق السمات الفكرية العلمية التي حدتها سابقاً لفكر جمال الدين ، وبالتالي ما يبرر تعدد التفسيرات لفكر جمال الدين إزاء موضوع التكامل الإسلامي .

لذا نجد أنفسنا بعد تحليل وتصنيف هذا الكم الهائل من دراسات تعرضت لجمال الدين ومحاولة تأويل فكرة الاتحاد لديه ، إزاء ثلاثة اتجاهات رئيسية تفرعت عن فكرة جمال الدين هذه ،

(١) الاتجاه الأول :

اتجاه إسلامي ، ويعد من الآراء الشائعة في محافل الفكر والأدب في مختلف الأنظار العربية ، بل وبعض الأنظار الغربية ، ولا يكفى هذا الاتجاه بالذهاب إلى أن جمال الدين قد دعا إلى جامعة إسلامية ، بل وأكثر من ذلك بدعوى أنه فوق ذلك قد دعا لدولة إسلامية واحدة ، تنظم في لوائها كافة الدول الإسلامية .

كتب جرجي زيدان في أوائل هذا القرن ، يقول عن جمال الدين :
" يؤخذ من مجمل أقواله ، أن الغرض الذي كانت تصبو نحوه أعماله ، والمحمور الذي كانت تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الإسلام ، وجمع شتات المسلمين في سائر أنظار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . (٢) "

١) Gibb, H. A. R.; Modern Trends in Islam, Chicago, 1947, P. 30 .

(٢) جرجي زيدان : مشاهير الشرق ، دار الهلال ، د.ت.ج.٢ ص ٦١ .

وفي النصف الثاني من هذا القرن ، يطالعنا الدكتور عبد اللطيف حمزة
استاذ الصحافة بجامعة القاهرة - بمقال تحت عنوان " الجامعة الإسلامية
والجامعة العربية " يقول فيه عن جمال الدين : " اقترنت فكرة الجامعة الإسلامية
بظهور جمال الدين الأفغاني ، الذي يقول المؤرخون إنه جاء يبشر بدولة إسلامية
عريقة في ظل خلافة عثمانية " (١) .

وخلال نصف القرن الذي مضى بين كتاب جرجى زيدان وبين مقالة
الدكتور عبد اللطيف حمزة ، بل وبعد ذلك وحتى اليوم ، نشرت مئات ومئات من
الكتب والمقالات ، التي تكرر وتردد هذه الرواية بشتى المناسبات ، ومختلف
البلدان .

ففى رأى الدكتور أحمد أمين ، أن غرض جمال الدين فى الحياة كان
إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها ، وتبصرة شعوبها بحقوقها وربط هذه الدول
كلها برباط واحد مع الخلافة فى الأستانة (٢) .

ويرى الدكتور محمد البهى ، أن حركة جمال الدين حركة إسلامية ، وإن
سماها البعض شرقية (٣) .

ولا تخلو الكتابات الأوروبية من مثل هذه الدعوة ، فيؤيدها عديد من كبار
مفكرهم المهتمين بالمسألة الإسلامية والعربية ، من أمثال تشارلز آدمز (٤) ،
وكانتويل سميث (٥) ، ويرلون (٦) ، ولوثروب ستودارد (٧) ، وجولانزهر الذى
يقرر صراحة إن جمال الدين بقلمه ولسانه كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة
الإسلامية .

(١) جريدة الأهرام فى ١٠/٥/١٩٥٦ .

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ، مرجع سابق ، ص ٢٩١-٢٩٣ .

(٣) محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٤) C.C. Adams., : Islam and Modernism in Egypt, London 1933, P.P.14-15

(٥) W. C. Smith., : Islam in Modern History, P. 48.

(٦) Browne, E.G., The Persian Revolution. Cambridge, 191 Op. 8.

(٧) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، تعريب عجاج نويهض ، وتطبيق الأمير

شكيب أرسلان ، مصر ، ١٩٢٥ مج ١، ص ١٣٧-١٣٨ .

الاتجاه الثانى :

أما الاتجاه الثانى فيرى أن السيد جمال الدين دعا لجامعة شرقية ونيس لجامعة اسلامية .. فجمال الدين كان رائداً للحركة التي ترمى إلى تحقيق ما يمكن تسميته " الجامعة الشرقية " (١) .

فهو قد رأى فى الشرق تخلفاً ناشئاً عن ضعف الإرادة وانحلال لقومية وتفرق الكلمة والاستسلام للخمول ، بينما رأى فى الغرب - فى ذات الوقت - تقدماً مادياً عقلياً ، وروح تعصب على الشرق ، وعدواناً على بلاده ، وسعياً إلى إذلال شعوبه ، بحجة عجز الشرق عن أن يكون قوياً على شئون نفسه ، فسعى سعيًا حثيثاً إلى جمع شتات الشرق ، وتوحيد كلمتهم ، وإيقاظ همهم ، للذود عن كياناتهم ، والخلص من الخطر المحقق بهم .

وعلى ذلك كانت دعوته هى تحقيق " الجامعة الشرقية " لتقف أمام تكتل نصف الكرة الغربى ، وتحرشه بالنصف الشرقى ، والتحفز للانقضاض عليه كالأخطبوط الذى يمد له ألف نراع من الدسائل والمناورات ، فى الهند ، كما فى مصر ، كما فى أفغانستان وإيران (٢) .

وقد رأى السبيل إلى ذلك أن يسعى كل ملك أو أمير فى الشرق إلى ترقية شعبه ، وتحصينه بالحكم الدستورى ، ووقفه على أسرار التقدم الغربى ، وتقويته للتحالف على الاتحاد مع الأمم الشرقية الأخرى ، لتلتقى جهود الجميع عند الغرض المشترك ، وهو التحرر السياسى .

ومن المؤيدين من ينحون بهذا الاتجاه نحواً آخر ، فيذهبون إلى أن جمال الدين قد قام أولاً بإثبات حرية الفرد فى النضال وتحرره من قيود النظم السياسية

(١) عثمان امين : رواد الوعي الإنسانى فى الشرق الاسلامى ، المكتبة الثقافية (٤٦) ، دار

القلم بالقاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٣ .

(٢) فتحى الرملى : البركان للتأخر ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

والعقائد الدينية ، ثم دعا بعد ذلك لتحرير الأرض ^(١) ولا يتم تحرير الأرض إلا بالكفاح المسلح ^(٢) . وهنا يحصرون سعى جمال الدين لهذا الهدف في ثلاث أطوار منتهياً إلى " الجامعة الشرقية " وهي نهاية المطاف ، فلا يتم الكفاح المسلح إلا بعد تحقيق الوحدة بين العرب أو بين المسلمين أو بين دول الشرق ، ويرضى الأتغاني في النهاية بوحدة دول الشرق حتى لا تقوم الوحدة على تعصب للجنس لو الدين ^(٣) .

وعلى أساس من " مقولة النضال " كركيزة ، يتم تأويل فكرة جمال الدين ، على أنها جامعة شرقية تحولت الآن إلى وحدة العالم الثالث !!!

فبعد مائة عام تصبح الجامعة الشرقية التي دعا إليها جمال الدين في مواجهة دول الغرب وحدة النضال العالمي في مواجهة الاستعمار العالمي ، خاصة وقد ظهرت دول العالم الثالث التي لا تنسب إلى الشرق أو إلى الغرب والتي تجسد وحدة هذا النضال العالمي ^(٤) .

وعلى ذلك يقرر أصحاب هذا الاتجاه ، عدم نسبة القول بالجامعة الإسلامية لجمال الدين وإثبات مناداته وسعيه لتحقيق الجامعة الشرقية ، فالزعم بأن " السيد " كان يسعى لإقامة " الجامعة الإسلامية زعم خاطئ - في رأيهم - وإنما تولد هذا الزعم نتيجة اللبس في تتبع خطواته الواسعة العريضة ، في كفاحه من أجل " الجامعة الشرقية " ^(٥) . تلك الخطوات التي توالى في مراحل ثلاث متتابعة ، تغيا السيد جمال الدين من خلالها تحرير الأرض بالكفاح المسلح الذي لا يتم إلا بالوحدة بين العرب ، أو بين المسلمين أو بين دول الشرق . إلا أن السيد يرضى

(١) حسن حنفي صنين : قضايا معاصرة ، ج ١ : في فكرنا المعاصر ، دار الفكر العربي ،

القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص : ١٠٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص : ١٠٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص : ١٠٩ .

(٤) نفس المرجع ، ص : ١١٠ .

(٥) فتحى الرملى ، مرجع سابق ، ص ١٨ - ١٩ .

في النهاية بوحدة دول الشرق حتى يجب عدم تفرقه في أساس من التعصب
لجنس أو الدين (١) .

فلم تكن الجامعة التي ينشدها جمال الدين هي " الجامعة الإسلامية " كما
خيل إلى بعض السياسيين الغربيين ، وإنما هي في صحتها " الجامعة
الشرقية " (٢) ، وبذا كانت الدعوة إلى وحدة شرقية عامة ، تكفل لأمم الشرق
سيادتها وحريتها ، هي خلاصة المذهب السياسي لجمال الدين ، الذي كان الهم
الأكبر له هو الشرق (٣) .

(٣) الاتجاه الثالث :

وثمة آراء متعددة ، هي وإن ظهر التباين بينها للوهلة الأولى ، إلا أنه في
الواقع اختلاف في الدرجة لا في النوع ، أو هو اختلاف أبناء المصنك الواحد،
فجلهم ينضون تحت لواء الإطار القومي في التناول والتفسير ، لذلك عمدنا إلى
جمعهم في حوزة اتجاه واحد وأول ما يجلبها هنا ، رأي متفرد ، ويكاد لا
يمثله إلا شخص واحد ، لكن لا يعوزه النقل والوزن في الميدان السياسي
والقومي ، هو المفكر العربي (أبو خلدون ساطع الحصري) ، الذي يرى أن
جمال الدين صاحب اتجاه قومي واضح انتهى إليه تفكيره آخر الأمر ، أما فيما
يختص بالوحدة الإسلامية ففي رأيه أن مقالات العروة الوثقى - وهي التي يستند
إليها جل المفكرين المعارضين لذكر جمال الدين - تبين منها أن كل ما يطلبه
جمال الدين لا يتعدى حدود التعارف ، والتعاقد والاتفاق ، وتبادل السفراء (٤) .
وإننا نستطيع أن نؤكد أنه لا يوجد في العروة الوثقى أي بحث يؤيد مزاعم

(١) حسن حنفي ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

(٢) عثمان أمين ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٥ .

(٤) أبو خلدون ساطع الحصري : ماهي القومية ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ،

١٩٥٩ ، ص ٢١٥ .

القاتلين بأن جمال الدين كان يدعو إلى " توحيد البلاد الإسلامية تحت راية دولة واحدة " .

من وجهة نظر أخرى ، يبرز رأى آخر يؤل فكر السيد جمال الدين تأويلاً آخر ، فيرى فى فكرة " التضامن " هدفاً ومعنى فى ذات الوقت لفكرة الجامعة الإسلامية لديه . . . فى دراسة حديثة ومهمة له ، يأتى " حورانى " وهو واحد من أبرز المشتغلين بالمسألة العربية فى شقيها الفكرى والسياسى على الصعيد العالمى ، فيذهب إلى أن جمال الدين قد عمل على إعادة بناء الأمة . وكانت الدعوة إلى هذه الوحدة تكمن فى جميع ما كتبه السيد ^(١) ، فهو يهيب بالمسلمين ، صداً للخطر المشترك المهدد لهم ، ودفاعاً عن القيم الخاصة بهم ، أن يسموا على الفروق فى العقيدة والخصومات التقليدية ، وأن لا يسمحوا للاختلافات الطائفية أن تقيم حواجز سياسية فيما بينهم ، حتى لقد راوبته فكرة المصالحة العامة بين الطائفتين السنية والشيعة تمهيداً للوحدة بينهما ^(٢) .

وفى رايه أن جمال الدين لم ير إمكان أو ضرورة فرض سيطرة احد الحكام المسلمين على الحكام الآخرين ، وليس من دليل على أنه يفكر بإنشاء دولة إسلامية واحدة ، أو يبعث خلافة العصور الأولى الموحدة ^(٣) . وعندما كان جمال الدين يتحدث عن الوحدة الإسلامية ، لم يكن يعنى فقط التعاون بين الزعماء الدينيين والسياسيين ، بل كان يعنى أيضاً تضامن الأمة ، والشعور بالمسؤولية لدى كل من أبنائها تجاه الآخرين وتجاه المجموع ، والرغبة فى العيش معاً فى المجتمع الواحد والعمل معاً لخيره ^(٤) .

وهنا يبدو حورانى أعمق فهماً من فهم الحصرى ، بمقارنة كلامه هذا ، بتعليق الحصرى على أفكار جمال الدين عن الوحدة الإسلامية ^(٥) . إذ بينما يرى الحصرى أن فكرة الوحدة عند جمال الدين مؤداها مجرد الاتفاق وتباعد

(1) Hourani, Op. Cit., P. 115

(2) Ibid. P. 116 .

(3) Loc. Cit.

(4) Hourani, Op Cit., P. 117 .

(٥) الحصرى ، مرجع سابق ، ص ص : ٢٠٩ - ٢١٧ .

السفارات، يرى حوراني أنها تعنى تضامن الأمة ، فالتعصب بمعنى التضامن ، هو القوة التي تحافظ على وحدة المجتمع ، وهذه الوحدة إنما تتفكك بدونها (١) . كما تؤكد إحدى الدراسات التاريخية الحديثة ، أن الجامعة الإسلامية إنما قامت على أساس التضامن الإسلامي (٢) .

وباقتراب متزايد من الإطار القومي ، تنضم إحدى الدراسات إلى هذا الرأي مؤيدة فكرة التضامن كتفسير لمحتوى دعوة للوحدة الإسلامية لدى السيد جمال الدين (٣) . فتذهب إلى أن العداء للاستعمار ، والتضال الذي لا هوادة فيه ضد الاستعمار الإنجليزي بالذات ، قد كان القسمة الأولى في حياة جمال الدين ونشاطه وفكره ، وهذا العداء للاستعمار والكفاح المقدس ضده ، قد جعل جمال الدين يستخدم في هذه المعركة أسلحة أساء للبعض من الباحثين تقييمها والحكم على صلاحيتها ، وخاصة في عصرنا هذا الذي نضج فيه الفكر القومي العربي ، وتلكت فيه القسمة التكميلية وسط الحركة الفكرية في وطننا العربي الكبير . . . وفي مقدمة هذه الأسلحة التي حارب بها جمال الدين الاستعمار الغربي ، والتي أسى تفسيرها وتقييمها سلاح " الجامعة الإسلامية " .

والدراسة أميل للاعتقاد بأن جمال الدين قد ظلم ظلماً كبيراً من قبل كل الذين عابوا عليه استخدامه هذا السلاح في حربه ضد الاستعمار ، كما أنه قد ظلم كذلك من قبل بعض الذين هالوا وكبروا لاستخدامه هذا السلاح .

أي أن الصواب قد جانب للمؤيدين والرافضين على السواء ، ولكن على ضوء مفهوم محدد ، تحاكم إليه الدراسة تلك الآراء ، لتؤكد مفهومها هذا . . . فهي ترى أن الذين هالوا وكبروا لرفع الأفتائي علم الجامعة الإسلامية قد انطلقوا إلى

(١) Op. Cit. P. 118.

(٢) خليل عبد المال ، مرجع سابق ، ص ٧٣

(٣) محمد عمارة : ملف خاص عن الأفتائي . . . مفكراً ومناضلاً ، مجلة الطليعة ، العدد ٤

، أبريل ١٩٦٩ ، ص ص ١٢١ - ١٤٨ ، وخاصة ص ص ١٢٦ - ١٣١ .

موقفهم هذا من فوق أرض فكرية تعادى لحركة القومية عموماً وحركة القومية العربية على وجه الخصوص ، وهم لا حسبوا أن السيد جمال الدين يظاهروهم في محاولاتهم الفكرية الرامية إلى تقديم الإسلام من زواياه العالمية فقط ، مغفلين تلك الملامح القومية التي تبدى بها الإسلام منذ نشأته بين العرب ، والتي جعلت عالميته تمتزج بالواقع القومى لكل شعب من الشعوب التي دأبت به ، بحيث لم تعد هناك حوائل بين أن يكون له جانب عالمي ولكنه يتبدى في إطار قومي لدى كل قومية من القوميات ، بحيث تصبح هذه القوميات المتعددة التي يدين أصحابها بالإسلام أشبه ما تكون بالجزر وسط محيط من التضامن الأخوي الذي تحكمه العقيدة الإسلامية السمحة ، مما ينفي التناقض الدافئ بين القومية وبين العقيدة الملية الإسلامية .

وتؤكد الدراسة بالإضافة إلى ذلك ، على أن أصحاب هذا الموقف الرجعي والمحافظ ، لا خلطوا ما بين فكرة الجامعة الإسلامية " عند جمال الدين وبين دعوتهم للوحدة السياسية بين كل الدول التي تكين بالإسلام ، لأنهم لم يفرقوا ما بين التضامن وبين الوحدة أو الاتحاد ، وحيث لم يبصروا هم ذلك للفرق الجوهرى ، لو تعدوا عدم رؤيته ، تجعل الدراسة جمال الدين نفسه ، يرد عليهم في خاتمة إحدى مقالات العروة الوثقى المتعلقة بموضوع الوحدة الإسلامية كما يتبين من عنونها ، بما يفيد - في رأى الدراسة - أنه إنما يدعو إلى التضامن ووحدة الفضل . فهو هنا يرى أن التمايز القومى مقتضيات يجب أن تراعى وتشر جزراً " من المجتمعات القومية في داخل هذا الثوب الضفاف المتمثل في وحدة الاعتقاد ، حيث يظل " كل ذى ملك على ملكه " قائماً بواجبه حيال الآخرين " تضامناً " لا وحدة " لو " اتحاداً " كما فهم ذلك البعض فأشاعه عن جمال الدين (١) .

على أن الفكرة ذاتها تتمثل تمثيلاً آخر في رأى البعض بما يجعلها مجرد تحالف .. فيرى بعض الدارسين أن أساس فكرة الجامعة الإسلامية كما عبّر

(١) محمد حمزة ، الأعمال الكاملة ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .

عنها جمال الدين في العروة الوثقى تحت عنوان الوحدة الإسلامية ، هو ضرورة توحيد العالم الإسلامي في حلف دفاعي كبير من أجل حماية نفسه ضد الغناء^(١) . كما تؤيد دراسة تاريخية حديثة هذا الاتجاه زاعمة بأن الجامعة الإسلامية كانت وسيلة العروة الوثقى لاتخاذ مصر والشرق من الاستعمار الأوروبي . ولم تكن دعوة العروة الوثقى للجامعة الإسلامية تستهدف - على العكس مما اشتهر عن جمال الدين - توحيد المسلمين كلهم في دولة واحدة ، ولأن تجتمع كلمتهم على خليفة واحد يسيطر على العالم الإسلامي . . . وإنما كان مقصد جمال الدين من هذه الدعوة - كما تمثل في مقالات الجريدة - تقوية عناصر كل دولة من الدول الإسلامية حتى تلحق بالدول الأوروبية في العزة والمنعة ، على أن ينشأ بينهما جميعاً ما يمكن أن نسميه " حلقاً مقصداً دفاعياً " يسعى فيه كل ملك على ملكه لحفظ الآخر ما استطاع^(٢) .

ونختتم الاتجاهات برأى منفرد ، خير من يمثلها هو " خدوري " ونورده استكمالاً لوجهات النظر المختلفة أولاً ، ولأن صاحبه لا يمكننا التغاضي عن مكانته لو المرور على آرائه مرثكراً ، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه .

يرى " خدوري " أن التحدي الغربي أدى إلى نشوء تيار يدافع عن الإسلام ضد منتقديه من الأوروبيين ويهاجم المفكرين الذين يدعون إلى تبني الأفكار الأوروبية ، وقد عرف هذا الاتجاه بأسم اتجاه الوحدة الإسلامية^(٣) . ويرى " خدوري " أن دعاة هذا الاتجاه قد اختلفوا في تقديم أية أفكار إصلاحية بناءة تتعدى حدود المفهوم الغامض عن الوحدة الإسلامية وإعادة بناء النظام الإسلامي . . . ويرى كذلك أن حركة الوحدة الإسلامية ربما كانت لتظل

(1) Sharif, Op. Cit., P. 1487.

(٢) عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩١٨ إلى ١٩٢٦ ،

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(3) Khaddurie, Majid, Political Trends in the Arab World (Baltimore. the Johns Hopkins Press, 1970. p 56

سلبية ورجعية لولا أنها تلقت دفعة إيجابية على يد جمال الدين^(١) . ثم يحدد بعد ذلك أهداف جمال الدين ، بما قد يوحى بنفى وجود فكرة الوحدة الإسلامية من بين هذه الأهداف ، فيقول بأن عدم رضا جمال الدين عن التقدم البطيء الذى تحقق فى ظل الحكم المسلمين جعله لم يحفل من فكرة الاتجاه لأساليب العنف من أجل تحقيق أهدافه . . . كان هدف جمال الدين تحرير المسلمين من الكبت الداخلى ومن الانتهاكات الأجنبية فى الخارج ، لكن لم يكن هدفه لا توحيد البلاد الإسلامية تحت إمرة حاكم واحد (كما يظن بعض كتاب سيرته) ولا لاستعادة مجد قوة الإسلام بقتارة الحماية الدينية وحدها^(٢) .

تعقيب على هذه الاتجاهات :

على أننا لا يمكننا الانتقال من هذه الآراء قبل أن نذيلها بما قد يثور تجاهها من اعتراضات وخاصة الاتجاه الأول ، أو بما قد ثار فعلاً من انتقادات . . وربما لم ينل كل من الاتجاه الثانى والثالث من الاهتمام قدر ما ناله الاتجاه الأول الذى حظى بالنصيب الأكبر من المناقشات .

فعلى الرغم من كون هذا الاتجاه ممثلاً للرأى الغالب ، وشيوعه فى أوساط الكتاب والمفكرين حتى الآن ، إلا أن ثمة اعتراضات وجيهة لا يسلم منها هذا الرأى وأصحابه ، فينفى البعض عن جمال الدين البتة مفادته بالجامعة الإسلامية إطلاقاً ، استناداً إلى عديد من الاعتبارات ، نجمل أهمها فيما يلى :

- ١ - تتكرر بعض الدراسات^(٣) أن للكتاب المعروفين بتخصصهم فى الشئون الإسلامية تفردوا بالكتابة عن عيسى جمال الدين ، لمجرد زيه (العمة ولككوله) ، ولكن للملاحظة التى لا غنى عنها هنا - كما نقول الدراسة - هى أنهم - كما هى لازمة من لوازم المترجمين الذين يتعرضون لنماذج من البطولة التاريخية فيكتبون عن أنفسهم دون شعور . . .

(1) Loc. Cit.

(2) Ibid. P. 57 .

(٣) فتحى الرملى : البركان النائر ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

هؤلاء أسرفوا في رسم صورهم الشخصية ، من خلال الصور التي التقطوها في اللاوعي للسيد الأفغاني ... والملاح النفسية له على وجه الخصوص من ذلك التصور الخطير لما زعموه من أن " السيد " كان يسعى لإقامة " الجامعة الإسلامية " ، وهو تفسير أقل ما يقال فيه أنه غير صحيح ، وإنما جاء نتيجة اللبس في تتبع خطواته للواسعة العريضة ، في كفاحه من أجل الجامعة الشرقية ، وقد جاء نكرها على لسانه صراحة ، والعكس فأنه لم ينكر الجامعة الإسلامية إطلاقاً ، ولكن الأكتوبية - لكثرة ما ترددت - جازت بعد حين على الذين نشروها أنفسهم ...

٢ - حقيقة كان السيد جمال الدين يتحدث دائماً عن المسلمين ، ويكثر من مخاطبتهم بالذات ، ويتوجه إليهم بنداؤه ، ولكن كان ذلك في الوقت الذي كانت فيه كلمة مسلم تعني كلمة " المصري " وكان الزعيم العربي أيضاً يقول " المسلمين " ويعني بها المصريين ، بل وكان الأجانب يفعلون ذلك ، فما بالك وجمال الدين يخاطب كل أمالي الشرق ، وأغليبتهم العظمى من المسلمين ... ؟

فكانت كلمة مسلم تعني المضطهد .. المطلوب على أمره .. الواقع في يرائن المستعمرين ، وهذا هو ما جعل المؤرخين يجانبهم للصواب ، ويخطئهم التوفيق ، حتى ينسبوا إليه فكرة الجامعة الإسلامية ، التي لم تخطر أبداً على باله ...

٣ - كيف تخطر له فكرة الجامعة الإسلامية وهو صاحب الآراء المشهورة في ضرورة توحيد الأديان ؟ ... وكان ينادي لبثاء بتوحيد كل المذاهب الإسلامية بما فيها المذهب الشيعي ... فهل يعقل أن مثل هذا الرجل الذي اتسع عقله للجامعة الإنسانية ، والجامعة الشرقية كبدائية ... هل يعقل أن يعود فيضيق هذا العقل حتى لا يتسع لغير الدعوة للجامعة الإسلامية ، والتي من الممكن أن يكون رد الفعل الطبيعي لها جامعة مسيحية أو جامعة

بونبة لو جامعة يهودية ! ثم يتقسم العالم من جديد إلى صراع أكثر تعصباً
وغبابة وإن اتخذ أشكالاً دينية ١٢

٤ - ربما يكون جمال الدين قد ألمح مرة إلى فكرة الجامعة العربية ، ولكن
للجامعة الإسلامية هذه لم تمت إليه بصلة مطلقاً ، بل كانت هناك عناصر
خبيثة ، وبالذات عناصر اجنبية مشبوهة ، وغير مخلصنة في غيرتها على
الاسلام ، وهي التي لورادت لن تستخدم اسمه المدوى في العالم الاسلامى ،
فتنفخ ذلك المشروع الاستعمارى ، لذكيف تقوم جامعة ، شعوبها محتلة ،
الا لن يكون ذلك بارادة المحتل وتشجيعه لغرض في نفسه ١٢!

٥ - ما أكثر ما نقرأ في كتب المستشرقين ، انجليز كانوا او فرنسيين او
امريكان، كيف كان جمال الدين اعظم من دعا الى الجامعة الاسلامية ، في
الوقت الذي قال فيه الفيلسوف رينان - وهو رجل غير سياسى - ان "
السيد " كان من اعظم الملحدين ! لنعرف ان ثواب الاستعمار كانوا يحاولون
لصطياد الرجل لو سحله ! لو لعلمهم كانوا يحاولون تزوير بصماته او
وضعها بالاكراه على مشروع " للجامعة الاسلامية " ! ويجمعون لذلك
شهودا - ربما بحسن نية - من أمثال الشيخ رشيد رضا ، لو الامير شكيب
ارسلان !

٦ - من منطلق وصف رينان السالف الذكر ، تسترسل الدراسة في حضن نسبة
فكرة الجامعة الاسلامية لجمال الدين ، بل وتحاول اكثر من ذلك التشكيك
في عقيدته ذاتها قتلة (١) . . . ومع ذلك فما حاجتنا الى كل هذا التكليل على
براعته من نسبة الجامعة الاسلامية اليه ، والذين يصفونه بصفة واحدة
يصرون عليها هي انه " فيلسوف الاسلام " لا يعرفون كيف يعلنون الصداقة

(١) فتحى الرملى ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

الحميمة التي ربطت بينه وبين أديب اسحق ، وسليم النقاش والبستاني -
المسيحيين - ويعقوب بن مزنوع الصحفي الاسرائيلي ! ولا يعرفون كيف
يطلون الصداقة التي ربطت بينه وبين رجل يعتق الدين البهائي هو رضا
لقا خان ؟

٧ - ونفس هؤلاء الكتاب لا يعرفون كيف يطلون لماذا كان اسبق الساعين
للاتضمام الى جمعية " مصر للفتاة " سنة ١٨٧٤ ، وكانت تضم اساسا
طائفة من اليهود ، كما يقول الشيخ محمد عبده نفسه ٢٢: ولا يعرفون كيف
يطلون الصداقة التي جمعت بينه وبين الملاحد " ميرزا محمد باقر " حتى قبل
أن يعود إلى الإسلام؟ ولا يعرفون كيف يطلون لماذا كان الصديق الذي وثق
فيه في لحظة الموت ، والذي مات على صدره هو اليوناني المتمصر "
جورج كوتش " أحد أمناء أسراره ، بل ولحد مترجمي حياته !

وهكذا تجاول تلك الدراسة بشدة نفى نسيبة للجامعة الإسلامية لفكر جمال
الدين مستخدمه شتى الوسائل ، حتى التشكيك فيه هو ذاته وفي عقيدته إذن
فقد كان مرادها ينصب على فكرة الجامعة الإسلامية ذاتها ، ومحاولة هدمها من
اساسها . . . على أن ثمة آراء أخرى تتر بفكرة الجامعة الإسلامية ولا تتكرها،
ولكن مع تحفظات تختص بتأويل تلك الفكرة ، وجل اعتراضها ينصب على نفى
غائية للجامعة الإسلامية نحو توحيد الدول الإسلامية في حوزة " دولة واحدة "
تحت راية الخلافة العظمى فليس من دليل على أن جمال الدين يفكر
بانشاء دولة اسلامية واحدة ، لو يبعث خلافة العصور الأولى الموحدة (١). فيرى
البعض أن مقالات العروة الوثقى تستهض مهم الشرقيين عموماً ، والمسلمين
خصوصاً ، للتخلص من الحكم الأجنبي ونكتها لا تدعو إلى " اتحاد " بين
الدول الإسلامية . كما نستطيع أن نؤكد - في رأيها - إنه لا يوجد في العروة
الوثقى أي بحث يؤيد مزاعم القائلين بأن جمال الدين كان يدعو إلى " توحيد البلاد

(1) Khadduzie, Op Cit P 116

الإسلامية تحت راية دولة واحدة^(١) . كما ذهب بعض الدراسات المعاصرة
نفس المذهب ، فلقد كانت وسيلة " العروة الوثقى " الكبرى لانقاذ مصر والشرق
من الإستعمار الأوروبي هي " الجامعة الإسلامية " . والجامعة الإسلامية التي
دعت إليها " العروة الوثقى " لم تكن تستهدف - بعكس ما اشتهر عن جمال الدين
- أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، وأن تجمع كلمتهم على خليفة واحد
يسيطر على العالم الإسلامي وإنما كان مقصد جمال الدين من هذه الدعوة
- كما تمثل في مقالات الجريدة - تقوية عناصر كل دولة من الدول الإسلامية
حتى تلحق بالدول الأوروبية في العزة والمنعة^(٢) .

وكلا الرأيين السابقين يستند إلى سند قديم موثوق به ، فالرأي الثاني يستشهد
على مذهبه بمقالة " الوحدة الإسلامية " الواردة في العروة الوثقى ، ثم يدعم رأيه
أكثر بلن الشيخ " رشيد رضا " يؤكد على ذلك^(٣) . . . والرأي الأول بعد أن يؤكد
على أن العروة الوثقى لا تدعو إلى اتحاد بين الدول الإسلامية ، وأنه لا يوجد
فيها أي بحث يؤيد دعوة جمال الدين إلى " توحيد البلاد الإسلامية تحت راية
دولة واحدة " . يتساءل قللاً :

ولكن هنا يخطر على البال هذا السؤال : ألا يمكن أن يكون جمال الدين قد
دعا إلى ذلك بعد نشر العروة الوثقى ؟

ثم ، أفلا يمكن أن يكون قد فعل ذلك بصورة شفوية ، في اجتماعات سرية ؟
إن هذا الاحتمال ، يحملنا على إسئغاء الأمر من كتابات المتصلين به اتصالاً
مباشراً ، ثم يسند قوله بالاستشهاد بالشيخ رشيد رضا^(٤)
فماذا يقول الشيخ رشيد رضا في التأكيد على ذلك ، أو عدمه :

(١) ساطع الحصري ، مرجع سابق ، ص ٢١٥

(٢) عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية في مصر ، مرجع سابق ، ص ص

٢٠ - ٢١ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢١ .

(٤) ساطع الحصري ، ما هي القومية ، مرجع سابق ص ص ٢١٥-٢١٦ .

إننا إذا راجعنا " تاريخ الإمام محمد عبده " - الذي ألفه الشيخ رشيد رضا -
صاحب المنار - وقفنا فيه على العبارات التالية :

" لما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الإسلامية أن
يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم أره في شيء من العروة الوثقى ، ولا في
غيرها مما كان يرويه عنه الاستاذ الإمام ، وهو أعلم للناس بمقاصده وأعماله ،
بل قال في المقالة التي وضع لها عنوان " الوحدة الإسلامية " التي نشرت في
العدد التاسع من العروة الوثقى " لا تتم بقولي هذا أن يكون ملك الأمر في
الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً . ولكن أرجو أن يكون سلطان
جميعهم للقرآن ووجهة وحدتهم للدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهد
لحفظ الآخر ما استطاع - فإن حياته بحياته - وبقائه ببقائه ، إلا أن هذا بعد كونه
أساساً لدينهم تقضى به الضرورة ، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات " (١) .

ومن المعلوم أن الشيخ رشيد رضا كان من أخص تلاميذ الإمام محمد عبده
وأعز أصدقائه ، وأهم مؤرخي حياته وجامعي أركانه .

فيستد الحصري إلى ذلك ، مؤكداً أن النص للصريح الوارد في كتبه الأنف
الذكر في هذا المضمحل ، لا يترك لنسب مجال للشك في أن ربط فكرة " وحدة
البلاد الإسلامية " بتعاليم السيد جمال الدين ، من الأخطاء الشائعة التي لا تتفق
مع حقائق الأمور بوجه من الوجوه . ثم يستطرد مبرراً شيوع هذا الرأي قائلًا :
ولا شك في أن هذه الرواية تولدت من رغبة البعض في استغلال شهرة
جمال الدين في تأكيد الفكرة التي تروق لهم ، ومن اعتياد معظم كتّاب التاريخ
ومحرري الصحف - في بلادنا - على الاعتماد على كل " ما كتب وشاع " دون
الاهتمام بالرجوع إلى " الأصول " للتثبت من صحة الرواية والنقل . .

ولما الاتجاه الثاني بمن يمتلونه ، والاتجاه الثالث بما يتضمنه من آراء شتى ،
فلا يمكننا الاتفاق معها في كل وجهات للنظر ، لا اعتبارات شتى ستوضح فيما بعد
لدى كلا منا على الفكرة المحورية في فكر جمال الدين كما نراها نحن .

(١) الشيخ رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الإمام ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

تعددت الآراء والاتجاهات بصدد تفسير فكر الجامعة الإسلامية لدى جمال الدين ، كما رأينا سابقاً ، ألا أنها في رأينا تتصف بالقصور ، وتعوزها الدقة والدلالة الكافية المقنعة . . فطى للرجم من ان لكل اتجاه ، بل رأى ، حججه وقرائنه من نصوص جمال الدين نفسه ، إلا أن العيب الكبير والنقص يشوبها من حيث أنها كلها تنسم بالنظرة الجزئية التي تنفكر إلى الشمول والإحاطة للآزمين لعلمية الرأي ودقته ، تلك النظرة التي تنعكس سواء في اقتطاع النص من سياق كلى ، مما قد يودى إلى تأويل المعنى وإعتساقه ، لو فى الاقتصار على منبع واحد كمصدر رئيسى لأفكار جمال الدين ، وهنا يفتقد الفكر المسار الزمنى المتصل ، بما يوضح وجود بداية ونهاية يربطهما خيط فكري واحد ، يوفر للأفكار المتعددة الوحدة العضوية . .

وقبل الانتقال إلى تفصيل للفكرة المحورية لدى جمال الدين فى رأينا ، نرى لزماً علينا أن نوضح بعض الشئ آراء جمال الدين فى الوحدة الإسلامية كما وردت فى نصوصه ، مع تبيان آراء الدارسين المختلفة وتأويلاتهم وتعليقاتهم عليها ، وذلك أداء منا لواجب الأمانة العلمية ، وإيضاحاً لأصحاب تلك الآراء - بغض النظر عن مدى موافقتنا لهم - ، وكذلك حتى نربأ بأنفسنا عن وصمة التعسف ، أو الإلتواء فى زمرة الغالبية ، التي تستغل شهرة جمال الدين فى تأييد الفكرة التي تروق لهم . .

على أنه يجدر بنا توضيح بعض الملاحظات بصدد هذا الأمر . .

١ - إتنا على العكس من معظم الدارسين ، الذين سمحوا لأنفسهم بالاستشهاد بمقالات جمال الدين ، لو بعبارات منها ، كيفما اتفق فى كل مناسبة ، دونما اعتبار لتاريخ هذا النص من حيث الأسبقية الزمنية فى الورد ، فنرى نقداً لفكرة حديثه قائم على الاستشهاد بفكرة وردت قبلها وسبقها فى الورد ، نقول على العكس من هؤلاء ومنهجهم هذا ، سنورد النصوص بخسب تسلسلها الزمنى فى الكتابة أو القول . .

٢ - إننا سنلحق كل نص بأهم التعليقات التي عقب بها عليه ، لا نقول كل التعليقات ، وربما أهمها والممثلة لكافة الاتجاهات ، حتى تتبين تأويلات كل نص على حده . . .

٣ - إن معظم الدراسات قد جعلت جل اعتمادها على جريدة العروة الوثقى ومقالاتها التي تعبر عن فكرة الوحدة الإسلامية ، باعتبارها المصدر الأساسي لأفكار جمال الدين ، وقليلون منهم ، هؤلاء الذين استندوا لمصادر أخرى ، كرده على رينان أو كواله في المخطوطات . . .

ونفصل الآن ما لوجزناه :

باستعراض الاتجاهات والآراء نرى - كما قلنا آنفاً - أن جلها يعتمد العروة الوثقى سنداً له ، وبالتحديد نرى أن كل ما اعتمد عليه جميعهم ، ينحصر في مقالات خمسة ، بالذات دون غيرها ، بوصفها المتضمنة لأفكار الجامعة الإسلامية ، إذا تناولها كل منهم كالآتي :

(١) فاتحة الجريدة :

ونتناول بالتوضيح نقطتين : لماذا صدرت الجريدة ، والجريدة ومنهجها^(١) .
وثمة عبارة واحدة بالذات في تلك المقالة تتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الجامعة الإسلامية ، تأتي في غضون حديث جمال الدين عن سوء حالة مصر ولأثر ذلك على المسلمين ، وهي على الوجه التالي :

« . . . ، إن الخطر الذي ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم وإن تزال ألامه تستفزهم ملأ الجرح نخلاً . وما هذا بغريب على المسلمين فإن رابطتهم المالية أقوى من روابط الجنسية واللغة ملأ القرآن يتلى بينهم وفي آياته ما لا يذهب على أقدام قارئيه فإن يستطيع لأمر أن يتكلم . . . »^(٢) .

(١) العروة الوثقى ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، من ص ١ - ٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٥ .

وجل الآراء تتفق على أن جمال الدين هنا إنما يشير إلى وحدة المسلمين ،
ولن الرابطة للقوية التي تربط بينهم رابطتهم الملية، أي الدين ، وهي رابطة
تتفوق في قوتها على الجنسية واللغة .

والجدير بالملاحظة أنه حتى تلك الآراء التي تعارض ورود فكرة الجامعة
الإسلامية لدى جمال الدين على أساس من المعتقد الديني ، تذهب نفس المذهب
بصدد تلك العبارة ، وعلى رأس تلك الآراء الحصري^(١) ، ومحمد عمارة^(٢) .

٢) الجنسية والديانة الإسلامية: (٣)

وهي للمقالة الأولى من العروة الوثقى ، يبدأها بقوله : " إن استقراء حال
الأفراد في كل أمة ، واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر وبقية وجود تعصب
للجنس ونعرة عليه ، عند الأغلب منهم " (٤) .

ثم استورد في مقارنته بين الجنس والدين ، ويمكننا إيجاز الخطوط العامة
للمقالة فيما يلي :

" ظن كثير من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية " .
إلا إن البحث في الأمر يدل على أنه من الملكات العارضة على الأنفس " النتيجة
عن ضرورات الحياة الاجتماعية " (٥) " صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض
آخر ، فاضطروا بعد منزلة الشرور أخقياً طوالاً إلى الاعتصاب بلحمة النسب
على درجات متفاوتة ، حتى وصلوا إلى الإجناس ، فتوزعوا أمما كالهندي
والإنكليزي والروسي والتركماني ونحو ذلك ، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراد
المتلاحمة قلداً على حيازة مناعه وحفظ حقوقه من تعدى القبيلة الأخر (٦)

(١) - ساطع الحصري ، مرجع سابق ، ص ٢٢١

(٢) - محمد عمارة ، الأعمال الكاملة ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) جريدة العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ٩ - ١٢ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٩ .

(٥) نفس المكان السابق . .

(٦) نفس المكان

ولكن الديانة الإسلامية تختل عن هذا النوع من العصبية ، لأنها تقضى بالاعتماد على " حاكم تتصاغر لديه القوى ، وتتضاءل لعظمته القدرة ، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع " (١) " هذا هو السر في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ، ورفضهم أى نوع من أنواع العصبية ، ماعدا عصبيتهم الإسلامية . فإن المتكئين بالدين الإسلامى متى رسخ فيه اعتقاده ، يلهو عن جنسه وشعبه ، ويتلفت عن الرابطة الخاصة إلى الرابطة العامة ، وهى علاقة للمعتد " (٢) .

" بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة للحقة مقوته على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :
" ليس منا من مات على عصبية " . والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضاربة على هذا " (٣) .

" ... هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتكفون برابطة الشعوب وعصبية الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين " (٤) .

تلك هى الخطوط العامة لأفكار المقالة ، وقد رأى للبعض منها إنها واحدة من مجموعة المقالات التى كتبتها العروة الوثقى سنة ١٨٨٤ فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين (٥) إلا أن بعض الدارسين لاحظ من هذه المقالة أن جمال الدين لا ينكر أهمية الرابطة الجنسية فى حياة الأمم بوجه عام ، إلا أنه ينفى الحاجة إليها بالنسبة للمسلمين ، حتى أنه يعتبر اللجوء إليها مخالفاً للشريعة الإسلامية ، مخالفة صريحة (٦) .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠

(٢) نفس المكان .

(٣) نفس المكان

(٤) المرجع السابق ، ص ١١ .

(٥) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٦) ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ .

كما تذهب بعض الدراسات إلى أن عبارات المقالة تتحدث عن غناء الإسلام عن القومية (الجنسية) " والتي استغلها البعض بحسن نية أو بسوءها ، ليجعلوا من فكر جمال الدين حكماً يقضى " بعباء الإسلام للقومية " ، ناسين أو متناسين الفرق الجوهرى بين " الغناء " و " العداء " !؟

ولأن للمسلمين نبيلاً يفضل الجنسية ، أى القومية ، ومن ثم فإن فيه الغناء عنها ، إلا وهو اتحادهم فى الملة والاعتقاد فى ظل حكم " مثالى " هو أشبه ما يكون بحكم " المدن الفاضلة " فجمال الدين هنا ، كما ترى الدراسة إنما يصور حالة ربما كانت أليق من حيث مثالياتها وسموها بعصر لازلنا نحن فى انتظاره بل نتمناه لأبنائنا وأحفادنا (١) .

(٣) انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك :

يصدر جمال الدين هذه المقالة بالآية الكريمة للتالية :

" واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا "

ومن أهم أقواله فيها (٢) :

" المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة ، مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان • وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد فيهم ، أن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام (٣) •

" المسلمون يحص كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة ، وما يفرض عليه الإيمان ، وهو هاتف الحق الذى بقى من الهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة

(١) محمد عمارة : الأعمال الكاملة ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، ص ص ٤٢-٤٤ •

(٢) العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠ - ٢٥ •

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠ •

عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألون لما يَألم له بعضهم (١) .

" لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينية ، مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعارف بينهم ومجر بعضهم بعضاً مجراً غير جميل ، فالعلماء ، وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها ، لا تواصل بينهم ولا ترامل . . . (٢)

" . . . بل العلماء من أهل قطر واحد ، لا ارتباط بينهم ، ولا صلة تجمعهم ، إلا ما يكون من أفراد العامة لدواع خاصة ، من صداقة أو قرابة بين أحدهم والآخر . أما هيبتهم الكلية ، فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب بينهم . وكل ينظر إلى نفسه ، ولا يتجاوزها ، كنه كونه برأسه (٣) .

" كما كانت هذه الخطوة وذاك الهجران بين العلماء ، كذلك بين الأفراد والسلطين من المسلمين . ليس من العجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراکش ، ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ ليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق (٤) .

" هذا التكابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى أصبح أن يقال : لا علاقة بين قوم منهم وقوم ، ولا بلد وبلد ، إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم . . . وهذا التنوع من الإحساس ، هو الداعي إلى الأسف ولتقباض الصدور . إذا شعر مسلم بضيق حق مسلم على يد أجنبي عن ملته ، ولكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعارضته (٥) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٣) نفس المكان .

(٤) نفس المكان السابق .

(٥) نفس المكان .

ويستدل البعض مما سبق - ومن كل ما ورد في هذه المقالة - على أن جل ما يطلبه جمال الدين ويدعو إليه ، لا يتعدى حدود التعارف ، والتعاقد والاتفاق وتبادل السفراء ، وهذا هو مفهوم الوحدة لديه ^(١) .

٤) التعصب :

يتحدث الأفتاني في هذه المقالة عن التعصب للجنس ، والتعصب للدين ^(٢) وهي من المقالات المسيهية ، ومما جاء في أفكارها :

" التعصب قيام بالعصية ، والعصية من المصائر النسبية ، نسبة إلى العصبية . وهي قوم للرجل الذين يعززون قوته وينفعون عنه الضيم والعداء . فالتعصب وصف للنفس الإنسانية ، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها ، والذود عن حقها ، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها ^(٣) .

" هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الأمم . وهو عقد الربط في كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، وينسئها بتقدير الله خلقاً واحداً ، كبن تآلف من أجزاء وعناصر ، تكبره روح واحدة ، فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشنونه وسعائته وشقائه عن سائر الأشخاص " .

" التعصب روح كلي مهبطه هيئة الأمة وصورتها ، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره ، فإذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من لجنبي عنه انفعل للروح الكلي ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسعر للنصرة الجنسية . هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنيا ولارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، لو يؤول بها إلى سوء عاقبة . وإن

(١) ساطع الحصري ، مرجع سابق ، ص ٢١٥ .

(٢) العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩ - ٤٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

استقامة الطباع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حسب درجة التعصب
ليها والالتحام بين أعضائها ، يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي ، لا
يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطاً في
رتبة الوجود ، وإنما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن وبقائه " (١) .

وهكذا يمضي جمال الدين في الأسهاب في وصف أهمية التعصب ، والنصرة
الجنسية ، ثم يتكلم عن الاعتدال والإقراط والتفريط في التعصب ، مشيراً إلى
منجبة الإقراط فيه الذي هو " مذمة تبعث على الجور والاعتداء ، فيقول : " هذا
الحد من الإقراط في التعصب هو الممقوت على لسان الشارع صلى الله عليه
وسلم في قوله : " ليس منا من دعا إلى عصبية " (٢) .

ثم ينتقل جمال الدين إلى الحديث عن التعصب للدين قائلًا :

" التعصب كما يطلق ويراد منه النصرة على الجنس ، - ومرجعها رابطة
النسب والاجتماع في منبت واحد - ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على
المتحامين بصلة الدين ، لمانصرة بعضهم بعضاً . والمتطعون من مقلدة الإفرنج
يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالتعص . ولا تخال مذهبهم هذا مذهب
العقل . فإن لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تتبعث عنها قوة لدفع
الغفلات ، وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب ،
وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر ،
وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإنساني ، وليس
يوجد عند العقل أننى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات
معيشته ، وبين ما صدر من تلك عن المتلاحمين بصلة المعتبد ورابطة
المشرب " (٣) .

وبعد هذه العبارات يعود جمال الدين إلى بيان أهمية الدين والرابطة الدينية

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٢ .

بين المسلمين بتفصيل وإسهاب ، ثم يختتم مقالته بخطاب • يقول فيه : " فإيا أيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، وبماؤكم فلا تزيقوها ، وأرواحكم فلا ترققوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت ، هذه هي روابطكم الدينية لا تفرنكم الوسوس ولا يستهوينكم التزلمات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة القهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي لحكم رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة العنصرية حتى أن الرجل منهم لم يصيب أخاه من عدايت لادهر وإن تنامت دوله ، وتناقصت قطاره (١) •

• يرى البعض أن جمال الدين في هذه المقالة إنما يرد على من يمجدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصية الدينية ، فيرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق للمستعمر الذي يحاول توهين العصية الدينية ليقطع الرابطة التي تجمع بين شعوبها ، ويدل على كذب المستعمرين وتكليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين في كل ما تجرى عليه سياستهم (٢) •

بينما يرى البعض الآخر ، أن جمال الدين يرى في رده عليهم ، وجوب إضافة التعصب الاعتقادي المعتدل إلى التعصب الجنسي (القومي) ومزاملته له في نفس الطريق واذات الغايات والأهداف (٣) •

إلا أن بعض الدراسات ترى أن جمال الدين بعد أن نفى الحاجة إلى الرابطة الجنسية بالنسبة للمسلمين ، واعتبار اللجوء إليها مخالفاً للشرعية الإسلامية مخالفة صريحة ، قد خفف إلى حد ما لطمية هذه الأحكام في تلك المقالة ، وتوسع في إبراز أهمية " الرابطة الجنسية " في حياة الأمم (٤) بل إن تلك المقالة قد أوصفتها

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨ •

(٢) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية مرجع سابق ص ٢٩ •

(٣) محمد عمارة بالأعمال الكاملة ط ١، ١٩٨٦، مرجع سابق، ص ٤٦ •

(٤) ساطع الحصري ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ •

إلى محاذاة " للرابطة الدينية " (١) .

(٥) الوحدة الإسلامية :

نشرت هذه المقالة بالعدد التاسع من العروة الوثقى (٢) ، يصدر جمال الدين

المقالة بالآية الكريمة التالية :

" وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " .

ثم يتكر كيف " لظلت راية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى توفكائي على حدود الصين ، في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء " ، ويصف أماكن المسلمين من مكانة علمية في الحكم والعلم والعمران . وبعد ذلك يشرح كيف " وقفوا في سيرهم ، بل تأخروا عن غيرهم ، في المعارف والصناعات ، بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم . وأخذت ممالكهم تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها ، مع أن دينهم يرسم عليهم أن يدينوا لسلطة من يخالفهم بل للركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته " . ثم يتساءل " هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون ؟ وهل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشئون ، ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن أن الله اشترى منهم ، لأعلاء كلمتهم - أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ " (٣) .

فيجيب على هذه الأسئلة بقوله :

" لا ، لا . إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين ، حاکمة إرادتهم ، وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية ، عامتهم وخاصتهم " . (٤) ثم يبحث عن أسباب الضعف الذي اعترى المسلمين ، فيرى أن أعظم هذه الأسباب هو " تخالف طلاب الملك " فيقول :

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٢) العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ٦٧ - ٧٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

" نعم يوجد للتقصير في إتمام العلوم ، والضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم ، لأننا بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلاطين في جنس واحد ، مع تبين الأغراض وتعارض الغايات " (١) .

وبعد الإفاضة في هذا ، ينتقل بحديثه إلى الأحوال الحاضرة ، فيقول : " الاتفاق والتضامن على تعزيز الولاية الإسلامية من أحد أركان الديانة المحمدية ، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين ، لا يحتاجون فيه إلى استاذ يعلم ، ولا كيف يثبت ، ولا رسائل تنشر " (٢) ثم يستمر قائلاً : " إن رعاية المسلمين ، فضلاً عن علام ، تتضاعف زفرائهم وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء وتضامن الأهواء ، ولولا وجود القوة من الأمراء ، نوى المطامع في السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم وشمالهم بجنوبيهم ، وأبى جميعهم نداء واحداً ، أن المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم إلا إلى تنبيه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع ، واتفاق أرائهم على القيام به عند لزومه ، وارتباط قلوبهم بالتشبي عن الإحسان بما يطرا على الأمة من الاخطار " (٣) ، وبعد توسعه في هذا الموضوع ، يخاطب المسلمين قائلاً : " أياً بقية الرجال ، وبخلف الأبطال ، ويئسل الأقبال ، هل ولي بكم للزمان ؟ هل مضى وقت التذكر ؟ هل أن لولن اليأس ؟

" لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل للزمان منكم - أن من أدنة إلى ييشاور دولاً إسلامية ، متصلة الأراضي ، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ، لا ينقص عندهم عن الخمسين مليوناً ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة . ليس لهم ، يتفقوا على اللب والإقدام كما أفتق عليهم سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا ، وليس تلك بدع منهم ، فالإتفاق من أصول دينهم . هل أصاب القدر مشاعرهم ،

(١) المرجع السابق ، ٦٩ .

(٢) نفسه ، ص ٧٠ .

(٣) نفسه ، ص ص ٧٠ - ٧١ .

فلا يحسون بحاجات بعضهم بعضاً ؟ أليس لكل واحد أن يطر إلى أخيه بما حكم الله في قوله (إنما المؤمنون أخوة) ، فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب " (١) .

ويسترسل بعد ذلك مباشرة ، لتوضيح مقصده قائلاً :

" لا التمس بقولي هذا أن يكون ملك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً . ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم للقرآن ، ووجهة وحثهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهد لحفظ الآخر ما استطاع . فإن حياته بحياته ، وبقائه في بقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضى به الضرورة ، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات " (٢) .

يرى البعض أن هذه المقالة تساعد للمسلمين على الشعور برباطتهم الإسلامية وتغذي إحساسهم بالخطر الذي يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربي المتربص بها ، لذا فهي كتبت في الحث على اتحاد كلمة المسلمين (٣) .

هذا بينما يذهب البعض الآخر إلى أن هدف المقالة كان تقوية عناصر كل دولة من الدول الإسلامية حتى تلحق بالدول الأوروبية في العزة والمنعة ، على أن ينشأ بينها جميعاً ما يمكن أن نسميه " حلقاً مقدساً دفاعياً " (٤) .

ومن وجهة نظر أخرى فالمقالة تتحدث عن غناء الإسلام عن الجنسية - أي القومية - لا عن عدائه لها (٥) ، كما أن جمال الدين في تلك المقالة يتعرض لقضية الوحدة وبناء الدولة ، فيبدو سياسياً وحكيمياً وواقعياً ، يعطي لعوامل الوحدة الاعتقالية حقها ، ولا ينكر أثر التمايز القومي بين الذين يعتقدون الإسلام ، فهو هنا يرى للعوامل الخاصة بوحدة العقيدة ثماراً يجب أن ترعى ويستفاد منها ،

(١) المرجع السابق ، ص ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ، مرجع سابق ، ج ١ ص ص ١٩ - ٢١ .

(٤) عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية في مصر ، مرجع سابق ، ص ص

٣٠ - ٣١ .

(٥) محمد عمارة : الأعمال الكاملة ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢ - ٤٣ .

وهي خاصة بالجانب الروحي المنبعث من سلطان القرآن ووحدة الدين ، ولن للتمايز القومي مقتضيات يجب أن تراعى وتشر " جرراً " من المجتمعات القومية في داخل هذا الثوب الفضفاض المتمثل في وحدة الاعتقاد حيث يظل " كل ذي ملك على ملكه " قائماً بواجبه حيال الآخرين ، " تضامناً لا " وحدة " لو " اتحاداً " كما فهم ذلك للبعض فاشاعه عن جمال الدين (١) .

على أن ثمة رأياً آخر يستشف من المقالة ، أن جمال الدين لا ينكر أهمية للرابطة الجنسية في حياة الأمم ، ولا يلغيها ، إلا أنه ينفي الحاجة إليها بالنسبة للمسلمين (٢) .

كما يلاحظ أن جمال الدين - كما يتبين من المقالة - كان بعيداً جداً عن التفكير في جمع المسلمين " في حوزة دولة واحدة " (٣) .

الفكرة المحورية لدى جمال الدين

الفكرة المحورية لدى جمال الدين هي الفكرة القومية .. وليس التيار القومي بغريب على فكر جمال الدين ، ولا هو بمستغرب على تيار سياسي قوي، كذلك التيار اللجى الذى انغمس فيه جمال الدين بكليته .. كانت الدعوة إلى الالتحاق بين الدول الإسلامية بمثابة اعتراف من جمال الدين بأن وضع التفرق لا يمكنها من خلع سيطرة ونفوذ الاستعمار الغربى . وبذا اكتسبت دعوته طابعاً سياسياً فى المقام الأول ، ولعله من المهم أن نوضح طبيعة دعوة جمال الدين التى اشتهرت فى تاريخنا الحديث بأنها دعوة لانشاء جامعة إسلامية ..

(١) المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) ساطع الحصرى ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

١ - قبل كانت دعوته تستهدف الوحدة بمعناها المعروف في الفقه السياسي ، لم مجرد الاتفاق والترابط في إطار الجامعة (١) .

٢ - وإذا انتهينا إلى أن دعوته كانت تدور في إطار الجامعة ، فما هو التوجه الأساسي لتلك الدعوة هل هو الترابط بين الشعوب الشرقية أم الشعوب الإسلامية؟

٣ - كيف استخدم جمال الدين دعوته لخدمة أغراضه السياسية : تأييد تركيا ، تأييد إيران .. الخ ؟

٤ - هل كانت دعوته تبشيراً بالقومية ، وما تفسير ذلك ؟
ولعلنا فيما سبق لن أوردناه من أفكار تكون قد أوضحنا بعض الشيء ما يختص بالاستفسارات الثلاثة الأولى ، ويتبقى لدينا الاستفسار الرابع ، والخاص

(١) من المعروف في الفقه السياسي أن ثمة نوعين من أنواع الدول : النوع الأول هو الدولة البسيطة ذات المركزية الواحدة ، والنوع الثاني هو الدولة المركبة التي تنشأ عن اتحاد دولتين أو أكثر وثمة أشكال متعددة للدولة المركبة وهي :

١ - الاتحاد الشخصي ويتكون من اجتماع دولتين تحت رئاسة واحدة ، مع احتفاظ كل منهما باستقلالها الداخلي والخارجي .

٢ - الاتحاد الفعلي : ويتكون من انضمام دولتين في شكل اتحاد دائم تحت رئيس واحد ، وتكون الهيئة الحاكمة في الاتحاد واحدة في الشؤون الخارجية ، ومزدوجة في الشؤون الداخلية .

٣ - الاتحاد التعاهدي أو التوفيري : ويتكون من مجموعة من الدول تتفق فيما بينها في مجاهدة دولية على إقامة هيئة مشتركة تصرف على سياسة حكومات الدول الأعضاء التي تحتفظ كل منها بنظامها السياسي ويحتررها .

٤ - الاتحاد الفيدرالي : وهو أقوى أشكال الدولة المركبة ، حيث يتكون من مجموعة من الدول تحت رئاسة هيئة مركزية واحدة ، وتنفذ بمقتضاها للدول الأعضاء شخصيتها الدولية .

ننظر في تفصيل تلك :

د. بطرس بطرس غالي ، د. محمود خيرى عيسى : "مدخل في علم السياسة" ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط١٩٧٦ ، ص ١٨٧ - ١٩٧ .

بفكرة القومية لدى جمال الدين ، وهى أهم نقطة لدينا ، ويعد هذا الفصل برمته تمهيداً للحديث عنها ، وعن رأينا بأنها الفكرة المحورية لدى جمال الدين ، والكامنة فى شتى أفكاره منذ البداية حتى وفاته ، بما يشكل خطاً رقيقاً ، ووحدة عضوية تنتظم تياره الفكرى برمته ..

إذا قمنا بجولة سريعة لاستكشاف الجانب القومى لجمال الدين فى مرآة المفكرين ، وجدنا إشارات سريعة ، إلا أنها ناقذة فيما نحن بصدده .. فهو إذا تأملنا حقيقة الرسالة التى نهض بها ، وجدناها رسالة وعى قومى شرقى يودى إلى النود عن كرمة الانسان حيثما كان ^(١) ، وقد نسب إليه بحق الدور التاريخى " لأبى القومية " فى مصر ^(٢) .

بل إن ريادة الفكر القومى بمصر والشرق ترجع لجمال الدين ^(٣) ، وهو يعد فى اعتبار البعض بأنه كان قبل كل شئ مؤسس حركة الجامعة الاسلامية التى تمزج التفسير القومى للإسلام بالروح العصرية والدعوة إلى الإصلاح ^(٤) . ويؤكد " جب " على هذه المقولة ذاهباً إلى أن جمال الدين قد زود الحركة الإسلامية بوحى وبرنامج شعبى ، إذ أعاد تأسيس قواعد الإسلام فى إطارها القومى ^(٥) ، ثم يقرر فى موضع آخر أن للتبرير التجديدى والحركة الإصلاحية فى الإسلام ، يمتزجان بنوع من التفسير القومى للإسلام يعود الى جمال الدين ^(٦) الذى يرى أن التعصب ، بمعنى التضامن ، هو القوة التى تحافظ على وحدة المجتمع ، وهذه الوحدة إنما تتفكك بدونه ^(٧) . والتعصب يقوم على أسس

(١) عثمان امين : رواد الوعى ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٢) عثمان امين : محمد عبده : رائد الفكر المصرى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٦٥ ، ص ٣٦ .

(٣) لوثرروب ستودارد : حاضرم العالم الاسلامى ، مرجع سابق ، ج٤ ، ص ٩٢ .

(٤) Nuseiben, H.Z., the Idea of Arab Nationalism, Published by Cornell University Press, New York, 1956 P.P. 172 - 173 .

(٥) Gibb., Op. Cit., P. 43 .

(٦) Ibid, P. 152 .

(٧) العروة الوثقى ، ط١ ، دار الكتب العربى ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٧٩ .. الخ

مختلفة . فقد ينبثق عن عقيدة نبوية أو عن رابطة طبيعية كاللغة ، وفي هذا يجد جمال الدين فرقاً أساسياً بين المذنبتين الأوروبية والإسلامية ، فالاعتقاد الشائع في أوروبا ، كما يقول ، هو أن التعصب القومي خير بحد ذاته ويؤدي إلى التقدم ، وأن التعصب الديني أبداً تعصب أعمى يحول دون التقدم .

قد يصح هذا ، حسب رأي جمال الدين ، على المسيحية ، لكنه لا يصح على الإسلام ، حيث أن التعصب الديني الأعمى نادر والتعصب الديني الحق ضرورة جوهرية للتقدم .

لكن هذا - في رأي حوراني - لا يعني أنه كان ينكر أهمية الروابط القومية أو غيرها من الروابط الطبيعية (١) .

وبخلاف تلك الإشارات السريعة السالفة ، لا تجد ثمة من حاول تناول الموضوع بدرجة أكبر - ولو إلى حد ما - من التعمق والتحليل التفصيلي ، سوى محاولتين اثنتين :

المحاولة الأولى قام بها في عام ١٩٥٩ المفكر القومي (أبو خلدون ساطع الحصري) ويرى أن موقف جمال الدين حيال التفكير القومي قد انقسم إلى مراحل ثلاث (٢) .

١ - عندما كان يرفض إعطاء أي وزن للفكر القومي والخصائص القومية ، مكتفياً بوحدة العقيدة الدينية وهو هنا يسترشد بالمقالات الأولى من " العروة الوثقى " خاصة مقالة (الجنسية والديانة الإسلامية) (٣) .

٢ - عندما اعترف بالخصائص القومية إلى جوار عامل وحدة العقيدة الدينية . وهنا أيضاً يسترشد بالعروة الوثقى ، خاصة مقالة التعصب (٤) .

٣ - عندما اعترف بأن الغلبة في التأثير إنما هي " لجامعة اللسان " ومن ثم للخصائص القومية على وحدة الاعتقاد الديني .

(١) Hourani: Op. Cit., P. 118.

(٢) ساطع الحصري ، ما هي القومية ، مرجع سابق ، ص ص ٢١٨-٢٢٣ .

(٣) العروة الوثقى ، ط ١ ، ١٩٧٠ ، بيروت ، ص ص ٤٩ - ٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ص ٧٩ : ٨٨ .

أما المحاولة الثانية فتأتي بعد الأولى بعشر سنوات ، وقام بها الدكتور محمد عماره في عام ١٩٦٨ .٠٠ فهو بعد أن يشير إلى محاولة الحصرى السابقة ، يعترض على تسميته ويذهب إلى أنه وإن كان يعتبر هذه المحاولة - أى محاولة الحصرى - من المحاولات الجادة التي خرجت على تلك الموقف التقليدى الخاطئ الذى أشاعه عن جمال الدين كل الذين ترجموا لحياته وفكره ، والذين سلكوه فى سلك دعاة الجامعة الإسلامية والوحدة الدينية بالمعنى المعادى للفكر القومى والرافض لنشأة القوميات ، إلا أنه لا يعطى لهذه المحاولة فى التقويم الدقيق والتحليل النهائى أكثر من قيمة الخطوة الأولى الجادة فى هذا السبيل ، ذلك لأن التعمق فى دراسة فكر الرجل فى هذا الباب ، والوقوف وجها لوجه مع نصوصه ومواقفه هو أولاً وقبل كل تعليق أو تفسير أو تخريج إنما يضعنا أمام حقيقة موضوعية وصلبة نقول إن فكر الرجل قد مر فى هذا المقام بمرحلتين اثنتين ، لا بمراحل ثلاث ^(١) :

١ - أولى هاتين المرحلتين هى التي اتسنت بعدم الوضوح فى العلاقة ما بين " الجامعة الإسلامية " و " الوحدة " الإسلامية ، وما بين " القومية " وتكوين المجتمعات على أساس قومى حديث ومن ثم جاء فكره فيها حاوياً لكثير من التعبيرات والأحكام التي تبدو متناقضة بعضها البعض الآخر ، غير منسجمة فى سلك واحد ، ولا هى صادرة من منطلق فكرى كامل الحسم والوضوح . ويظل على رأيه هذا بمقالات من " العروة الوثقى " و " الخاطرات " .

٢ - المرحلة الثانية وهى التي نضج فيها الفكر القومى لدى الفيلسوف الدائر ^(٢) وهنا أيضاً يستند فى تأييد رأيه على مقالات " العروة الوثقى " و " الخاطرات " .

(١) محمد عماره ، الاعمال الكاملة ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢-٥٥ ،

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٥٨ - ٧٩ .

ويتضح مما سبق أن جل اعتمد كل من المحاولتين يستند إلى فترة تنقي
دبجت فيها مقالات " العروة الوثقى " ، وعلى الرغم من
تجاوزها إلا أنها تظل هي الأساس المكين الذي يرتكز عليه كلا الباحثين في
تحليله للفكر القومي لدى جمال الدين .

أما الدراسة ، فرويتها تختلف عن تلك ، وترى - كما ألمحنا من قبل - أن
جمال الدين كان ملتزماً بالتيار القومي منذ بداية شيوع أفكاره ، وحتى مماته ،
بمعنى وجود الرؤية القومية لدى الرجل من قبل " العروة الوثقى " ومن بعدها ،
تلك التي خفيت على الدارسين على اختلافهم ، وتكشفت للباحث ، ربما لأول مرة
بعد طول مصاحبة الرجل ومعاينة أفكاره . .

هل نلقى بهذه المقولة اعتسافاً أو جزافاً ؟

كلا ، وسبيلنا هو التعمق في دراسة أفكار جمال الدين في هذا الباب ،
ومجابهة نصوصه ومواقفه وجها لوجه دون أن نلوى عنقه في التأويل أو
التخريج ، وصولاً للحقيقة الموضوعية .
ولنترك جمال الدين نفسه يتكلم . .

(١) سنة ١٨٧٩ : (نص ينشر لأول مرة) :

في هذه السنة ألقى جمال الدين خطبة عظمة بمدينة الإسكندرية في جمع من
شباب الإسكندرية وأوجهاء والتبلاء بناء على طلبهم . .
وينبغي التنبيه إلى أننا نشير لأول مرة إلى الخطبة ، التي لم تنشر من قبل
ولا حتى وجنا إشارة لها لدى أي من الباحثين أو الدارسين : حتى جامع
الأعمال الكاملة وناسريها . .

وقد نشرت تلك الخطبة بالحد رقم (٤٧) من جريدة مصر ، الصادر بتاريخ
الست ٢٤ مايو ١٨٧٩ م . الموافق ٤ جمادى الآخر ١٢٩٦ هـ

وهي خطبة طويلة ، سبقتها مقدمة قمت بها جريدة مصر للخطبة ومهدت
لها ، على أن الذي يعنينا من تلك الخطبة هو تلك الإشارات الواضحة التي تتم
عن تيار قومي مبكر في فكر الرجل ، من مثل قوله :

• • • فكما أن قولم الأعضاء ونموها ، يكون بالقوة الحيوية تقوى بازديادها وتضعف بضعفها على نسبة واحدة ، كذلك جسم الأمة لا تحصل لطبقته القوة إلا بروحه الحيوية التي هي عبارة عن الميل إلى المعالي ، والشوق إلى الكمالات ، وليس بخاف عنكم ما ألم بروح الجنسية في الأمم الشرقية من الضعف والوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات ، فلا تؤاخذوا من قام فيكم خطيباً إن رأيتم في صوته تهديجاً وفي عبارته قلقاً ، وفي معانيه اضطراباً ، فما الخطباء إلا من طبقات الأمة التي ألم الضعف بروحها الكلي فسرى إلى طبقاتها وأعضائها ، ولهذا فلذا رأيتم في خطابتي نقصاً فلابد من التجاوز عنه لكوني رجلاً شرقياً • • •

ويلاحظ هنا حديثه عن أفكار (الجنسية) و (النزعة الشرقية) • • •

ومن المعلوم أن جمال الدين كان يطلق لفظ (الجنسية) على ما نعنيه بالقومية • ثم يواصل خطابه قائلاً :

• • • وإذا تقرر لي ذلك فإني أشرع في بيان المطلب فنقول :

لا أريد أيها السادة أن أنكركم بمجد آبائكم الكرام ، وأنكم إما أن تكونوا من أبناء المصريين ، أو من حفدة الفينيقيين ، أو من سلالة الكلدانيين ، وأن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها ، ومن الحساب غايته ، ومن المساحة قاصيتها ، ومن فن جر الأثقال منتهاه ، وعلموا اليونان الحكمة والفلسفة • • • ، ولا أنكركم بالفينيقيين ولهم وضعوا أصول الصناعة ، وخاضوا أعقاب البحار ، وكانت إنجلترا واليونان من مستعمراتهم ، • • • ، ولا أعيد ذكر الكلدان جدوكم الأول الذين أنشأوا صناعة النحت ، وقسموا الفلك بالدوائر • • • الخ • • • ، لا أنكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين ولا تخافون فيه منكرًا أو معترضاً فإن الهرمين والمسلات وأعمدة الكرنك تتقاً بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والنقص في النظرة ، وأن ثلوث نيتوى وأطلال صور وعبليك ومنفيس وثيبة ما بقيت إلا لتثير الخبار على أبصار المفكرين الذين نظرون إلينا بعين الاستخفاف والاحتقار ، • • •

يلاحظ هنا عمله على إثارة النعرة القومية ، مع شمول نظرته إلى وحدة الشعوب عن طريق تحديد الخطر للواحد الذي يتهدد جميعاً •

ثم نقرب أكثر من بيت القصيد فيما نحن بصدده ، فنراه يسرسل حتى يصل لقوله : " . . . وحيث أنا شعرنا بالألم ، وعلمنا بسقوطنا في هذه المهواة ، وأن أنفسنا تميل إلى الخروج منها ، فلابد لنا من البحث عن الدواء الحقيقي لهذا الداء الحادث ، فإذا رجعنا إلى بصيرتنا للتوازنية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب ، فإن المتحرك لا يسكن ، وأن الساكن لا يتحرك إلا بالعلة ، ولا لرى لخروجنا من علة سوى الغيرة ، فهي المحرك للنفس الداعية إلى المجاراة والمباراة والباعثة على الاهتمام والإقدام على قدرها تأتي العزيمة ، وترتفع القيمة وعلى حسب تأصلها في الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم إلى معارك العز والثروة ، وهبوطها إلى دركات النذل والفاقة ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسيتهم ولا قوة لأمتهم إلا بوطنهم ،

" . . . ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطني لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء مالم يكن لأهل الوطن لغة جامعة مهيبة التراكيب جيدة الأساليب ، فإن لم يكن لهم ذلك لا تستقر فيهم المعارف ولا تقيم باحياتهم العلم ، وإذ ذهب جماعة كثيرة منهم إلى أوروبا ، وتعلموا اللسان الأجنبي ، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال ، ووطنهم يكون كالبلد الذي لا ماء فيه يجلب لأهله الماء من ضواحيه ، فهو عرضة للظم وسوء الحال وأهله على شفا الاضمحلال

هنا حديث عن فكرة الجنسية - والتي أمضا قبل إتيان ترانف القومية عند جمال الدين - ، وإشارة إلى فكرة اللغة بمثابة القوة الجامعة الضعيفة على البقاء .

(٢) سنة ١٨٨٣ : (رأيه على لبنان) :

من أبرز المعالم في تاريخ جمال الدين ، إتيان إقامته في باريس ، اتصاله بالفيلسوف الشهير " رينان " وإعجاب كل منهما بالآخر - ، ودخولهما معاً في معركة حول الإسلام والعرب ، وقد فتحت جريدة " الديبا " الفرنسية الشهيرة

(1) Renan, L'Islamisme et la Science, Paris, 1883. P.p. 2-3 .

Hourani Op. Cit., P, 120 - 390 .

عن :

صدرها لهذه المعركة.

فقد ألقى الأستاذ "رينان" في السريون محاضرة^(١) تناولت ثلاث نقاط :

١ - "خطا المؤرخين في قولهم (علوم العرب ، فنون العرب ، وتمتد العرب ، وفلسفة العرب) مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية " .

٢ - " إن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لهما " .
٣ - " إن للعصر العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها " (٢) .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان ، رد السيد جمال الدين عليه في جريدة " الدنيا " أيضاً ، (٣) فأخذ يبرهن على تقدم العرب العلمى ، وفضلهم على الغربيين ، مؤكداً على مزايا العرب الذهنية ، وحبهم للطبيعى للعلوم فكان مما قاله : " ... وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يعدون عن رومة وبيزنطة بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تكتمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليونانى على مقربة منهم .

لو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبهم للطبيعى للعلوم ؟ وبينما يسلم مسيور رينان بأن البلدان الإسلامية فى غضون خمسة قرون منذ سنة ٧٧٥م الى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاماً ،

(١) انظر : احمد امين : زعماء الإصلاح ، مرجع سابق ، ص ص ٨٦ - ٨٧ .

(2) - J. des Debats, 18 May, 1883 .

كما وردت فى الترجمة للترسية لكتاب جمال الدين (الرد على الدهريين) ، ص ١٨٥ ،

انظر : Hourani, Op. Cit., P. 122.

وانظر : الترجمة العربية فى : احمد امين ، زعماء الإصلاح ، مرجع سابق ، ص ص

٨٦ - ٩١ .

ولأن العالم الإسلامي إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية إذ يقول: إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كتابي السياسيين من أصل حرائي ، أو أنطلسي ، أو فارسي ، أو من نصارى الشام .

"وايست لريد أن اغمط علماء القروس صفاتهم للباهرة ، ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذي لعبوه في العالم الإسلامي ، ولكن أرجو أن يسمح لي أن ألاحظ أن الحرائيين كانوا عرباً ، وأن العرب لما احتلوا أسيبتيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرائيين وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي " الصابئة " ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت لأكثرية نصارى الشام عرباً غسائين اهتدوا بهدى النصرانية . أما ابن بلج ، وابن رشد وابن طفيل ، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى أنهم لم يولدوا في جزيرة العرب ، وخصوصاً إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز لغة عن أخرى إلا بلغتها " .

يذهب بعض الدارسين إلى أن جمال الدين قد أقر بالواقع القومي والتميز القومي (على أساس اللغة) للشعوب ، وللشعوب الإسلامية بالذات ، كما تضيف أنه قد دافع عن الطابع العربي ويرر اللقب العربي للحضارة الإسلامية في مجالته مع لرنست رينان (١) .

وترى بعض الدراسات في الرد السابق لجمال الدين على رينان ، فكراً قومياً واضحاً وناضحاً ، بل وبنافاً عن العرب والعروبة بالذات ، وهو أمر له دلالة ، بل ما أحراه بمثابة الإرهاص لذلك التضج القومي ، ولهذا الدفاع عن العرب والعروبة ومقومات قوميتهم ، فيما بعد هذه المرحلة من مراحل تفكير جمال الدين ، الذي يقدم لنا - حسبما تراه الدراسة في هذا الرد - فكراً عميقاً يتعلق بقضية الأجناس مدافعاً عن عروبة جماعات وأقاليم يريد " رينان " أن يسلبها من العروبة فيسلبنا مجدها الحضاري والثقافي ..

(١) الياس مرقص : نقد الفكر القومي ، ج ١ ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٦ ،

ثم تلفت الانتظار ، بل وتطلب من الجميع إمعان النظر في عبارته الحاسمة التي تقول إنه " لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا ببلغتها " لأن هذه العبارة تقود جمال الدين - في رأيها - إلى ساحة التفكير القومي الناضج ، وتمهيد لأصالة تفكيره القومي (١) .

والدراسة وإن كانت قد سبق لها الاختلاف مع هذه الدراسة في تقسيمها للفكر القومي لدى جمال الدين إلى مرحلتين ، إلا أنها الآن يمكنها إلا تعد رأيها مختلفا معها ، بل هو إضافة إليها ، بعد الاتفاق معها فيما ذهبت إليه بهذا الصدد بالذات ..

وبعد .. قلنا ملحوظتين ... نوردتهما بصدد النص الذي ذكرناه من رد جمال الدين على رينان ، أنفا :

(١) نلاحظ أن اللغة ، وليس الدين ، هي التي تعد في نظر جمال الدين ، علامة الانتماء للجنس وأساسه وسنده .

وتتضح دلالة هذا وأهميته ، لذا ما وضعنا في اعتبارنا ، ما ذكرناه من قبل ، من أن تسيد جمال الدين يستخدم كلمة " الجنسية " بما يعنى " القومية " في المفهوم المعاصر .

(٢) عبارة جمال الدين أنه " لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا ببلغتها " عبارة حاسمة ، وبينه لا تحتاج إلى تعليق مسهب ، كي تضع تحت أنظارنا دلالة واضحة على النزوع القومي لجمال الدين .

(٣) سنة ١٨٨٤ : (جريدة العروة الوثقى) :

في هذا العام وضع السيد جمال الدين خطة لبث ما يرومه من الإصلاح ، وكانت خطته هي إنشاء جريدة عربية في باريس ، وكان من هذا جريدة " العروة الوثقى " يكون لجمال الدين فيها الأفكار والمعاني ، وللشيخ محمد عبده التحرير والصياغة ، وميرزا محمد باقر يعرب لها عن الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم

(١) أنظر : محمد عمارة ، الأعمال الكاملة ، ط١ ، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ، ص ص ،

الشرقي (١) .

في بداية الجريدة ، وتحت عنوان " لمذا صدرت الجريدة (٢) " يقول : " هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل في نجاح العمل " . ثم يسترسل في بيان ما اعتري الشرق من ضعف ووهن إلى أن يقول :

" ... لبعد هذا بأخذنا العجب إذا أحسننا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الأيام " .

" ... بلغ الإحجاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهائيه ، وأدرك للمتغلب منهم نكايته ، خصوصاً في المسلمين منهم " (٣) .

ثم يسترسل إلى أن يصل لقوله : " ... إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيص الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة ، ومن مكة إلى مصر والكثير الممتد من مصر إلى مكة ، ومن مكة إلى الهند " .
" ... إن الزلزال الأخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جذبت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة " (٤) .

إلى أن يقول : " تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية " .

" ... طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفى عنه شأنهم من إخوانهم

(١) صدر من الجريدة ثمانية عشر عدداً في ثمانية أشهر ، ظهر العدد الأول منها في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ = ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م ، وظير العدد الأخير في ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١هـ = ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ . وقد توقفت بسبب محاربة الإنجليز لها .

(٢) انظر : ص ١ ، من المجلد الذي يجمع أعضائها تحت عنوان : العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى ، ط ١ ، دار العرب للبستاني بالقاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، وهي الطبعة التي نعتد عليها بعد مقارنتها بطبعة بيروت ، ١٩٧٠ .

(٣) العروة الوثقى ، ص ٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥ .

واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف أسان عندهم وهو اللسان العربي . (١) .

وبعد ذلك ، وتحت عنوان :

الجريدة ومنهجها :

يقول : " سيأتى في خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فلت والاحتراس من غوائل ما هو آت . "

ثم يواصل قائلاً : " ... وإن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ... ولا ملجئ للشرقي في بدليته أن يقف موقف الأوروبي في نهائته " (٢) .

" ... ويهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة ، ... ولا تنهن في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في شئونهم مع اختيار الصالح وانتقاء الثابت (٣) ويقول في مقاله : ..

(الوحدة الإسلامية) :

" ... هذا الذي أباد مسلمي الأندلس ، وهم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الاتجيز ملكهم بتلك الديار " (٤) .

" ... ، إن من أدنة إلى بيشاور (الأولى في المغرب بتركيا والثانية في المشرق ببلاد الأفغان) دولا إسلامية متصلة الاراضى " (٥) .

وبعد ذلك بفترة يتحدث تحت عنوان : " العروة الوثقى توزع مجلداً "

(١) المرجع السابق ، ص

(٢) المرجع السابق ، ص ٧

(٣) المرجع السابق ، ص ٨

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٩

(٥) المرجع السابق ، ص ٧٢ وما بين القوسين من عندي .

" تأتي فصولها على أهم ماله أثر في أحوال الشرقيين عموم والمسلمين خصوصاً فلا تلام إذا أظنيت في مسألة شرقية عامة ولا إذا أغفلت ذكر بعض أخبار من أمريكا وجابونيا " (١) .

وتحت عنوان : " العروة الوثقى "

مصادرتها في مصر والهند وفرض غرامة على قرائها !! :
يقول : " ... أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأى اختياري في هذا القرار ، بل لا نتوهم في المستوى على كرسى الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الحكم ولا يخلج في صدورنا أن مصرياً من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقياً ممن يسكن تلك البلاد يرى فيها جانباً من العدل .

" هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستجداء لهم ولها سعى ، بل كان السعى لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القبح في عمرو فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا وإنما عملها سكب مياه النصيح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد . تلتص من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لإدفع الضواري التي فغرت أفواها لانتهاهم .

ومن رأيها أن الأشغال بداخل البيت إنما يكدر بعد الأمن من طروق التآهب .

هذا منهاج العروة الوثقى علمه كن مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مصاحماً أو غير مسلم يميل لدحجها عن دياره " (٢) ويواصل حديثه بعد ذلك ، إلى أن يصل إلى خاتمة المقال ، فيقول :
" لا يحزنن أهل الحق القشمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المصري وليعلموا أن

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

الحكومة المصرية لا دخل لها في هذا المنع - فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شيء منها سوى الدفاع عن الشرقيين وإنما منشؤه حكومة إنجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها * (١) .

والملاحظ من كافة الامثلة السابقة والتي أوردناها على سبيل المثال لا الحصر ، أن جل حديث جمال الدين ينصب على الأطار الشرقي ، فحديثه يدور حول الشرق ، والشرقيين ، وأمم الشرق ، وحتى إذا ما تناول الإسلام في حديثه، فإنما يتناوله داخل الإطار الشرقي .

وعلى الرغم من أن تناوله للإسلام جاء اماماً ، في إطار تناوله للشرق وأحواله فإنه يخشى أن تساء به الظنون ، وتتأبه شبهة الابتعاد عن الإطار الشرقي ، لهذا فإننا نراه يقف مبرراً تناوله القليل للإسلام بين حين وآخر ، فيقول معتزلاً : " لا يظن أحد من الناس أن جريتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومداعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ويتفق معهم في مصالح بلادهم ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والافساد في بلادهم وقد نخص المسلمين بالذات لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجانب واذلوا أهلها أجمعين وأستأثروا بجميع خيراتها (٢) " فجمال الدين يقولها بصراحة ووضوح ، إن الجريدة لا تذكر المسلمين إلا لأنهم العنصر الغالب في البلاد المرزوءة بالاستعمار .

ولو عدنا بأنظارنا مرة أخرى إلى العدد الأول من الجريدة ، لنفحص أهدافها وأهم أغراضها ، وجدناها تتخلص في الآتي :

(١) بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

(٢) العروة الوثقى ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢ .

- ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التي أفسدت حالهم ،
وعمت عليهم طريقهم • وإزاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم •
- (٢) إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس •
- (٣) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهي ما
تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب •
- (٤) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمين خصوصاً من التهم ،
وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا
متمسكين بأصول دينهم •
- (٥) أخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة •
- (٦) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين
المناقع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف
والأحجاف بحقوق الشرقيين ^(١) •
- فمن الواضح مما سبق أن الجريدة تخاطب الشرقيين في المقام الأول ،
جميع الشرقيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم كما وليس من بين أهدافها ، هدف
الجامعة الإسلامية •
- ولا نريد تكرار ما سبق أن ذكرناه بصدد الجريدة ، كي تتضح الصورة
أكثر ، ويمكن الرجوع إليه ^(٢) •
- بالإضافة لما سبق ، ينبغي ألا نخفل عن الصبغة السياسية التي اصطبغت
بها الجريدة ، فالعروة الوثقى كانت تعبيراً عن سياسة جمعية سياسية سرية حملت
نفس الاسم ، وانتشرت تنظيماتها في عدد من بلاد الشرق ، وبالذات تلك التي
أصبحت باحتلال إنجلترا لأوطانها ، وخاصة مصر والهند ... فهي من هذه

(١) المرجع السابق ، الجريدة ومنهجها ، ص ص ٧ - ٨ •

(٢) راجع اتجاهات تقييم فكرة " الجامعة الإسلامية " والتعقيبات عليها ، في هذا الفصل •

الزاوية تعبير عن تنظيم سياسي ، نطقت علناً ببرنامجه السياسي السري^(١)

(٤) سنة ١٨٩٢ - ١٨٩٧ : (الخطرات) :

ثمة كتاب بعنوان : (خطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني) ، من تأليف محمد باشا المخزومي يقول مؤلفه : " إن هذا الكتاب (خطرات جمال الدين) قد كتبت مواضيعه في دور السلطان عبد الحميد ، ما بين سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م ، إلى سنة ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م ، على كمال الاحتراز ، بل الخوف من شدة المراقبة ، ووفرة الجواسيس ، وكثرة الافتراء في ذلك الزمن على الأبرياء خصوصاً على السيد جمال الدين ، وعلى من كان يكثر الاجتماع عليه ، أو يدخل بيته " (٢) ويقول في ختام الكتاب : " تمت مواضيع كتاب " الخطرات " التي كتبت في الأسئلة ما بين سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م إلى سنة ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م ، وقد بنينا كل الجهد ، وحرصنا جد للحرص - كما يرى المطالع - لحفظ وتكوين كل خاطرة ، وكل قول لذلك الإمام الحكيم ، والأستاذ الكامل المرحوم المبرور السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني ، فجاء بعونه تعالى متفراً جامعاً لشتات الحكم وصائب الآراء في أدواء الشرق وما يعتابه أهله من العلل الاجتماعية ، ونرجو الله أن ينفعنا جميعاً بعلوم من صدرت عنه تلك : " الخطرات " وما حوته من جليل الأقوال وبلغ التصيحة . وأن يسكنه فسيح جناته ، ويعامله بجزيل فضله وإحسانه " (٣) .

ويتبين لنا مما سبق أن هذا الكتاب يوضح لنا آخر آراء جمال الدين ، في الفترة من عام ١٨٩٢م حتى وفاته في عام ١٨٩٧م .

(١) أنظر : محمد عمارة : جمال الدين الأفغاني : الأعمال الكاملة (دراسة وتحقيق) ، ج ١ : الله ، ، ، والعالم ، ، ، والإنسان ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٧ .

(٢) محمد باشا المخزومي : خطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني ، ط ٢ دار الفكر الحديث ، لبنان ، ١٩٦٥ ، ص ١ . وسيكون جل اهتمامنا على هذه الطبعة .

(٣) الخطرات ، مرجع سابق ، ص ٢٨٨ .

وأول ما نخطه في هذا الكتاب هو التأكيد على آراء " العروة الوثقى " وعلى منهجها . . . حيث نرى جمال الدين يقول : " . . . يا شيخ بنى مخزوم !! إنك ترى بين هذه الورقات " العروة الوثقى " أمثلة تنطق ، وقضايا تصدق على الشرق وأهله ، ماداموا في تلك الغفلة ، وفي تلك الشقاق والنفاق ، ورضاهم في اللذخوق الذل " (١) ويقرر المخزومي مؤلف الكتاب ، أن جمال الدين قد أتى على بيان منهج " العروة الوثقى " وأعاد ذكره له عندما عزم - أي المخزومي - على إصدار جريدة " البيان " في الأستغنة عام (١٣١١ هـ ، ١٨٩٣ م) وما أحرراه أن يكون دستوراً لكل جريدة شرقية ، حيث قال : " سنأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتباس من غوائل ما هو آت . . . الخ منهج العروة الوثقى وأهدافها " (٢) .

كما نلمح تأكيداً على فكرة عدم ذكر المسلمين إلا لأنهم يشكلون أغلبية ، وبالتالي تأكيداً أوثق على فكرة المحور الشرقي ، يقول المؤلف في مقدمته لدى حديثه عن جمال الدين :

" . . . شديد البعد عن التعصب ، نفوراً منه ، وأن ذكر المسلمين في أكثر مقاله ، ذلك لأنهم العنصر الغالب بأكثرية في الشرق ، والملة المسلمية ممالكها ومقاطعاتها ، ولهذا أكثر من إيقاظهم ، وتنبيههم وتقريرهم ، إلا فهو أكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى المساواة ، وميلاً للعمل بها فعلاً بين نوع الإنسان ، خصوصاً في الحقوق العمومية التي لا يصح لها معنى إلا بالحرية المعقولة . يهمله الشرق والشرقيون على السواء ، وينون إستثناء " (٣) .

وإثباتاً لقول المخزومي السالف ، فإننا لتجد في خاطرات جمال الدين من النصوص ما يؤكد على فكرة الإطار الشرقي لديه .

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٦٨ - ٢٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦ .

فهو يقول خلال حديثه عن غرضه الأسمى في حياته " . . . ثم جمعت ما تفرق من الفكر ، ولملت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفغان ، وهي أرض من جسمي ترابها ، ثم الهند ومنها تنقف عقلي ، فايران بحكم الجوار ، والروابط وإليها كنت صرفت بعض هممت ، جزيرة العرب ، من حجاز مهبط الوحي ومشرق أنوار الحضارة ، ومن يمن وتبابعثها ، وأقيال حمير فيها ، ونجد ، وعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها والأندلس وحملاؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام في الشرق وما آل إليها أمرهم فيه اليوم .

فالشرق ! الشرق ! وقد خصصت جهاز لماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد انتقوا على إلا ينتقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة " (١) .

ويقول في إيداء رايه في الانجليز وفي الحجر الذى يطبقه الغربيون على أهل الشرق : " ابتدئ بوصف الانجليزى على أقصر الطرق ، فهو قليل الذكاء ، عظيم الثبات كثير الطمع والجشع ، عنود ، صبور ، متكبر .

والعربى أو الشرقى كثير الذكاء ، عديم الثبات ، قنوع جزوع ، قليل الصبر متواضع . . . كل هذا يدل صراحة على أن الأمة العربية خصوصاً ، والمسلمين عموماً أحوج إلى الصبر والثبات من كل ما فى الاخلاق المؤدية للسعادة البشرية .

... إن هذه الانواع من المعالجات فى الشرق اذا كنت ارى منالها اليوم بعيدا ، ذلك لسقوط الهمم ، وخور العزائم ، وتفرق الكلمة ، والاستسلام للخمول ، وبعد النفوس فى معظم الشرقيين عن مرامى العزة النفسية ، وحرمانهم من لذة ما تنبسط به الروح عند نوال المنعة القومية ، والحرية الحقيقية ، وما فى عزة

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨

الحاكم الفرد من الحول والطول ، بقوة مجموعة - ولو كان صعلوكا - على الجمهور المحكوم ، ذلك الجمهور الشرقى اليوم المستكين للمهانة ، الخاضع للقوة الموهومة التي يتخيلها هو لا مثلاً أو غولاً أكلاً^(١) .

ونراه بعد ذلك يتناول الشرقيين على أنهم " يضمنون العربى ، أو الفارسى ، لو الأورد الهندى ... الخ^(٢) " .

ويقول فى حديثه عن مصر :

" ... كاد ان لا يخلو سطر من " العروة الوثقى " إلا وفيه ذكر " مصر " ولا براهمين وأدلة على ظلم الإنكليز إلا ويتمثل فى مصر " ولا خوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا ونراه فى التهاون فى أمر " مصر " . ذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة الإسلامية ، والعرب عموماً نغولاً ، ويعروقها اتصالاً .

ولا يفوتن أهل الشرق للعلم بأن كل مدينة ، وكل مقاطعة اسلامية شرقية هى بمنزلة " مصر " وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم ، فالشراك لها منصوبة السقوط - والعياذ بالله - قريب ، إلا إذا نشطت العقول ، وعملت أولو العزائم ، ولمت الأمم الشرقية شعنها ، ووحدت كلمتها ، وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ، وعزة الحرية والاستقلال بمؤملاتها^(٣) ويكرر فى مواضع اخرى :

" ... تفرقت كلمة الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً ، وهم أصحاب الملك المسلوب والمال المنهوب " شرقاً وغرباً ، وكاد يتقطع ما بينهم " (٤) .

" ... وهكذا لا تزال تسمع كلاً من العربى والفارسى وغيرهما من الشرقيين ، يقول : نحن أحفاد أولئك الاجداد ، ونحن سلالة ونزيرة أولئك الاقيال

(١) المرجع السابق ، ص ص ٨٠ - ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

والأمجاد ، ونحن ، ونحن ، مما يثير الأسجان ويزيد الأحران " (١) .

" ... بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ،

وأدرك المتغلب منهم نكايته خصوصاً في المسلمين منهم " (٢) .

ومن كل ما سبق يتبين إصرار جمال الدين وتأكيد على لباب آراء العروة الوثقى ، وخاصة الاهتمام بالشرق وأحواله ، والتركيز على فكرة الإطار الشرقي ، كموجه استراتيجي لكافة جهوده وآرائه . إلا أن ثمة ما يلتفت النظر أيضاً ، بالإضافة لما سبق ، فنجد في كتاب الخاطرات بحثاً مهماً يورده المخرومي تحت عنوان :

" رأيه في كيفية تربية الطفل الذي سيكون رجل المستقبل "

نجد فيه كلاماً لجمال الدين عن " الوطنية " و " حب الوطن " وعن المدارس الأميرية والأجنبية وعن المدارس الأهلية الوطنية ، وهو يقول في سياق الحديث :

" أما الدين ، فعلى قسمين : قسم عبادات ، وقسم معاملات .

" فالعبادات يؤتيها الإنسان لربه بمعزل عن كل أحد ، فلا يعارض غيره بها ، ولا غيره يعارضه . إن لكل وجهة هو موليها . والله رب العالمين ، لارب اليهود فقط ، ولا النصراني فقط ، ولا المسلمين فقط ، وهو الذي خلقكم من نفس واحدة " . " وأما المعاملات فهي شرع بين العموم ، يعمل أبناء الطوائف على خير متكاتفين ، متعاونين . يشتغلون في المدرسة إخواناً ، ويخرجون منها إخواناً . يحملون بين أفتنتهم شعور الولاء والإخلاص ، ولا يحل ما ارتبطوا به من روابط المحبة الوطنية قرب ولا بعد ، ولا ينسون عهد الصبا ونكراه . بل يكونون في جسم الوطن كأعضاء الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تألم له المجموع من الجوارح . كيفما ساوروا ، وأينما حلوا ، فلا يرون إلا وحدة من سماء ، وأرض ، وماء ، وحب لوطن واحد . ولا تبليبل سنتهم مختلف اللغات ، ولا تشتت كلمتهم تباين النزعات ، ولا تغفل فيهم أهواء أولى الغايات من أرباب

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

تلك المدارس والمعاهد ، - او - إن شئت قلت : تلك المصايد ، وإن كان منها بعض النفع " (١) .

ويلاحظ فيما سبق ، أن فكرة " وحدة الوطن و " وحدة اللغة " تكتسب في هذا السياق ، خطورة خاصة ، متجاوزة بذلك مرحلة " العروة الوثقى " .
إلا أنه كيفما كان الأمر ، وفوق كل ما سبق ، يباغتنا كتاب المخاطر ، بنصوص وأقوال لجمال الدين ، جد خطيرة وحاسمة في آن ، فأنظر الى آرائه في خطورة " اللسان " و " أهمية اللغة " :

" ... لكل لسان آداب ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الاخلاق وعلى حفظها تتكون العصبية " (٢) .

" ... هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادي ، وأما التأثير المعنوي فيكفي أنه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر - فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة ، وترقبت الفرص ونهضت بعد دهر فربت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل في ذلك إنما هو اللسان ، قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا في الاستعباد ماشاء الله " (٣) .
هل أفلحت الكلمات السابقة في إبراز مدى خطورة وأهمية فكرة " اللسان " و " اللغة " كركيزة للوحدة وأساس للتجمع ؟

إن كان لازال ثمة شك أو توجس ، فلنتنظر للنص التالي ، والذي يبدو وكأنما جمال الدين يزيل به في حسم أي شك أو ايس :

" لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي ونحى أثر رجال تاريخها فتعمل عملهم ، وتسج على منوالهم .

(١) المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

وهذا كله يتوقف على تعليم وطني يكون بدايته " الوطن " ووسطه " الوطن " وغايته " الوطن " ١ .

ويجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية : اثنان في اثنين، يعملان أربعة - فلا تستطيع المذاهب ، لو الطوائف أن تدعيها خاصة ، ولا أن تحاول نقضها .

هذا هو الوطن ، وهكذا يجب أن يكون التعليم الوطني " (١) .
يلاحظ للوهلة الاولى ، أن " اللسان " يتبدى كبؤرة للتجمع ، أو هو بمثابة القاعدة التي يتأسس عليها هرم السؤدد والمجد الحضاري لأية امة .
على أنه قد تبقت ملحوظة على درجة من الأهمية فيما نحن بصددده ، ينبغي التنبيه عليها قبل أن نصل إلى ختام هذا الفصل .

لجمال الدين مقالة مكتوبة باللغة الفارسية ، تتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع الفكر القومي لدى جمال الدين . وكان من فضل الله تعالى ، أن من علينا ، يلفت نظرنا إليها من خلال إشارة عن تلك المقالة ، بينما كان واجب الأمانة والبحث العلميين ، أن نجد ما بين أيدينا بأكملها (٢) .

وقد تمت ترجمة تلك المقالة من اللغة الفارسية ، إلى اللغة التركية ، بقلم "رسول زادة أمين" ، ونشرت في استانبول ، في مجلة "تورك يوردي" - أي "موطن الترك" - عام ١٩١٣ م . كما تمت ترجمتها إلى اللغة الفرنسية ، بقلم "مهدي هندی" ونشرت في مجلة " الشرق " . Orient " في باريس عام ١٩٥٨ ، وقد اعتمدنا عليها .

(١) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

(٢) من أوجه العجب ، أنني لم أعر على ما يمت بلية صلة لتلك المقالة - على الرغم من أهميتها - خطورتها العلمية - إلا لدى اثنين من الباحثين فقط ، بينما لم أجد ، حتى ولو مجرد إشارة ، تلميح غير مباشر إليها ، فيما سمي : الأعمال الكاملة للافتاني .

انظر الإشارة لتلك المقالة المهمة في :

١ - ساطع الحصري ، ماهي القومية ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

2 - Hourani, Op Cit., P. 118 .

وقد صدر جمال الدين المقالة بمقدمة موجزة باللغة العربية ، هذا نصها :
" لا سعادة إلا بالجنسية .. ولا جنسية إلا باللغة . ولا لغة مالم تكن حاوية
لكل ما تحتاج إليه طبقات أرباب الصناعات والخطط في الإفادة والاستفادة "
والدلالة الصريحة لهذه المقدمة للعربية ، واضحة ، في أن " الجنسية " -
أي القومية - هي أساس السعادة ، وإن أساس الجنسية هو " اللغة " .
يقول جمال الدين بعد ذلك :

" إن الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان : وحدة اللغة ،
ووحدة الدين .

" وحدة اللغة ، هي الأساس الذي تقوم عليه الجنسية "
واللغة أشد ثباتاً ، وأكثر دواما من الدين "
" لأننا نعرف أمما غيرت دينها - خلال ألف عام - مرتين ، بل وثلاث
مرات ، دون أن يطرأ خلل على وحدتها اللغوية والقومية " .
" فنتستطيع أن نقول ، لذلك : إن تأثير رابطة اللغة - في هذه الدنيا - أقوى
من تأثير رابطة الدين " .

وعلى هذا الأساس تسترسل المقالة في الدعوة إلى استنهاض الهمم للعناية
باللغة القومية ، والتدريس بها ، مع ترجمة أمهات الكتب العلمية والأدبية إليها .
إن جمال الدين هنا يظهر بمظهر القومي السافر ، الذي يعتمد أهمية
الروابط القومية وغيرها من الروابط الطبيعية ..

فهو يقرر في هذه المقالة ، بأنه في مقدور الجماعة القائمة على الفضائل
البشرية والخاضعة لتبشير العقل البشري أن تستقر استقرار الدولة القائمة على
الدين ، لا بل في مقدورها أن تكون أكثر استقراراً ، فتبقى بعد أن يتبدل الدين
مرتين أو ثلاث ..

كما وأنه يرى أن اللغة تمثل عنصراً جوهرياً في خلق أية جماعة مستقرة ،
إذ أن المجتمعات البشرية التي لا تجمعها لغة مشتركة لا يمكن لوحدها أن
تتصف بالثبات .

بل إنه من السهل على الجماعة التي تنقصر إلى لغة خاصة تعبر بها عن معرفتها ومهارتها أن تخسر ما هي عليه من المعرفة والمهارة ^(١) .

والأمر الذي لا شك فيه ، هو أن هذه المقالة ، رغم ما تشيّر من مشكلات ، ورغم أننا قد أقرنا بالحديث عنها هذا الجزء ، دونما أدراجها في أية مرحلة من مراحل تطور الفكر القومي لجمال الدين ^(٢) ، إلا أن هذا لا يمنع من كونها شاهداً لا يستهان به ، بصدد الفكر القومي لجمال الدين .

وأنها - بالإضافة لكل ما سبق أن أوردناه من نصوص جمال الدين - على سبيل المثال ، لا الحصر - تشكل دلالة إن لم تكن حاسمة ، فهي من القوة بما يدعو للقول بأنه لم يعد ثمة من داع للشك في توفر الفكر القومي بل وأصالته لدى جمال الدين .

(١) انظر الترجمة الفرنسية للمقالة بأكملها في :

Al-Afghani, "philosophie de L'union National, " Orient, vi (1958), 123. FF.

(٢) إن المظهر القومي السافر الذي ظهر به فكر جمال الدين في تلك المقالة ، ليقف على طرفي النقيض مع كثير من آراء جمال الدين المعروفة ، ولتقارنه مثلاً بمقالة عن " الجنسية والديانة الإسلامية " بالعمدة الوثقى ، وما شابهها في المضمون ، ليثور هذا التساؤل القوي على الفور :

ما هو سر هذا التناقض والاختلاف الكبير ؟

- هل كان جمال الدين ، ينادي في كل بلد وبكل لغة ، بما يخالف تماماً ما ينادي به في بلد أخرى وبلغة أخرى ؟

- هل تمثل هذه المقالة مرحلة أخيرة من تطور رأي جمال الدين ، بصدد قضية القومية على مرور الزمن ؟

الحق أنني ، وللأسف الشديد ، لم أتمكن من التوصل لمعرفة تاريخ كتابة هذه المقالة على وجه الدقة ، في أصلها الفارسي ، كما ظهرت لأول مرة ، حتى يمكنني تحديد الفترة الزمنية الفاصلة بين كتابتها وكتابة غيرها من المقالات العربية .

وهذا لم يتوفر لدى السند العلمي الذي يمكنني من إبداء رأي في حسم هذا الأمر .

خاتمة :

وبعد كل هذا ، وكيفما كان المستوى الفكري لها ، والاستراتيجية الموجهة لغايتها ، ما هو المصير الذي آلت إليه " الجامعة الإسلامية " ١٢٠ .

يقول " جب " Gibb إن الجامعة الإسلامية حين وضعت بين المنجأ دقيفاً للعالم الإسلامي إنما لقيست من الآراء الرجعية للنازعة إلى الحكم المطلق . ولكن كل حركة من هذا القبيل هي في ذاتها مستحيلة ومن أجل هذا كانت الجامعة الإسلامية أدنى إلى أن تكون عنصراً من عناصر التفرق والضعف من أن تكون عنصراً من عناصر القوة التي تحقق الملائمة بين الإسلام وبين العالم الحديث (١) .

كما وتذهب بعض الدراسات إلى أنه بالنسبة لمظهر أثار حركة جمال الدين الإصلاحية في الداخل والخارج ، فقد كانت على عكس ما يتوقع الكثير (فالدعوة إلى الوحدة الإسلامية والتضامن ، والدعوة إلى التخلص من الاستبداد الداخلي والدعوة إلى القضاء على كل مظاهر الاستغلال الداخلي والخارجي والدعوة إلى العدالة الاجتماعية والدعوة إلى محاربة السيطرة الأوروبية ، كل هذه الدعوات نتجت شيئاً عجيباً

شعوراً قومياً أثار الحركات القومية في كل البلاد الإسلامية التي بذرت بذور دعوته فيها . وهكذا من حيث لا يدري كانت الدعوة بالذات إلى الوحدة الإسلامية طريقاً إلى الحركات القومية في الشرق الإسلامي والعربي (٢) .

إن فكر جمال الدين بالأخص يبان مرحلة " العروة الوثقى " - نأى عن الاستاتيكية ، وإتصف بالمرونة إلى حد كبير ، ويؤيد واحد من كبار مؤرخينا هذا ، في سياق تقييمه لفكر جمال الدين و " العروة الوثقى " ، بأن العروة الوثقى لصديق تعبيراً عن أمانى جمال الدين وأحلامه عن مساعيه وكفاحه من أى اسم من الأسماء التي اعتاد مؤرخوه إيراداتها : الجامعة أو للوحدة أو ما إليها - العروة

(1) Gibb, Weather Islam, P.P. 43-44.

(2) خليل عبد المال : دراسات في تاريخ الدول الإسلامية الحديثة والمعاصرة ، الإسكندرية ،

١٩٧٥-١٩٧٦ ، ص ٨٥ .

الوثقى أصبح دلالة على قصده لأنها لا تفيد نظاماً بعينه ولا تفيد فكرة سياسية معينة . . هي أصبح دلالة لأنها تدل على التضامن المتيقن الوثيق الذى يتتبع ويتطور وفق ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان . وهذا التضامن يكون بين أفراد الجماعة الواحدة أفراد الشعب الواحد ، وهو فى هذه الحالة يؤثر العمل المشترك فى دائرة القطر الواحد ، كما كان الحال فى سعيه فى أفغانستان أو إيران أو مصر - ويكون التضامن ثالثاً فى مجال أعم يشمل الشعوب الإسلامية - ويكون التضامن رابعاً فى مجال اقرب للعالمية يشمل الشعوب الشرقية الآسيوية والأفريقية فى كفاحها ضد النفوذ الأوروبى - عو الجميع (١) .

وربما كان هذا هو ما حدا بالحيد من الباحثين إلى التأكيد على وسم فكر جمال الدين بالازدواجية ، من التقرير بأنه دافع عن القوميات المحلية والجامعة الإسلامية فى أن معاً ، بما يمثل تناقضاً بين دعوته الإسلامية وبين تشجيعه للقوميات المحلية ، بل إن غلوه فى الدعوة إلى القوميات المحلية لم يكن يناقض دعوته للجامعة الإسلامية فحسب ، بل ربما كان يدفع به إلى جانب معاد للإسلام (٢) .

وخلاصة ما نخرج به من كل ما سبق ، أن هذا يشكك فى أن جمال الدين آمن بمقدرة الإسلام فى ذاته كقاعدة ، على الصمود فى مجابهة الاستعمار ، ومن ثم استبدل به للرابطة الجنسية - القومية - وعمل على استثارة النعرة القومية لدى كل شعب على حدة ، فمما كادت ثمرة هذا الغرس ، لم يكفل هذا الفكرة

(١) محمد شفيق غريال : من زلوية للقاهرة ، ط ١ ، للدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٧٦ .

(٢) انظر فى هذا :

1 - Smith, Islam in Modern History. P. 48.

٢ - توفيق الطويل : الفكر الدينى الحديث ، دراسة ضمن كتاب (العرب والعلم فى

عصر الاسلام الذهبى) ، ط ١ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٦

٣ - محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته ، ط ١ ، مكتبة الأنجلو

المصرية ، القاهرة ، د.ت ، ص ٣٠ .

التكثّل الإسلامى أى تعزيد ، ولم يتح لها فرصة الوجود ، فما بالك بأثر هذا بالنسبة للإسلام كنظام عقائدى ؟!

لندع شهود عدل ، من أكثر مآحيه ومقرظيه ، يتقدمون بشهاداتهم ...
يقول " إقبال " :

" ... لعل أول مسلم أحس بإلحاح روح جديدة فيه شاه ولى الله الدهلوى ، ولكن الرجل الذى أدرك تمام الإدراك أهمية هذا العيب وفداخته وكان دقيق البصر بالمعنى العميق لتاريخ الفكر والحياة فى الإسلام جامعا الى ذلك أفقا واسعا نشأ عن خبرته الواسعة بالرجال والأحوال ، خبرة تجعل منه همزة الوصل بين الماضى والمستقبل ، هو جمال الدين الأفغانى .

ولو أن نشاطه الموزع الذى لم يعرف الكلل ، اقتصر بتمامه على الإسلام بوصفه نظاما لعقيدة الإنسان وخلقه ومسلكه فى الحياة ، لو أنه اقتصر على ذلك لكان العالم الإسلامى أقوى أساسا من الناحية العقلية مما هو عليه اليوم (١) .
ويقول " بن نبي " :

" ... لقد كان جمال الدين - إلى جانب إنه رجل (فطرة) - رجلا ذا ثقافة فريدة اعتبرت فاتحة عهد " رجل الثقافة والعلم " فى العالم الإسلامى الحديث ، ولعل هذه الثقافة هى التى دفعت الشبيبة المثقفة على أثره فى اسطنبول وفى القاهرة وفى طهران ، وهى الشبيبة التى سيكون من بينها قادة حركة الإصلاح . ولقد شاعت الأقدار أن تجعل من هذا الرجل فى التاريخ الشاهد الصالح ، والحكم الصارم على مجتمع انتهى فى هدوء إلى الانحلال ، بينما أخذ الاستعمار يستقر على أرضه .. وأيا كانت وجهة الامر فان دور " جمال الدين " لم يكن دور مفكر يتعمق المشكلات لينضج حلولها ، فإن مزاجه الحاد لم يكن يسمح له بذلك ، لقد كان قبل كل شئ مجاهداً .. وكان من فائدة هذا النشاط - أى نشاط جمال الدين - إنه فجر المأساة الإسلامية فى الضمير المسلم ذاته .

(١) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، ترجمة : عباس محمود ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١١١ .

ولكن يبدو أن استيفاء هذا الضمير بما احتوى من مأساة لم يكن جزءاً من خطة منهجية وضعها جمال الدين . . . بيد أنه إذا لم يكن جمال الدين قائداً أو فيلسوفاً للحركة الإصلاحية الحديثة ، فقد كان رائداً ، . . . حين جهد في سبيل إعادة التنظيم السياسي للعالم الإسلامي ، وأن كان قصد بذلك التنظيم ، تنظيم جموع الشعب وإصلاح القوانين دون أن يقصد إلى إصلاح الإنسان الذي صاغه عصر ما بعد الموحدين .

لقد أدرك جمال الدين بصادق فطنته ما أصاب مجتمعه من عفونة وفساد ، فاعتقد أنه بدلاً من أن ينصرف إلى دراسة العوامل الداخلية التي أدت إلى هذا الوضع ، يستطيع أن يقضى عليه ، بالقضاء على ما يحيط به من نظم وقوانين^(١)

(١) بتصرف يسير ، عن :

مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة : عبدالمصبور شاهين ، ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، صص ٥٠ - ٥٣ .

الفصل الثاني

الحرية .. والديموقراطية

- مدخل
- معاني الحرية لدى جمال الدين
- مفهوم السلطة .. والأمة
- مفهوم الدستور .. والحكم :
- # الحكم الجمهوري
- # الحكم النيابي الدستوري
- # رأيه في الأحزاب السياسية
- # مفهوم الحكم بين فكرة
- " المستبد العادل " ، ونظرية " الحكم الإلهي "

مدخل :

اصطدم جمال الدين بتأثير القديم ، اصطدامه بالاستعمار ، وناله من الرجعية والاستعماريين الأذى فى كل قطر حل به . ولكنه كان راسخ الاعتقاد ، فوقف صلباً عنيداً ينود عن أفكاره لا يهالن ولا يتراجع . كان حينما حل بركناً صاخباً ، خالقاً للثورة ، يحس بالتجاوب مع الأجيال الصاعدة المفتحة ، ويتجنب الميثوس من إصلاحهم . وكان بؤرة جذب لمن حركتهم الأشجان فأحسوا بضرورة العمل الإيجابى بهدف التجديد والتغير . لهذا جاءت حياة جمال الدين مرتبطة بأفكاره ، لحد كبير ، حتى ليعد - فى نظر البعض - من أولئك الرواد الذين يجعلون من حياتهم صورة مجسمة لأفكارهم (١) .

ولئن كان الإنسان فى معظم الأحوال رد فعل لعصره ، فإنه يجدر بنا أن نتذكر فى لحظة سريعة القوى التى أحاطت بالشرق والغرب فى حياة جمال الدين ، قبل تناول آرائه السياسية .

شهدت هذه الفترة النهايات المنطقية لركود العالم القديم حين داهمته القوى التى حركت أوروبا منذ عصر النهضة : تفوقت أوروبا علمياً ومادياً وكشفت العالم الجديد وطرق المحيطات واتجهت إلى الاستعمار ، ونجحت فى تحقيق أهدافها إن لم يكن بالاحتلال السافر فبفرض النفوذ والتدخل فى الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى . كما شهدت أوروبا فى الوقت نفسه موجة من الشعور القومى ونمو الوعى الجماهيرى الذى طالب بالحرية ثم بالحياة الدستورية . ولعبت الصحافة دوراً حيوياً فى هذه التطورات الجديدة ، وكان لجمال الدين فضل تنشيطها وربطها بالقضايا العامة فى بعض البلدان التى حل بها ، وبخاصة فى مصر .

(١) - أحمد عبد الرحيم مصطفى : " أفكار جمال الدين الأفغانى السياسية " ، المجلة التاريخية

المصرية ، الصادرة عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان التاسع

١٩٦٠ - ١٩٦٢ ، القاهرة ، ص ٢١٦ .

أدرك جمال الدين خطر الاستعمار منذ نعومة أظفاره ، ولمس أساليب تغلظه في البلدان العربية ودرس الأسباب التي هيات له النجاح . ورغم أنه واحد من أشد من عرفوا عداً للاستعمار ، فإنه لم يغمض عينيه أبداً عن تفوق الغرب ، لهذا كان يميز بين الغرب ومقومته وبين من برزوا من ثلثياه من دعاة الفتح والاستعمار ، كما كان ينكص مع الناكسين إلى دورات مجد الشرق يستلهمها القوة ويوحى بها إلى من تناساها ، مشدداً النكير على الحكام الأذلاء والشعوب المستضعفة ، ومهوناً من شأن القوة المادية التي انتالت من الغرب ، ومؤكداً لسحر القوة الروحية ووحدة الأحاسيس والمشاعر ، ومنادياً بالتآخي والتقارب ، والاعتور والعدل . ولقد كان رائداً من رواد القومية في الشرق باعتبارها وسيلة لرد العدوان الغربي (١) .

وقد يبدو فيما ذكرناه أنفاً ، وما سنذكره من بعد ، من جوانب جمال الدين ، التباين الجلى ، ولا نريد تكرار ما سبق ان اوضحناه في مدخل الفصل السابق ، من أن واحدة من السمات المميزة لسمات فكر جمال الدين ، هي سمة " التناقض " (٢) . التي تبقى ملاحمها ثابتة على فكرة ، رغم ان الكثير منها يعود إلى الابتسار في تتبع التطور الفكري لجمال الدين ، ولعل هذا ذاته ، هو ما دفع بعض الدارسين إلى التأكيد على أنه يعد من إغرب الشخصيات بين شخصيات العالم الاسلامى الحديث ، وأنه شخصية معقدة التركيب متعددة الجوانب ، فقد نقرأ آراء جمال الدين العالم الدينى ، ثم آراء جمال الدين رجل عصره ، وهنا تجده يتحدث حديثاً مختلفاً بعض الشيء عن ذلك الذى رأيته من قبل ، وهكذا فمهما قرأت له من آراء ، فإن له آراء أخرى ومواقف بقدر ما فيه من جوانب

(١) أوضحنا رايانته القومية في الفصل السابق من الدراسة عن (الجامعة الإسلامية) .

فمن شاء تفصيلاً فليرجع إليه .

(٢) هو فصل : (الوحدة ، والجامعة الإسلامية) .

أو بقدر ما فيه من " شخصيات " (١) .

وتكاد الاتفاق ينعقد بين معظم الدارسين ، على إسباغ لقب " حكيم الشرق " على جمال الدين ، الذي كان له آثار بعيدة المدى في العالم الإسلامي الحديث . وليس من المبالغة القول بأن حركة التجديد التي اتبعت في العالم الإسلامي ، وأن حركات التحرر من الظلم والاستعمار في هذا العالم الإسلامي قد استلهمت جميعاً أفكاره الثورية المحددة ليس فقط في الهند وإيران وأفغانستان ، بل أيضاً في مصر وتركيا والسودان والتركستان (٢) .

كانت واحدة من الأفكار الأساسية التي حاول جمال بثها في النفوس ، هي الالتجاء إلى الماضي وأماجه ، من أجل استلهمهم أسمة ومبادئه والعمل على إحيائها ، بهدف استعادة العز والسودد من جديد ، بل إن بعض الدراسات تحدد القضية الكبرى التي لراد جمال الدين ، مفكراً إسلامياً ، إقناع الناس بها ، بأنها لا شيء إن لم تكن ضرورة العودة إلى التراث المجل ، تراث الصالحين الأوائل ، لأن كل الشرور والمفاسد التي أصابت الأمة الإسلامية إنما نتجت عن ضد هذا مباشرة : عن الابتعاد عن طريق أسلف الصالح (٣) .

ف نجد " العروة الوثقى " تقول : " المسلمون بعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا ، واخذوا من كل كمال حربي حظاً ... ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وابدعوا فيه ، وخطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ... وحصل النقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحق ومبادئه الثابتة التي دعا إليها النبي وأصحابه . وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين الغيوم العارضة ... فإنا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ، ونهوضهم

(١) عزت قرني : العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة " (عالم المعرفة) ،

الكويت ، يونية (حزيران) ١٩٨٠ ، ص ٢٣١ ، ص ٢٦٤ .

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : أفكار جمال الدين الأفغاني السياسية ، مرجع سابق ص ٢١٤

(٣) عزت قرني : الحرية والعدالة ، مرجع سابق ، ص ٢٢٨ .

إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم (١) .

ونقول عن علاج أمراض الإمة الإسلامية : " فعلاجها إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والاخذ بأحكامه على ما كان في بدايته ، وإرشاد العامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالورثة . . . فلا يحتاج القائم بأحياء الأمة إلى نفخة واحدة . . . ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة غير هذه ، فقد ركب بها شططاً (٢) .

وتؤكد " العروة الوثقى " على ارتباط الدين بالقومية فتقول عن المسلمين : " إن رابطتهم المليّة مع رابطة اللسان أقوى من روابط الجنسية ، ومادام القرآن يتلى عليهم ويعمل بأحكامه - وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه - فلن يستطيع الدهر أن ينلهم " (٣) .

وتواصل " العروة الوثقى " دورها القومي ، حتى أن البعض يرى " أثرها في العالم الإسلامي شبيهاً بأثر " اللواء " في مصر في أوائل القرن العشرين من حيث الضرب على وتر الاحساس القومي ومحاولة نفخ الخمول واليأس اللذين أشاعتهما الهزائم المتلاحقة التي أصابت الإفرقيين والآسيويين نتيجة للتوسع الغربي (٤) .

فالدين إنن مقوم أساسي تركز عليه دعوة جمال الدين السياسية . وله في تفسيره نظرات شاسعة لا تصل به إطلاقاً إلى حيز التعصب الذي حاربه بكل قوته ، خاصة وأنه لا يرى تعارضاً بين الأهداف القصوى للدين الكبير الثلاثة ، " فإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية " .

(١) "عروة الوثقى" ، بيروت ، ١٩١٠ ، ج ١ ، صص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٧٢ - ٧٣ .

المرجع السابق ، ص ٣١ .

٥- عبد الرحيم مصطفى ، أفكار جمال الدين الأفغاني السياسية ، مرجع سابق ، ص

ومن ثم يكون من الممكن اتحاد الاديان الثلاثة في المبدأ والغاية ، فيخطو
البشر نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة (١) .

والأمر الذي لا شك فيه ، إنه من بين ذلك كله فإن الجانب البارز في حياة
جمال الدين يظل في تلك الحيوية الدافقة التي لا تخمد ، وتلك الإيجابية الفعالة
التي أثرت في الكثيرين ممن أتيح لهم الاتصال به والتلمذة على يديه . وأهم من
هذا فهمه العميق لعصره وواقعته الواضحة في إدراك أسباب تفوق الغرب
وتأخر الشرق . هدفه الأساسي هو أنهاض الشرق : فهو يعرف داءه ويشخص
نواءه ، متقلبا بين الأمل واليأس بحسب الأحوال .

جمع ما تفرق من الفكر ، ولم شعث الصور ، ونظر إلى الشرق وأمله ،
ووجد أن أقتل أدواته انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد
واتحادهم على الاختلاف . وجعل علاجه جمع الكلمة . بحيث يعمل كل أمير
مسلم على ترقية شعبه ، ويقويه بالتحالف والاتحاد ، إلى أن ينضوى الجميع
تحت راية واحدة . وكان يرى تحقيق هذا الأمل بعيدا ، ولكنه ما كان يراه
مستحيلا ، بل كنان يستبشر بالضغط والعسف ويقول : " بالضغط والتضييق
تلتحم الأجزاء المبعثرة والأزمة تلد الهمة " ، و " لا رجاء في المستضعف إلا
إذا يأس ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام
الحالك .

وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق - فقد انلهمت فيه ظلمات
الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج " (٢)

وتحقيق هذا الهدف الأكبر يستلزم تنبيه الحكام من جهة ، واهتماما بتعليم
الشعب من جهة أخرى . فالحاكم ذاته لابد أن يحد من أوتوقراطية وبلجا إلى
الحكم الشورى . والشعب لابد أن يرجع إلى أحكام الدين الصحيحة ، فتغرس

(١) " خاطرات جمال الدين الأفغاني " ، جمع محمد باشا المعزومي ، ط ١ ، بيروت
١٩٢١ ، ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ ، ص ١٢٨ .

فى ناشئته مبادئ الحرية والوطنية والدين الصحيح فيرجعون إلى قواعده
الأصلية ، يأخذون بأحكامه ، وفى الوقت نفسه يسترشد العامة بمواعظه "
الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وإيقاد ميزان الخير وجمع الكلمة وبيع
الأرواح لشرف الأمة " (١) .

وتقوم بذلك كله جمعيات يشرف عليها أناس " يأخذون على أنفسهم الأمانة
عهداً " إلا يقرعوا بليل سلطان ، ولا يضغطهم الحدثان ، ولا يثنى عزيمتهم
الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب - بل قوم
يرون فى المتاعب والمكاره بنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغمم وفى نفسه
المغرم " (٢) .

وهكذا تحصر المعطيات ، ومن بينها - بل على رأسها - الدين ، فى
حوزة جمال الدين ، لتوظف توظيفاً عملياً يؤهلها لخدمة إطار عام يشملها جميعاً
- فى رأيه - هو الإطار السياسى .

وفى هذا الضوء نحاول قراءة أفكار جمال الدين السياسية وآرائه ، ولما
كانت أفكاره متناثرة ومختلطة ببعضها بعضاً مما يشكل صعوبة فى تتبعها ، فقد
فصلناها عن بعضها البعض ، وقمنا بأعادة ترتيبها لحد ما ، فى عملية تحليلية
تركيبية فى إطار بعض قضايا الفكر السياسى ، على الوجه التالى :

- معانى الحرية لدى جمال الدين .
- السلطة والأمة .
- الحكم . . . الشورى . . . والدستور .

(١) "ثغرة الوثقى" مرجع سابق ، ص ٨٥ .

(٢) خاطرات جمال الدين . مرجع سبق . ص ١٣٧ .

معاني الحرية لدى جمال الدين :

في إطار موقفه السياسي ، يستخدم جمال الدين كلمة " الحرية " بمعان متعددة . . . فتجده يتحدث عن "حرية بمعنى يقترب - لحد ما - من المعنى الليبرالي العلماني ، حيث يستخدمها في أنها مقابل " السلوك على الطريقة الأوروبية " بالمعنى السيئ لهذا التعبير ، وذلك في سياق سلبي يحمل على دلالتها . . .

فيقول في " رسالة الرد على الدهريين " : " إلا أن قبلاً من هذه الطائفة - يقصد الدهريين - عملوا في اخفاء مقصدهم الأصلي وهو الاباحة والاشتراك ، واكتفوا في ظاهر الامر بانكار الالهية وجحود يوم الدين يوم العرض والجزاء ، وقد يظن بعض ضعفة العقول ان في ذلك بسطة الفكر وسعة الحرية . . . (١) . ويقول في " العروة الوثقى " : " ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أى جنس كان تتبع الأوامر الالهية وتلبر على رعايتها ولأخذ الدماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها وتجاقي عن الاختصاص بمزايا الفخخة الباطلة ، لأمكنه ان يحوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك اتعاباً ولا يحتاج الى بذل النفقات ولا تكثير الحيوش ولا مظاهر الدول العظيمة ولا مداخلة اعوان التمدن وانصار الحرية . . . ويستغنى عن كل ذلك بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى في الديانة الاسلامية " (٢) .

ونراه في موضع آخر - ايضاً في " العروة الوثقى " - يهاجم المدارس التي شيدت على النمط الجديد والبعثات التي أرسلها المصريون والعثمانيون الى أوروبا ، ويقول عن هؤلاء الذين درسوا على الطريقة الجديدة إنهم لم ينفعوا

(١) " الروح على الهرين " ، ترجمة شيخ محمد عبده ، القاهرة ، ١٩٠٢ ، ص ٧١ .

(٢) " العروة الوثقى " ، مرجع سبق . ص ٢٨ .

بلادهم بشئ ولا اتقنوها من الفقر أو الاعتداء ولا " وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية " ، ثم يستطرد قائلاً : " نعم وجد بينهم أفراد يتفقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها في عبارات منقطعة بترء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمه أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد " (١) .

وهكذا نجد أن " الحرية " في كل هذه المواقع شئ أقرب إلى المفهوم السئ ، أو على الأقل أن إطارها إطار غير محمود .

إلا أن جمال الدين لديه معان أخرى للحرية محمودة ، يجندها وينادي بها ، والواقع أن الحرية التي كان يقصدها جمال الدين عادة ، في أغلب استخداماته ، حين يستخدم هذه الكلمة ، هي " الحرية القومية " (٢) ومظاهر الاستقلال الوطني ، سواء أكان هذا بإزاء المستعبدين الشرقيين في داخل الوطن أم بإزاء الاستعمار الأوروبي ، انظر قوله الواضح بشأن الحرية : " إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك . بل هاتان النعمتان إنما حصلت عليهما الأمم أخذاً بقوة واقتدار " (٣) .

وهكذا نجد جمال الدين يقرن الحرية والاستقلال وكأنهما شئ واحد أو شيان مرتبطان جوهرياً على الأقل .

ولو أمعنا النظر من جديد في النص السابق ، لتستشف من خلاله طبيعة تلك الحرية التي يتحدث عنها ، لتوضح معنى آخر من معاني الحرية لدى جمال الدين ، فسنجد أنه - خلال هذا النص - لا يعنى بالحرية شيئاً أكثر من " الشجاعة الأدبية " باعتبارها ركناً من أركان السلوك السياسى ، التي تدفع المرء دفعاً إلى أن يقول الحقيقة ، أو أن يعلن رأيه ، بلا خوف ولا خشية من السلطات

(١) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .

(٢) عزت قرنى : الحرية والعدالة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

(٣) خاطرات جمال الدين ، مرجع سابق ، ص ص ٩٠-٩١ ، انظر كذلك ص ١٣٥ .

القائمة . وربما كان هذا النص في " المخاطر " ، تأكيداً على نص سابق في " العروة الوثقى " بما يتضح منه بجلاء هذا المعنى للحرية ، بأنها الشجاعة الأبية ، فنجدته يقول في فقرة هامة من " العروة الوثقى " يتحدث فيها عن ضد الحرية قائلاً : " إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل في الذل ، ويعيشون من خوف العبودية في العبودية ، ويتجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفاً من الموت ، لا الدين يسوقهم الى مرضاة الله ولا الحمية الوطنية تنفعهم الى ما به فخر بنى الانسان " (١) .

ويبدو أن هذا التصور للحرية هو الذي يقف وراء تمجيده لفضائل العرب في أيام الإسلام الأولى ، يقول في " المخاطر " : " وفود العرب حملت معها - يقصد من شبه الجزيرة - اخلاقاً فضلة . . . مثل الانفة من الكذب والوفاء بالعهد ومطلق العدل وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة " (٢) . كما يؤكد على ذلك حينما يقول أن أسلوب الأوروبيين الاستعماريين ، وهم بسبيل للسيطرة على مقادير الشرق ، يقوم بين ما يقوم عليه ، على : " إقصاء كل وطني حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية " (٣) .

وأخيراً نجد جمال الدين ، في إطار انتقاده لسياسة الإنجليز في مصر بعد الاحتلال ، يتحدث عن حرية الحركة أو محض الحركة الجسمية ، بما يذكرنا على الفور بمعنى شائع من معاني الحرية ، وهو " الحرية الشخصية " يقول في " العروة الوثقى " بصدد عسف الإنجليز في مصر : " وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بآشبهه وإن ضعفت ، واتباع بواطيل التهم إن بعدت أو استحالت ، حتى أخذ الفرع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه ، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يتلفت خلفه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده إلى السجن " (٤) .

(١) " العروة الوثقى " مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٢) " مخاطر " ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٥ .

(٤) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

مفهوم السلطة .. والأمة :

وكما رأينا جمال الدين يربط مفهوم الحرية العام بالاستقلال الوطني ، نجده أيضاً يربط بين المفهوم العام للحرية - لديه - وبين مفهوم " الأمة " ، ومن خلال هذا الاقتران ، تتبين لنا " الحقوق السياسية " للأمة في رأى جمال الدين .

ويمكننا القول بأن " الحرية " التي يقصدها جمال الدين ربما كانت الترجمة العصرية للمفهوم الإسلامى الخاص " بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " ، حين يعنى هذا التعبير المشاركة الإيجابية للمؤمن في شئون الأمة الإسلامية^(١)

نقول " العروة الوثقى " : " إن الأمة التي ليس لها في شئونها حل ولا عقد، ولا تستشار في مصالحها ، ولا أثر لارائتها في منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيتها نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير ، فتعثرها السعادة والشقاء ... ويتناولها العز والذل ... فإذا كان حاكمها جاهلاً سئ الطبع ... اسقط الأمة بتصرفه إلى مهوى الخسران ... وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبوابا للعدوان . فتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الاخلاق وتخفض الكلمة ويغلب اليأس ... عند ذلك أن كان في الأمة رفق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، ولراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة " (٢) .

ويمكن اعتبار هذا النص نتيجة طبيعية لنص قبله ، سبق لجمال الدين أن أوضح فيه بأنه يعتبر " رضاء الأمة " شرط رئيسي لقيام السلطة ، يقول في " العروة الوثقى " : " الدين الإسلامى لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كفالة لهذا جاءت راقية بوضع حدود

(١) انظر : عزت قرنى : الحرية والعدالة ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ .

(٢) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

المعاملات بين العباد وبيان الحقوق عليها وجزئيتها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، وإن ينالها بورائة ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية وثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند احكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضاء الأمة . فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية التي لا تميز بين جنس و جنس واجتماع آراء الأمة " (١) .

ويتضح من النص السابق أن جمال الدين إنما يتكلم عن سلطة محددة بالذات ، هي " السلطة الزمنية " . إذن ، فهل يمكننا القول - الى حد ما - بأن جمال الدين يتكلم عن فصل السلطات ، ويعبر عن فصل الدين عن الدولة ؟
يقرر بعض الدارسين في حسم ، بأن جمال الدين كان يرى أن لا غنى للشعوب عن سلطتين : زمنية و روحية (٢) .

فهل ثمة ما يؤيد ذلك لدى جمال الدين ؟

الواقع ان الوقائع ، والوقائع هنا نصوص واقوال ، تؤكد ذلك من خلال النصوص الثابتة .

لنقرأ في " المخاطر " ، وهي تمثل نهاية تطوره الفكري طوال حياته ، نصاً صريحاً وواضحاً بما لا يدع مجالاً للبس أو تأويل : " ليس من خطأ أراه أكبر من مس كرامة دين لمجرد عمل يأتيه فرد من تابعي ذلك الدين . واعتقد ان الهيئة البشرية لا يمكنها ان تستغنى عن سلطتين : زمنية ، و روحية .
كلتا السلطتين ترمى إلى غاية واحدة في الجوهر والاصل . نعم - يمكن ان يطرأ على إحداها خلل ليس في أصل الوضع ، فهذا الخلل يجب العمل على اصلاحه والوقوف بوجه من أخل وارغامه على الرجوع إلى الأصل (٣)

(١) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) انظر في ذلك : احمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧٢ ، ص ص ٢٠ - ٢٢

(٣) مخاطر جمال الدين " مرجع سابق " ص ٢٦

ويتابع جمال الدين حديثه بعد تلك ، تفصيلا عن كل سلطة على حدة ، كما يبين ذلك من متابعة النصل على النحو التالي ، على أننا ينبغي أن نلتفت الى ملحوظة هامة ، وهى ان جمال الدين فى بداية حديثه - التالى - يقرر مبدأ من الأهمية والخطورة بمكان ، مؤداه ان الامة - اى الشعب - مصدر السلطات .

تقول الخاطرات " مستطردة بعد ما سبق : " السلطة الزمنية بملكها لو سلطاتها انما استمدت قوتها من الامنة لاجل قمع أهل الشر وصيانة حقوق العامة والخاصة وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الامن وتوزيع العدالة المطلقة - الى آخر ما فى الوازع والسلطان من المنافع العامة . اما إذا اودعت هذه السلطة بيد رجل غر جاهل علت لكتفه قوم من فاسدى الاخلاق مجهولى الاعراق يلعبون بالمسلط كيف يشاءون ثم يحتجزون على الشعب بقولهم " مشيئة الملك قانون المملكة " - هذا القول على تلك الحالة مما يجب على الامة وقوفها تجاهه وان تقاومها بما لديها من قوة . لان الحق فى هذا ان ارادة الشعب غير المكروه وغير مملوب حريته قولاً وعملاً هى قانون ذلك الشعب المتبع والقانون الذى يجب على كل حالم ان يكون هادماً له اميناً على تنفيذه . وكل شعب تلعب به الاهواء ويتفرق شيعا وطوائف وتستحكم من افراده محبة بالذات والانانية فيتجرون باسم الامة تجاه الفرد المسلط ويستنزفون ثروة المجموع ارضاء له لينالوا بلغة من عيش - فمثل هذا الشعب يكون كالأنعمام السائمة أو أضل سبيلاً .

" كذلك القول فى السلطة الروحية - واعنى بها ما لكل دين من النفوذ المعنوى على من يدينون به ، وهى فى بعض مواقفها أنفذ من قوة السلاطين ويقتطع الشرطة وعند الحاكم على منصة قضائه ، واقبل مما ينفذه فى بعض الاحيان من القصاص على بينات قد تكون اخطأت مجرماً واصابت بريئاً . إذ تمكن الدين بحقيقة من نفس وضلت عن مراقبة السلطان الزمنى ، فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه احد ، وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم الزمنى ان يقتص منه اما واذا انحرفت وتحرفت

هذه السلطة المعنوية عن مواضعها واختل جوهر وضعها الأصلي ، وجب عندئذ الوقوف تجاهها والعمل لكل قوة لارجاعها لأصلها " (١) .

مفهوم الدستور . . والحكم :

موقف جمال الدين من الاستبداد ، والحكم الاستبدادي ، يعد من المواقف الأساسية له في السياسة واسهاماته فيها ، وهو يعد من المواقف القليلة ، التي تميزت بسمة الثبات الفكري لديه طوال حياته .

وبهنا هنا الاشارة الى مقال هام له في هذا الصدد ، وتأتي أهمية هذا المقال من أنه يعد أولاً من أوائل مقالاته ، في الترتيب الزمني والتاريخي عبر التطور الفكري لجمال الدين ، وثانياً لأنه يكاد يكون مما لم يلتفت إليه أحد ، او ربما لم يعلم به أحد ، فلم تبدر أية اشارة له ، ولو عابرة ، على الرغم من خطورته وأهميته ، ربما جرياً على وتيرة الابتسار والاقتصار لفكر جمال الدين ، تنقيحاً لفكره معينة ، او انتصاراً لمذهب معين ، او ربما اكتفاء بما يقع تحت اليد من الوقائع دونما سعي دقيق وراء الحقيقة .

والمقال بعنوان (الحكومة الاستبدادية) (٢) ، تحدث فيه عن : " طول مكث الشرقيين تحت نير المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشئ عن تضاد طبائعهم وسوء تربيتهم مع وجود رادع يردعهم ، وممانع يمنعهم وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم ، سبباً أوجب التناول على رعاياهم وسلب حقوقهم . . . أريدنا أن نذكر في مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

(١) خاطرات جمال الدين ، مرجع سابق ن ص ص ٣٦ - ٣٨ .

(٢) عن العدد ٣٣ من جريدة " مصر " الصادرة بالاسكندرية في ٢٢ صفر سنة ١٢٩٦ هـ - ٦ فبراير سنة ١٨٧٩ م . وقد نشره الأستاذ محمود أبو رية في كتابه (جمال الدين الافغانى) الصادر عن دار المعارف ، ١٩٧١ ، سلسلة نوابع الفكر العربي العدد ٢٩ ، ص ص ٨٣ - ٨٩ ، كما أورده د. عزت قرني في كتابه (الحرية والعدالة في فجر النهضة العربية الحديثة) ، مرجع سابق ، ص ٢٧٩ . اما فيما خلا ذلك فلم يرد له أي ذكر ، حتى ولا فيما سمي (الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى) ؟

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية ، واقتيمها الحقيقية التي هي عبارة عن : أمير ، أو سلطان ووزراء ، ومأموري إدارة وجباية ستقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : منها - الحكومة القاسية وهي التي تكون أركانها - مع - اتسامهم بسمة الامارة والوزارة والإدارة والجباية - شبيهة بقطاع الطريق،...
القسم الثاني : الحكومة للظلمة ، ولولياء هذه الحكومة تماثل الاخساء والمترفين ، الذين يستعبدون لئسأ خلقوا أحراراً - ...
القسم الثالث : - الحكومة للرحيمة وهي تنقسم إلى قسمين :

القسم الاول :-منها الحكومة للجاهلة ودعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل - يحث أبنائه على اقتناء الأموال واكتساب الثروة واستحصال السعادة والاقتصاد في المعيشة بدون أن يتبين طرقها ويمهد لهم سبلها لعدم علمه بها ..
القسم الثاني : الحكومة العالمة وقد قسمها إلى قسمين ، شبه القسم الاول بالأب العالم المألوف وإطال في وصفها ، ثم تكلم عن القسم الثاني من هذه الحكومة وسماها الحكومة (المتنطسة) ، واساطينها الحكماء وقال إنها تضارع الأب المتبصر المتبصر الذي لا يبرح ساعياً في إعداد الأسباب الموجبة لسعادة أبنائه . وبعد أن اقاض جمال الدين في بيان ما يجب ان يكون على الحكومة العادلة وجه خطابه إلى الانسان الشرقي قائلاً :

يا أيها الانسان الشرقي ، صاحب الأمر والنهي هناك حكومة رحيمة حكيمة فعليك بها والقيام بشأنها وحفظ واجباتها - والا فبحياتك التي افتديها براحة العالم ان (تعفونا) من تحمل تشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والقطنة !
أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر ، وتغتصب حقوقنا ونجازيك بالشاء ؟ او تظن أنك تقدر ان تغر كل العالم وتعمى بصائرهم ، وان تنزل بباطلك عندهم منزلة الحق ؟ وأن تجلس بجورك مجلس العدل ؟ وان تقيم سيناتك مقام الحسنات ؟ وان تقعد ذاتك مقعد الفضائل ؟ ولعلك اغتررت بتمجيد وتعظيم المبصيصين ! وتبجيل المترلقين !

ولو كنت تعلم مقامك من النفوس ، ومنزلتك لدى أرباب البصائر والعقول ،
لودعت هذه الدنيا الخؤون آتني الهتك ، وفارقت حياتك العزيزة التي طالما
افتكيتها بالمرؤة والانسانية .

أما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبكم ولا أنكركم بواجباتكم ، فإنكم قد أفتتم
الذل والمسكنة ، والمعيشة الدنيئة واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف .
صرتم كالعجائز !! لا تقدرّون على الدراء والاقدام ، والدفع والمنع والرفع
فإننا لله وأنا إليه راجعون (١) .

ظلت الأسس والمبادئ التي آمن بها جمال الدين في تلك المقالة ، ملازمة
له وموجهة لموقفه من الاستبداد طوال حياته ، حتى عرف جمال الدين بأنه كان
من أشد أهل عصره معارضة للاستبداد وأكثرهم جسارة واقصاحا في كافة
مواقفه منه (٢) ، والاستبداد هو ضد رضاء الأمة ، لأنه حكم الفرد بدون
اشتراكها ، ولأن ذلك يعنى عند جمال الدين حكم الفرد الظالم المستغل .
وينبغي أن نتذكر هنا أن جمال الدين كان متعلقاً بالفعل بفكرة الدستور ،
وأنه رأى فيها المقابل الأوروبي لفكرة الشورى الإسلامية ، حتى أن معاني كلمة
الشورى لديه تكاد تصب كلها في فكرة الدستور الأوروبية (٣) .

أما عن تعلقه بالدستور ، فقد قدم بنفسه مشروعاً دستورياً لفارس ، " لتكون
حكومة ملكية شورية ، فما أتم قواعد الدستور الكلية ، وأطلع عليه الشاه ناصر
الدين ، إلا وأعظم الأمر ، إذ رأى حكمه سيكون مقيداً وأن أهل فارس يكونون

(١) حذفتنا من المقالة بعض الشيء ، واكتفينا بما يفيد الدلالة على الأسس والمبادئ والأفكار
الأساسية التي يهدف إليها جمال الدين .

(٢) بالإضافة إلى المقالة الهامة السابقة ، راجع :

" العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٢١ ، ١٤٥ ، ٢١٠ - ج ٢ ، ص ١١٠ ،

١٣٢ ، "خاطرات جمال الدين الأصفهاني" ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(٣) أنظر : عزت قرني : الحرية والعدالة . . . مرجع سابق ، ص ص ٢٤٥ - ٢٥٠ .

لوسع سلطة من الشاه بمجلسهم النيابي . . . " وفي بقية الحديث ما يدلنا بوضوح على جسارة جمال الدين اللامتناهية . فيقول الشاه لجمال الدين : " أصبح أن أكون ياحضرة السيد ، وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين؟ فقال جمال الدين : أعلم ياحضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري أعظم وأنفذ وأثبت مما هم الآن . والفلاح والعامل والصانع في المملكة ياحضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن إمرائك . واسمح لإخلاص أن أؤديه صريحاً قبل فوات وقته . لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون أمة ورعية ؟ " . . . " ويقال إن المصدر الأعظم وشي بجمال الدين عند الشاه قائلاً : " إن ما سنه جمال الدين من القوانين ، لا يفيد البلاد شيئاً ، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه ، ويعطيه إلى السوق والفلاحين " (١) .

هذا وقد استخدم جمال الدين كلمة " الشورى " على نحو يقرب ما بين فكرة الدستور وفكرة الحكم للشورى ، ففي " المخاطر " ، نجد حواراً بينه وبين الخديوي توفيق ، ينصح فيه جمال الدين الخديوي بحكم البلاد على طريق الشورى ، ويفضل ذلك بما يفيد معنى " الحكم الدستوري " (٢) ، كما يذكر في موضع آخر أن جمال الدين قال مرة عن مقابلة له مع السلطان عبد الحميد : " رأيت من السلطان ارتياحاً لقبول كل ما نكرته له من محاسن الحكم الدستوري وأن الأسلام أول من عمل به في سلطانه (أي الحكم الشورى) ، وذلك عملاً بحكم النص : " وأمرهم شورى بينهم " (٣) . فيظهر من هذا القول أن الشورى تعنى عنده الحكم الدستوري .

(١) لاحظ " المخاطر " ، مرجع سابق ، ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) " مخاطر " مرجع سابق ، ص ٤٦ . ومذكر نص الحوار فيما بعد خلال حديثنا عن

" الحكم النيابي الدستوري " .

(٣) " المخاطر " ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

على أننا نجد معنى مخالف لكلمة " الشورى " فى استخدام جمال الدين لها فى سياق آخر ، حيث يقول : " إن تدبير الممالك ، وصونها من سلطان أو ملك يطغى بقوته بالحكمة وحسن الرأى وأصول الحكومة الشورية والمشاورة ودعوة الأمة للتداول ، وظائف الملوك ... كل ذلك مسطور فى القرآن ، فى سورة النمل بأصرح عبارة وبآيات وجيزة " (١) فيها هنا نجد ان الشورى لا تعنى عند جمال الدين إلا محض " المشاورة " أو المناصحة ، أو التداول ، أو طلب الرأى لا أكثر وبلا لزام .

على ضوء هذا كله ، فما هو إذن بديل الاستبداد فى الشرق ؟
هل هو الحكم النيابى الدستورى ؟ هل هو الحكم الجمهورى ؟
ام يبدو أن لا هذا ولا ذاك ، لدى جمال الدين ؟!

الحكم الجمهورى :

لما عن موقفه من الحكم الجمهورى ، فلنذكر ملحوظتين قبل مواجهة نصوص جمال الدين :

الأولى : إن جل من تعرضوا لموقف جمال الدين من الحكم الجمهورى قد استلوا بنص واحد بعينه ورد فى " الخاطرات " ، ولم يروا غيره مما يمكن الاعتماد عليه فى هذا الصدد .

وعلى هذا يجمعون على معارضة جمال الدين لهذا اللون من الحكومات ، أى ان البديل للاستبداد - لديه - لا يمكن ان يكون الحكم الجمهورى ، والدليل على ذلك على هذا الموقف الصريح (٢) - المقصود هنا موقفه فى " الخاطرات " - الذى يوضح رأيه من ان الحكم الجمهورى حينئذ لا يصلح للشرق ولا لأمله (٣).

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٢)، (٣) أنظر على سبيل المثال : عزت قرنى " الحرية والعدالة " ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وكذلك احمد عبد الرحيم مصطفى : تفكر جمال الدين الافغانى السياسية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

الثانية : إن ثمة نصاً آخر ، سابقاً على " الخاطرات " تاريخياً ، تحدث فيه جمال الدين عن الحكومة الجمهورية ، ونعني به مقالة (الحكومة الاستبدادية) المنشورة في جريدة " مصر " والسابق ذكرها .

وأياً كان موقف جمال الدين ، على ضوء هذه المقالة ، سواء معضداً لمعارضته للحكم الجمهوري - كما رأى معظم من تعرضوا لموقفه هذا ، معتمدين على " الخاطرات - ، أم أتى على التقيض تماماً من ذلك مؤيداً لهذا الحكم ، كما رأى البعض ، ^(١) إلا أن أحداً لم يلتفت لهذا النص على أهميته ، كما ذكرنا من قبل .

والآن لنرى بماذا تتبيننا النصوص ..

(١) يقول جمال الدين في مقالة (الحكومة الاستبدادية) التي نشرت سنة ١٨٧٩ ، ويغلب أنها في أصلها كانت حديثاً ^(٢) ، : " إن طول مكث الشرقيين تحت نير المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشئ عن تضاد طبائعهم وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع يردعهم ، ومنايع يمنعهم ، وقوة خارجية تصانهم في سيرهم - سبباً أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم ، بل اقتضى التصرف في غرائزهم وسجاياهم ، والتغير في فطرتهم الانسانية حتى كانوا لا يميزون بين الحسن والقبيح ، والضر والنفع ، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انتطوت عليه من القوى المقدسة ، والقدرة الكاملة ، والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة ، والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات ويطعي أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات - وأن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة ، وتستوجب المحو التام والذهو المتفرق ، بل تستدعي التنزل إلى التربة الحيوانية - وماومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الإنسان ، وتعلمه بواجباته ، وما

(١) محمود أبو ريه ، كما سيتضح ذلك .

(٢) سبق الإشارة إليها ، وقد نشرت في جريدة (مصر) مرجع سابق ، في فبراير ١٨٧٩ .

يلزمه فى معاشه ، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل فى الهيئة الاجتماعية وتمكنه من دفعها والسعى فى إطفاء نورها بما ورثوه عن آباءهم من سفه القول، وسخف الراى ، والجد فى اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما أوقعهم فى ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبداً .

كل (١) هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بين شرقى فى البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية ، وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها وأن المسوسين بها أعلى شأنًا ، وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت الاسم بون من عداهم

فى رأى الأستاذ محمود أبورية ، وهو يعد ، فى رأينا ، أول من تنبه لهذا النص وقام بنشره فى كتابه عن جمال الدين ، أن هذا النص يعد تعبيراً جيداً ودامغاً فى آن عن موقف جمال الدين المؤيد لفكرة " الحكومة الجمهورية " والمنادى بها . وبهذا الموقف يقف الأستاذ أبورية على طرفى النقيض تماماً مع من تعرضوا لموقف جمال الدين بهذا الصدد معتمدين على " المخاطر " وحدها .

يقول الأستاذ أبورية فى تقديمه للنص : " لما أخرج السيد جمال الدين من الآستانه مرغماً فى زيارته الأولى لها - بكيد رجال الدين فيها وجاء الى مصر يحمل فى نفسه المتقدة غضبا ومقتاً وبخاصة مما رآه هناك من بغي وظلم وغدر الحكم الاستبدادى الذى كان يسود البلاد حينئذ ، اتبرى قلمه البليغ فحبر هذه المقالة الرائعة التى لم يكتب مثلها فى وصف الحكومات الاستبدادية ولفاسستها

(١) هكذا تسترسل الفقرات فى الاصل ، ولكن الأستاذ محمود أبورية فى كتابه (جمال الدين الاغتلى) ، مرجع سابق ، يضع عنواناً جانبياً فوق هذه الفقرة بعنوان (مزايا الحكم الجمهورى) ، وهذا من غدياته هو ، وليس فى الاصل

وفلسفتها وعلو اسلوبها رأينا ان نأتى بها هنا على طولها الا قليلا عنها ولا غرو فان السيد قد قضى حياته كلها يحارب - فيما يحارب - الظلم والطغيان فى اى مكان وكان دائما يسعى الى الحكومة الجمهورية : (١) .

وبدا بعد ذلك فى نشر نص المقالة ، إلى أن وصل إلى بداية الفقرة الأخيرة فى النص السابق والمخطط تحتها - التخطيط من عندى وليس فى الأصل - حتى رأيناه يضع لها عنواناً مستقلاً جاتياً فوقها باسم (مزايا الحكم الجمهورى) ، ثم أورد الفقرة إلى أن وصل إلى عبارة " الحكومة الجمهورية " حتى وضع لها هامشاً أسفل الصفحة ، يقول فيه : " هذا اوضح دليل على أن السيد جمال الدين كان يسعى إلى الحكومة الجمهورية وهو أول من دعا إلى ذلك " (٢) .

(٢) أما النص الثانى فقد ورد فى " المخاطر " بما يعبر عن الموقف الأخير عبر التطور الفكرى لجمال الدين (٣) .
تحت عنوان : (رأيه فى مصر والمصريين وصورة الحكم الذى يجب ان تحكم فيه مصر خصوصا والشرق عموما)

نقول " المخاطر " ، بعد الحديث عن ان جمال الدين كان محبا لمصر والمصريين ، شديد الارتباط بهم ، وعن أسفه على ما آل اليه أمرهم ، ما نصه :
" وكان يقول : كأن القوة الفرعونية اخذت على "دهر عهدها ان لا تترك وادى

(١) محمود ابورية : جمال الدين الافغانى ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

من الثابت ان كتاب " المخاطر " قد كتبت مواضعه فى الفترة ما بين سنة ١٣١٠ هـ

١٨٩٢م ، الى ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧م . وكنت وفاة جمال الدين فى سنة ١٨٩٧م .

ذلك : التمييز ، الذى كتبه " محمد باشا المخزومى " لكتابه : " مخاطر

"افغانى " الحسينى " .

النيل ، فكلمنا قضى فرعون نَقَمص بآخر ، وكلما انقرضت عائلة فرعونية ادعت لارثها عائلة ، وجاءت ولو من وراء البحار والتصقت بالنسب الفرعونى ولو بأقل مشابهة ، من خلق الغطرسه والتأله على الناس • وكثيرا ما كان يردد " فاستخف قومه فأطاعوه " ••• ويقول :

عجيب هو نصيب المنتصر لمصر وللمصريين ، لذا مكث بين ظهرائهم ، فموسى خرج منها خائفا يترقب ، متهما موسى به من مظلوم نصره على ظالمه • وفرعون معبود فيها ، ويوسف الصديق زج فى السجن متهما وهو لم يأت الفاحشة •

نعم ، فى النتيجة حصص الحق وزهق الباطل • ولسوف تخلص مصر لأهلها اذا هم عملوا بالحزم ، وهينوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى • ولسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط ، والمعك بالخناق ، واذا ما فعلوا واجتمعت الكلمة ، وتوحدت الاهواء نحو الغاية ، حصل اليأس • واذا لم يضعوا هذا اليأس بينهم بسوق التحاسد ، او بفعل الدساتس ، قل تم الامر وفاز القوم ، ودخلوا فى دور الحياة الصحيحة •

لا تحى مصر ، ولا يحى الشرق بدوله واماراته ، الا اذا اتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً ، يحكمه بأمله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان • لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ولا عدل الا مع القوة المقيدة •

وحكم مصر بأهلها ، انما اعنى به ، الاشتراك الاهلى بالحكم الدستورى الصحيح • ثم قال :

اذا صح ان من الاشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الاشياء (الحرية) و (الاستقلال) • لأن الحرية الحقيقية ، لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك •

بل هاتان النعمتان ، انما حصلت عليهما الأمم ، أخذاً بقوة واقتدار ، يجبل التراب منها بدماء ابناء الأمة الأمناء ، لولى النفوس الأنيية ، والهمم العالية • اما تغيير شكل الحكم المطلق ، بالشكل النيابى الشورى ، فهو ايسر مطلباً واقرب منالاً ، اذ يكفى احياناً ، ارشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ، فيفعله

ويشرك أمته ورعيته ، ويرى بعد التجربة راحة ، وتضامنا على سلامة ملكه ، وعزة بالتفاف طبقات الرعية حول عرشه ، بقلوب خالصة مخلصه ، وحب صميمي . فيكون للملك الدستوري عظمة الملك ، وعلى نواب الأمة اعباء نواب المملكة ، وبراء المفاصد عنها ، والذود عن سلامتها ، بالأموال والأرواح .

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكم عقله فأرشده الى استبدال مطلق الملك، بالملك الشورى ، فاستراح ولراح .

وهذا هو الشكل من الحكم الذى يصلح لمصر ، ولدول ، وامارات الاسلام فى الشرق . ويتوضيح واقصاح :

لا يسلم على الغالب ، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الامر ، كلما صانحه مجلس الأمة بآرائته ، او غلبه على هواه .

لذلك قلت : اذا اتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق ، يحكمه بأهله . ذلك الرجل اما ان يكون موجودا ، او تأتى به الأمة ، فتملكه على شرط الأمانة، والخضوع لقانونها . الاساسى ، وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه انه يبقى التاج على رأسه ، ما بقى هو محافظاً ، أميناً على صون الدستور ، وانه اذا خنت بقسمه وخان دستور الأمة ، اما ان يبقى رأسه بلا تاج ، او تاجه بلا رأس . هذا ما يحسن بالأمة فعله اذا هي خشيت من امرائها وملوكها عدم الاخلاص لقانونها الاساسى ، او عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قابلاً وقالبا . وإلا فالأمير الصالح القريب ، أولى من البعيد الخريب .

اما الحكم الجمهورى فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأمله . (١) .

خاطرات ، مرجع سابق ، ص ص ٨٩ - ٩٣ .

الحكم التيايى الدستورى :

وأول ما يلتفت انظارنا بهذا الصدد أيضا ، ان ثمة نصا واحدا لجمال الدين ورد فى " المخاطر " ، يشكل أساسا يعتمد عليه جل من تعرضوا لموقف جمال الدين بصدد هذا اللون من الحكم .

وينبغى الالتفات الى انه ليس ثمة اجماع فى الآراء هذه المرة ، بل تتفاوت الآراء على طرفى النقيض باختلاف رؤية الدارسين لموقف جمال الدين واعتباره مؤيدا ، او معارضا لقيام هذا النمط من انماط للحكومات .

وكذلك نلاحظ ان النص لم يرد بأكمله ابداء ، فكل دارس يكتفى باقتطاع ما يراه ملائما من العبارات او الفقرات ، فيوردها مؤيدة لرؤيته ورأيه فى موقف جمال الدين .

لذا عولنا على ان نأتى بالنص بأكمله ، ثم نردفه بعرض بضعة من الآراء ، والتي نراها ممثلة لكافة الاتجاهات بصدد تقييم موقف جمال الدين من خلال هذا النص . . .

نقول " المخاطر " بعد حديث طويل عن المحافل الماسونية ، وصلة جمال الدين بها ، وأحداثها حركة عنيفة مستهجنة من الناس ، ان الخديوى توفيق باشا ، ترد فى قبول جمال الدين زائرا ، ولكن بعد تلك " حركة اسرع فى إستزارة جمال الدين ، فذهب بعد مماطلة ايام ، وتمثل لدى الحضرة الخديوية وبعد تلطيف وتجميل من الخديوى قال لجمال الدين ما معناه : " اننى احب كل خير للمصريين ، ويسرنى ان ارى بلادى وابناءها فى اعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الاسف ان اكثر الشعب خامل ، جاهل ، لا يصلح ان يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون انفسهم والبلاد فى تهلكه " .

رأيه في المجلس النيابي (١) .

قال جمال الدين مجاوي : ليعلم لي سمو امير البلاد ان اقول بحرية ، واخلاص ان الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده ، ولكن غير محروم من وجود العالم والعامل ، فبالنظر الذي تنظرون به الى الشعب المصري واقراده ينظرون به لسموكم وان قبلتم نصيح هذا المخلص واسرعت في اشراك الأمة في حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين ، وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم " هذا اهم ما جرى في هذه المقابلة التي كان فيها سمو الخديوي غير راضى واسر في نفسه البطش في جمال الدين ولكن لم يظهر له شيئا من ذلك .

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوي ومضى الى تنفيذ خطته في المحفل الماسوني واخذ يخطب خطبا تستفز الخامل وتوقظ الغافل وتصير الجبان شجاعا ، والرعديد اسدا ضاريا ، وأشار على تلامذته ومريديه بنشر القصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من المصريين . وكان في مقدمة من كتب الأبناء السوريون وفي مقدمتهم المأسوف عليه (اديب بك سحق) . وعلى اثر ذلك بدأت الحركة الفكرية الوطنية في الظهور ، واخذت الحكومة تحاطب تلك الحركة ، وتعامل الوطنيين ، وتتقرب من الشعب بالمواعيد الحسنة ، وحسن النية ، من انالتهم مجلسا نيابيا اذا هم حافظوا على السكينة ولم يفرطوا في المطالب الوطنية .

فطلب الاحرار من جمال الدين ان يضع خطة للمجلس النيابي المصري العتيد ، وبيانا واضحا للشعب كي يسير بمقتضاه نحو انتخاب نوابه فقال : (٢)

(١) هكذا في الاصل .

(٢) يبدو ان هذا نص آخر ، غير النص السابق والخاص بمقابلة جمال الدين للخديوي توفيق ، وان ثمة فترة زمنية تفصل بين النصين ، يؤكد هذا اسلوب السرد التاريخي في "فترة السابقة مباشرة" . الا ان السياق في الاصل يستعمل على هذا المنوال، ولم يشر -

أيها الاخوان : ان القوة النيابية لأي امة كانت لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقي الا اذا كانت من نفس الأمة ، وان مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك او امير وقوة اجنبية محركه لهما ، فاعلموا ان حياة تلك القوة النيابية الموهومة ، موقوفة على ارادة من احبها •

فعزة الملك ينغصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصا اذا هو صادم ارادة ماله او اميره ، والتاريخ لم ينقل لنا ان ملكا او اميرا او دخيلا بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكا اسما ، وامته هي المالكة فعلا ، وزمام امورها على مطلق المعنى ، واعظم امتى الشعوب المملوكة ، التملص من ربة الاجنبي وتحكمه •

ثم قال : سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابي المصري ، سيكون ولا شك بهيكلة الظاهري مشابهة للمجالس النيابية الاوروبية ، بمعنى ان اقل ما سيوجد فيه من الاحزاب ، حزب للشمال وحزب لليمين • ولسوف ترون اذا تشكل مجلسكم ، ان حزب الشمال لا اثر له في ذلك المجلس ، لأن اقل مبادئه ان يكون معارضا للحكومة ، وحزب اليمين ان يكون من اعوانها •

قال : تستغربون قولي هذا اليوم ، لأن ما نبحث فيه هو امر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد ، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل ، ورأيتم كل عضو يفر من ان يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراراه من الاسد الى حزب اليمين " اذ ذاك تقولون : صدق جمال الدين " •

نعم اكون صدقت ، ولكن ليس في هذه الفراسة ، وفي صدق التصور للتصديق اننى فضيلة ، اذا رجعت وعلمتم ، ان المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة • فمقدمات مجلس نيابي ، قوته المحدثه له ، خارجة عن

- " المخزومي " كاتب الخاطرات ، اية اشارة توضيحية بهذا الصدد • ويتلب ان يكون هذا النص خطبه ، لاحظ اسلوب الالتقاء •

محيط الأمة ، والمحدث له ، قوة خارجة عن الأمة ومجلسها ، يعارضها منافع متضادة ، وهدفان مختلفان ، فمثل هذا المجلس لا قيمة له ، وكما انه لا يعيش طويلا كذلك لا يغنى عن الأمة قليلا .

ثم قال ضاحكا ضحكة متألم : سترون ان الذى سيكون نائبا عن شعب لا اعد مصائبه ، ولا انواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها ، هو الذى كان آله صماء ، بيد تلك القوة التى عملت على وصول وطنه ومواطنيه ، الى ما وصلوا اليه .

تعرفونه اذا شتم ان تتفكروا قليلا . وان شتم وصفه فأنا اقول لكم : نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهينات مصركم فى زمانكم هو : ذلك الوجيه الذى امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم اسقط منه همة ، ذلك للرجل الذى لا يعرف لايراد الحجة ، تجاه الحاكم الظالم معنى ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل الذى يرى فى ارادة القوة الجائزة ، كل خير وحكمة ! ويرى فى كل دفاع عن وطنه ، ومناقشة للحساب ، قلة ادب ، وسوء تنبير !! وعدم حنكة ! وتهورا ! "ى يرى ، ان كل صفات العزة النفسية ، والمقومات الأهلية القومية ، مآلها التويل والثبور .

وكل ما يدعو الى الذل ، واحتقار القومي ، وسحق ما تنمو به حرية الأمة ، هو من مجالى حكمته العصرية !! .

هذا مع الاسف الذى اراه سيتكون منه مجلسكم النيابى الموهوم - اذا صحت الاحلام - والذى سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفة ، اقرت على ان الوجود خير من العدم ، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده . (١)

كان هذا هو النص ، الذى يعد بصفة اساسية معبرا عن موقف جمال الدين الحكم النيابى الدستورى .

١، الاسترسال فى العرض ، نتوقف قليلا . .

مال الدين " ، مرجع سابق ، ص ص ٤٦ - ٤٩ .

- نلاحظ أولا ، ان هذا النص ، يكاد يكون عدة نصوص مدمجة ، او مؤلفة ، ويبدو نصا واحدا متماسكا ، وربما اعانتنا " المخزومي " كاتب " الخاطرات " بهذا الصدد ، بما يبدد الحيرة بعض الشيء ، فهو يقول في (التمهيد) للكتاب : " كذلك لابد للمطالع ان يرى مواضيع غير متسلسلة والسبب في ذلك انها لم تكن في موضوع او مطلب واحد بل هي احاديث بعضها بنى على الحوادث ، وبعضها اتى على سبيل السؤال والاستفهام ، والبعض الآخر على سبيل الجدل مع آخر ، ومنها ما هو عفوا وبغير مقدمه (فأثبتنا الجميع على علائها وكيفية صدورهما " (١) .

الا ان المخزومي " تركنا في حيرتنا ، فلم يوضح على التحديد اى تسلسل ذاك الذى يعنيه ، التسلسل الزمنى التاريخى ، ام التسلسل الموضوعى ؟

- ولنلاحظ ثانيا ، انه كيفما كانت طبيعة النص ، فموقف جمال الدين بهذا الشأن ، يتسم بالغرابة ، والتذبذب . وسيوضح هذا منعكسا على آراء الدارسين لموقفه هذا ، بل ستأتى آراء البعض ذاتها بتذبذبه ، على ان نضع في اعتبارنا ان البعض سيركز على هذا النص وحده ، والبعض الآخر سيأتى بتقييمه من خلال هذا النص ، والنص السابق - الخاص بالحكم الجمهورى - معا ، وربما جاء البعض بتقييم عام .

- ولنذكر ثالثا ، انه خلال العرض ، عرض الآراء ، ستعرض لنا مفاهيم اخرى لجمال الدين ، بصدد بعض القضايا السياسية الاخرى ، مثل رأيه فى تكوين " الاحزاب " وفكرة " المستبد العادل " وهى من الافكار الهامة لديه ، وأخيرا رأيه فى " مفهوم الحكم " .

بعض الدارسين يرى ان موقف جمال الدين من النظام النيابى يشوبه بعض الغموض . فبالرغم من انه كان متعلقا بالفعل بفكرة الدستور ، ويرى فيها المقابل الاوروبى لفكرة الشورى ، الا انه وقف مع ذلك موقفا متحفظا جدا من فكرة المجالس النيابية . ومن هنا جاء بديل الاستبداد فى الشرق لديه ، لا هو

(١) " الخاطرات " ، مرجع سابق ، تمهيد ، ص ١ .

الحكم النيابي الدستوري ، ولا هو الحكم الجمهوري . ويدل على ان الكلام الخاص بالحكم النيابي ، يعبر عن جوهر موقف جمال الدين ، ان هذا الكلام يتفق مع تناوجه امام نظام الاحزاب الذي عبر عنه نص آخر من " الخاطرات " ، كما انه يتفق مع رأيه في ان ما يحتاج للشرق اليه انما هو " المستبد العادل " (١) بينما يرى البعض الآخر ، ان جمال الدين يريد في درسه العام ان يتحرر الشعب من العبودية للحكام ، ويفهموا موقفهم من الحاكم ، وموقف الحاكم منهم . ويريد في السياسة ان يقتنع الشعب بحقه في الحكم ، فاذا فهم ذلك - وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه ، في رأى الدارس ، - طالب بالمجلس النيابي ، فيعطاه بناء على فهمه وطلبه وقدرته ، لا على انه منحة تمنح له ، فاذا اعطيه بجهده كان لاجدر بالمحافظة عليه ، وحرص عليه حرصه على دمه ، فأستقر وثبت ولم تستطيع سلطة ما ان تلغيه او تهمله . ثم يشير الى النص الثانى ، مستشهدا فقط بالمقطع الذى دارت فيه مقابلة جمال الدين مع الخديوى توفيق ، ويعلق بعد ذلك .

لقد رأيناه اول عهده فى مصر يرى ان مجلس النواب لا قيمة له مادام المصريون على ما هم عليه من قلة التثبة ، وضعف اليقظة ، وقلة الشجاعة ، ثم رأيناه آخر عهده يلح فى طلب الحكم النيابي ويحرص عليه ، فلعله رأى من الأحداث واستبداد الحكام ، ونضج الأمة فى السنين الثماني (٢) ما غير رأيه

(١) انظر فى تفصيل هذا الرأى : عزت قرنى : " العدالة والحرية " ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤٥-٢٥١ .

(٢) من الثابت ان العودة الثانية لمصر مكث بها جمال الدين من سنة ١٨٧١م - الى سنة ١٨٧٩م حين نفى منها . وهذه هى السنوات الثماني التي يشير اليها الكاتب . كما انه من المعروف ان " الخاطرات " كتبت فى الفترة من سنة ١٨٩٢ - الى سنة ١٨٩٧م ، وهى التي ورد ضمنها نص مقابلة جمال الدين للخديوى توفيق . فلا بد ان النص يشير الى حادثة سابقة لكان اقامة جمال الدين بمصر ، خاصة وان النص يرد ضمن مقدمة خرومى عن " سيرة جمال الدين " التي قلم بها الخاطرات نفسها .

وعدل خطته (١) .

ولعل هذا المنطلق هو الذى دفع البعض الى تبرير رأى جمال الدين بأن الحكم الجمهورى حينئذ لا يصلح للشرق ولا لأهله ، من خلال آراء جمال الدين نفسه والحوادث التى مر بها وعاتاها ودفعته الى ذلك . فأهل الشرق حينئذ خاملون يخيم عليهم الوخم والجهل ، وقد إتهارت منظمات الطوائف التى كان يمكن ان تكون اساسا لقيام الحياة الديمقراطية الصحيحة - اذ الحياة النيابية دون تدريب او تقدير للمستولية لا تحقق الاغراض المرجوة منها ، بل قد تنقلب الى عكس المقصود منها ، فتصبح مطية سهلة لذوى الاغراض من المهيجين والمشعوزين . ولقد ابدى جمال الدين تشاؤمه بهذا الصدد حين كان بمصر ، ولمس بنفسه خمول المجلس النيابى المقيد الذى انشأه اسماعيل فى عام ١٨٦٦ ليشارك معه الاعيان فى اعبائه المالية . وكان رأيه فى الحياة النيابية فى الشرق متأثرا بهذه التجربة .

ومع ذلك فقد تعدلت فكرة جمال الدين هذه حين لعب المجلس النيابى للمصرى نوره القومى كاملا فى اواخر حكم اسماعيل حين تم التحالف بين الحاكم والبرلمان والحزب الوطنى ضد التدخل الاجنبى ، وإن يكن قد عاد الى فكرته الاولى حين ادت الحياة النيابية - مع عوامل اخرى - الى التعجيل بالاحتلال الاجنبى ، ومن ثم نظره جمال الدين لتشاؤمية الى الاحزاب السياسية فى الشرق (٢) .

رأيه فى الاحزاب السياسية فى الشرق :

جاء فى " المخاطر " تحت هذا العنوان " : قال :

(١) انظر : أحمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، النهضة المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ص : ٧٤ - ٧٦ .

(٢) انظر فيما سبق : احمد عبد الرحيم مصطفى : " افكار جمال الدين الاعنانى السياسية " ، مرجع سابق ، ص ص : ٢٣٥ - ٢٣٨ .

وفيما يختص بالاحزاب ، قلن رأى عزت قرنى ، السابق الاشارة اليه .

الاحزاب السياسية في الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الاسف لا تلبث حتى تنقلب الى بش الداء .

نحن نحن الشرقيين تأليف الاحزاب السياسية لطلب الحرية والاستقلال وكل العالم لنا اصدقاء ، ونضطر لتركها ولكل لنا اعداء . والسبب العامل في ذلك عدم التكافؤ في القوى بين الامة واحزابها السياسية .

يقوم الحزب السياسي بعنصر ضعيف ، او بافراد قليل ، بينهم اللسن والمحنك ، ويعلمون تفانيهم بخدمة الامة لتحريرها من ربة الاستعباد ، ويسرون خدمة انفسهم . فتتألف على اهل الحزب القلوب وتجتمع حولهم الكلمة ، بسوق للضرورة وداعى الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ، ويهوسهم الدخيل ، شأن الحوادث المستجدة ، في انقلاب الأمم من طور الى طور .

فالامة تتخيل من وراء وعود الحزب ، سعادة ورفاهها وحرية واستقلالها ومساواة على اوسع شكل قد لا يمكن حصوله في البعيد الآجل ، فضلا عن القريب العاجل . فيؤازرون الحزب بكل معاني الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية . . . الخ فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الامة ، واستحكم له الامر ، ظهرت هنالك في رؤساء الاحزاب ، الأثرة والاثنية ، ومد حب الذات عنقه ، فتتخلص من القلوب تلك الطاعة وتتكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، فنضطر عندئذ لترك الحزب ، وينفرط بالطبيعة عقدة ، ولكل له اعداء .

وضرب لنا عدة امثلة ، منها ما حصل في الافغان وغيرها وما حصل في حوادث عرابي وحزبه في مصر . . . ثم قال : لا ينبغي ان يؤخذ من قولي هذا ان لا فائدة من الاحزاب على مطلق الرأي والمعنى ، فان الشرق بعد ان اخنى عليه الدهر بكليله ، ومرت عليه زلازل العسف والجور ، وأشكال الاستعباد ، حتى تأصل في نفوس ابنائه بنور النل والاستكانة لكل قوى اكتسح بلاده ، ان هذا الشرق وهذا الشرق لا يلبث طويلا حتى يهب يوما من رقاذه ، ويمزق ما تقع وتسربل به هو وابناؤه من لباس الخوف والنل ، فيأخذ في اعداد الأمم الطالبة للاستقلالها ، المستكرة لاستعبادها .

على هذا الاساس الاجتماعي التدريجي ، لا مانع يمنع الشرقى من
الاتخراط فى الحزب بعد الحزب ، ويقبل من المواعيد ما يصدق وما لا يصدق ،
حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من افراد يرون الموت فى حياة
وطنهم مغنما ، والحياة فى موت وطنهم مغرما .

حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء
استعباده ، فيجمع شتات ابناءه الذين كانوا ائمة ، ويصيرهم بنعمة الاخاء
والاتحاد والتعاون اعزة ، بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الامناء ، يعملون
متضامنين على م "ح مجموعهم ، ونصرة مظلومهم ، يأخذون ما لهم من حق ،
ويؤيدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون " (١) .

مفهوم الحكم بين فكرة " المستبد العادل " و " نظرية الحكم الالهى " :
اذا كان هذا هو موقف جمال الدين من الحكم الجمهورى ، والحكم النيابى
الدستورى ، متضمنا رايه فى نظام الأحزاب فى الشرق ، فما هو الحل فى
رايه ؟ وما هو مفهوم الحكم ونظريته لديه ؟

هل الحل الحقيقى الذى ارتآه جمال الدين لمشكلات الشرق انما هو حل
المستبد العادل " الذى يحكم بالشورى ، ويكون هذا هو معنى الشورى لديه ،
كما رأى بعض الدارسين ؟ (٢) .

ام ان فكرة " المستبد العادل " هذه بعيدة عنه ، او انه وان يكن قد قال بها
فى وقت ما ، الا انه قد تخطى عنها ونفاها بعد ذلك ذلك على ما سيبدو لنا
جمال الدين فى مرآة الدارسين الذين سنعرض لهم ؟

وكما هو المعتاد بصدد افكار جمال الدين ، تتعدد الآراء وتتباين تبائنا جما
يبلغ فى احايين كثيرة ما يضعها على طرفى النقيض ، كما سنرى من بعد .

(١) " الخاطرات " ، مرجع سابق ، ص ص : ٨٥ - ٨٧ .

(٢) انظر عزت قرنى " العدالة والحرية " مرجع سابق ، خاصة الصفحت ٢٤٦ ،

٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

الاقتنا منذ البدء ، حسما للبليلة وطلبا لوضوح الرؤية ، نبادر أولا بالوقوف
في مواجهة نصوص جمال الدين ، مرتبة بتسلسلها الزمني والتاريخي عبر
تطوره الفكري ، حتى نسير على هداها في تبين افكاره بهذا الشأن ، وفي رؤية
تقييمات للدارسين له . ولنتذكر - ايضا هنا ، كما هو المتبع دائما - كما رأينا -
جنوح الدارسين الى الابتسار والاقتصار والابتعاد عن منطلق النهج التاريخي
في تعاملهم مع النصوص .

١ - رسالة الرد على الدهريين :

تحت عنوان " ما افاد الدين من العقائد والخصال " ، وفي الحديث عن "
العقيدة الثانية " ، يقول : " فهذه العقيدة اقوى دافع للأمم الى التسابق لغايات
المدنية ، وامضى الاسباب بها الى طلب العلوم ، والتوسع في الفنون ، والابداع
في الصنائع ، وانها لأبلغ في سوق الأمم الى منازل العلاء ، ومقاوم الشرف ،
من غالب قاسر ، ومستبد قاهر عادل " (١) .

٢ - العروة الوثقى :

ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها

" سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة تبديلا " .

تحت هذا العنوان ، يرد جمال الدين على القائلين بأن طريق الشرق الى
القوة إنما هو نشر المعارف بين جميع الافراد ، يقول في رده : " .. ويظن
قوم آخرون ان الأمة المنبئة في اقطار واسعة من الارض مع تفرق اهوائها
واخلادها الى ما دون رتبها بدرجات لا تحصر ، ورضاها بالدون من العيش
والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسيتها ولا من مشربها لمن كان ك
خاضعا لسيادتها راضخا لأحكامها ، مع هذا كله يتم شفاؤها من الأمراض القاتلة
باتشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها ، وتكون على
ارلز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن

حمد عبده : (انتشار الإسلام جمال الدين الأفغاني) وملحق به رسالة الرد

كتاب الهلال ، لكتوبر ١٩٠٧ ، ص ١٢٨ .

قريب ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة .
وما أبعد ما يظنون فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل
الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لنته وتجنس ثمرته ، ثم يكون ميلها
الصادق من بعد نائباً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم له ثروة
وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة . وموضوع كلامنا في الضعف
ودوائه ، فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغني ؟ ولو كان للأمة هذان لما
عدت من الساقطين ^(١) .

٣ - خاطرات جمال الدين :

• غرض جمال الدين الأسمى في حياته :

مما يلفت النظر ، أن " المخزومي " وهو مريد جمال الدين وتلميذه الشهير
يقول تحت هذا العنوان ما يدل على أن الدور الرئيسي سيظل يلعبه الحاكم ،
يقول في هذا : " ... نعم عرف جمال الدين بغرضه ، وسعيه الحثيث ، لجمع
شعبات أهل الشرق ، وإيقاظ الهمم من أمهه ، والإشراف بهم على الخطر الغربي
المحدث بكيانهم ، والأخذ بخناقهم ، ليعملوا على جمع كلمتهم ، ويأخذ كل ملك ،
أو أمير في الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه ، وتحصينه بالحكم الشورى
الدستورى وتمكينه بما يربط الأقرب فالأقرب ، ويقود- بالتحالف والاتحاد حتى
يرجع الكل ، الى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى " ^(٢) .

وعلى الرغم من ذلك ، وبعد قليل ، يعود جمال الدين ليظهر بما قد يبدو أنه
قد اتصل من فكرة " المستبد العادل " - وهذا ما وقع فيه بعض الدارسين بالفعل
- ، تقول " للخاطرات ، أن مريد جمال الدين سأله : أن المتداول بين الناس
على لسانك : " يحتاج الشرق الى مستبد عادل " ، فأجابهم : " هذا من قبيل جمع
الاضداد . وكيف يجتمع العدل والاستبداد ؟ وخير صفات الحاكم القوة والعدل ،

(١) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، الأول ، ص ٦٦ .

(٢) " خاطرات " ، مرجع سابق ، ص ٨٤ - ٨٥ .

ولا خير بالضعيف العادل ، كما انه لا خير فى القوى الظالم * (١) .

الا ان ما يعيننا ويهمننا بهذا الصدد ، ينحصر فى ملحوظتين :

الاولى : ان المتداول بين الناس حقيقة كان بالفعل ذلك .

الثانية : ان منطق المذهب اقوى من كل التراجعات اللفظية ، ومنطق

المذهب واضح من كل التصوص التي اثبتناها منذ قليل .

ولن نكتفى بهذا ، ولكن لو شئنا تعضيد هذا الراى اكثر ، لأحلبنا من يروم

وضوحا ، وتأكيذا ، على موضع آخر فى " الخاطرات " مع ملاحظة انه يأتى

بعد النص السالف بكثير وقرب نهايات الكتاب .

" قوله فى الناشئة الشرقية استحسانا واستهجانا ، وأمثلة على التكيد النافع ،

وضربه المثل بدولة اليابان الشرقية ونكره اتجع الوسائل للنهوض من السقوط ؟

فتحت هذا العنوان الطويل ، سنجد جمال الدين يكرر مرة اخرى ، وبذات

الأفكار والألفاظ ، ما سبق ان قاله فى رده على القائلين بأن طريق الشرق الى

القوة اما هو نشر المعارف بين جميع الافراد ، ونشر هذا الرد فى " العروة

الوثقى " واثبتناه فى النص رقم (٢) ، واهم ما فيه ان هذا العمل العظيم : . .

انما يقوم به سلطان قوى ماهر يحمل الأمة على ما تكره لزمانا حتى تنفوق لذته

وتجنى ثمرته . . . (٢) .

ولنذكر ان " العروة الوثقى " هى العمل الثانى ، بعد " رسالة الرد على

الدهريين ، فى الترتيب الزمنى التاريخى لأعمال جمال الدين المنشورة ، وان

كتاب " الخاطرات " الذى جمعه وحرره " محمد باشا المخرومى " يمثل آخر ما

نشر من أعمال جمال الدين ، فى سلسلة أعماله ، اى انه يعكس آخر مراحل

تطوره الفكرى ، وهو ما يجب اعتباره - فى رأينا - فى تقييم جمال الدين ،

(١) "خاطرات" ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٢) " خاطرات جمال الدين ، ط٢ ، مطبع دار الفكر ، دمشق ، ١٩٦٥ ، ص ٢١٤ .

والتعامل مع أفكاره ونصوصه ، كيلا نجح بالرجل وبأنفسنا بعيدا عن الانصاف
وعن الموضوعية .

وعلى الرغم من ذلك ، فاذا ما نظرنا لجمال الدين في مرآة المفكرين
والدارسين فلن نجد شخصية تتسم بالوحدة والتماسك ، لو تتميز بالثبات الفكرى .
سواء ان كان السبب فى هذا يرجع الى جمال الدين نفسه وللى الوقائع ، اى
نصوصه ، ام كان يرجع الى الدارسين انفسهم لأسباب بينها قِلا . .

فى رأى البعض ، انه اذا كان فكر جمال الدين الاجتماعى قد اصابه الظلم
من قبل الذين وقفوا منه وبه عند حدود المرحلة والصياغات التى تعاطفت مع
المفهوم الرأسمالى ومعاداة الاشتراكية . واذا كانت محاولات استغلال هذه
الصياغات قد حدثت بعد وفاة الفيلسوف الكبير - يقصد جمال الدين - ، فان
الفكر الديمقراطى لديه قد اصاب بما هو اكثر من الظلم ، عندما تعرض الرجل
بصددته لافتراءات واكاذيب نسبت له مالم يقله ، بل ضد ما يعتقد ويشر به ،
ولم تنتظر فى ذلك وفاته ، بل صنعت ذلك وهو حى يرزق يسعى بين الناس .
ومن منا لم يسمع ويقرأ ان جمال الدين قد كان يبشر بأن صلاح المجتمعات
الشرقية لا يمكن ان يتم الا على يد حاكم " مستبد عادل " وان الرجل كان
نصيرا للحكم الفردى المطلق ، على شرط ان تتوافر العدالة لمن يمسك بزمام
الأمر فى هذا النظام ؟!

وفى سبيل تخييد هذا الافتراء الجريء على جمال الدين ، لن نسلك - تقول
الدراسة - سبيل الاحتكام الى حياته فقط ، وما حفلت به من معارك ونضالات
ضد الاستبداد والمستبدين ، ولا سبيل كتاباته فقط التى اودعها الكثير من آيات
الشورى والديموقراطية ، والايمان الذى لا يحد بالحكم النيابى الدستورى السليم ،
ولا سبيل ايراد النماذج السياسية الديمقراطية التى حبذاها فحسب ، والتى اشار
على شعوب الشرق العربى الاسلامية بالاستفادة منها ، وانما سنسلك كل هذه
السبل . . .

فهو هنا - أى جمال الدين - حاسم الموقف ، واضح الراى لا يترك مجالا

فعلى عكس الكثرين من المصلحين الدينين الذين مالوا ، فى مجموعهم الى الاسلوب الاوتوقراطى فى الحكم والادارة ، نجد جمال الدين - الرأى لنفس الدارس - شديد الايمان بالحكم النيابى ، وضرورة تمثيل القوة النيابية للشعب وصنورها من احشاء الجماهير (٢) .

ولم يكن جمال الدين باحثا عن قيام الشكل النيابى والدستورى ، وانما ساعيا وراء تحقيق الجوهر والمضمون الحقيقى لهذا النظام (٣) .

اما فى رأى حورانى . . Hourani ، فان جمال الدين لا ينكر ان الحاكم المستبد يستطيع ، اذا حسنت نواياه ، ان يحقق الكثير من الخير بسرعة ، لكن خطر الحكم الاستبدادى فى ان كل شئ فيه يتوقف على اخلاق الحاكم . لذلك كان من واجب زعماء الرأى الوطنى التخلص من الحاكم الفاسد قبل فوات الاولان ، حسبما اشار بنفسه فى " العروة الوثقى " (٤) .

ويرى " حورانى " . . Hourani ان جمال الدين كان مثله الأعلى فى الحكم، مثله فى ذلك مثل العقائد بين المسلمين ، حكم ملك عادل يعترف بسيادة الشريعة .

ويعلق على ذلك ، بان جمال الدين لم يكن دستوريا على اساس مبدئى (٥).

(١) انظر : محمد عمارة : الاقناتى . . مفكرا ومناضلا " ملف خاص " ، فى مجلة : الطليعة ، القاهرة ، العدد الرابع - السنة الخامسة - ابريل ١٩٦٩ ، ص ١٣٩ .

(٢) محمد عمارة : الاعمال الكاملة لجمال الدين الاقناتى مع دراسة حياته واثاره ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٩٦ .

(٣) محمد عمارة : الاقناتى مفكرا ومناضلا " ملف خاص " فى مجلة : الطليعة ، مرجع سابق ، ص ١٤١ .

(4) Hourani, A., Arabic thought in the liberal Age, 1879-1939 London, 1967. P. 116 .

(٥) تعليق على حورانى : هذا النقد راجع الى تسليم حورانى بأن فكرة الديمقراطية الغربية هي المثل الأعلى عنده للديموقراطية ، لذلك فهو يهتم بالمؤسسات ولا يعتبر الاستناد الى مبادئ الشريعة موقفا دستوريا مبدئيا .

هذا بينما يرى البعض الآخر ، أنه كما يدعو جمال الدين الى الاشتراكية والتصنيع فإنه يدعو الى الديمقراطية ، فهي انسب نظم الحكم وابقاها فى الارض • وهو يطالب بالحكم الدستورى لمصر ، ويندد بنواب الخبز الذين يعملون من اجل طبقتهم ••

ويرى انه قد يحدث فى النظام النيابى تلاعب الأحزاب واتفاق اليمين واليسار ويكون اليسار ملكيا اكثر من الملك ••

وهذا كله هو معنى ما قاله جمال الدين من ان الحكم للجمهورى لا يصلح للشرق اليوم ولا لأمله ، ومعنى ما طالب به فى حكم الطاغية العادل ••

ويظهر هذا التذبذب بين الحكم النيابى وبين الطاغية العادل فى دعوة جمال الدين الى استقلال الامارات أسوة بما فعل محمد على فى مصر ، والحفاظ على القوميات ، اى تمتع الامارات بالاستقلال الذاتى ••

دعا جمال الدين الى تحرير الأرض ، ولكنه قام اولا باثبات حرية الفرد فى النضال وتحرره من قيود النظم السياسية والعقائد الدينية ، ولم تكن دعوته فى الحقيقة الى النظم النيابية الا دعوة لحرية الفرد نظرا لما رآه فى مصر من استكانة لمحو الحريات الفردية (١) .

واذا كنا قد رأينا فيما سبق صورة جمال الدين بصدد فكرة " المستبد العادل " فان ثمة صورة أخرى تكاد تقترب به من فكرة " الحكم الالهى " ، ومن " نظرية الصفوة " قليلا او كثيرا •

كان جمال الدين قد قال فى " العروة الوثقى " ، وهو بصدد توضيح مصدر وجوب الطاعة للسلطة الزمنية وذلك فى مقالته عن (الجنسية والديانة الاسلامية) فقال : ان النفوس اذا اعتمدت جميعها على " حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع ، وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام ، وهو مبدأ الكل وقهار السموات والأرض ، ثم

(١) لاحظ : حسن حنفى حسنين : قضايا معاصرة ، (١) فى فكرنا المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ١٠٥ - ١٠٧ •

يكون القائم من قبله بتنفيذ احكامه اى الحاكم الأرضى مساهما للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام احكم الحاكمين ، فاذا اذعنت الانفس بوجود الحاكم الأعلى ، وايقنت بمشاركة القيم على احكامه وهو الحاكم الأرضى لعامتهم فى التظامن لما أمر به ، اطمأنت فى حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة وهو الحاكم الأرضى ايضا واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها " (١) .

والقارئ المتنبه - كما يقول البعض - سيجد فى هذا النص وضعا جديدا لنظرية " الحكم الالهى " (٢) .

واذا كانت حركات التحرر من الظلم والاستعمار فى العالم الإسلامى قد استلهمت جميعا افكاره الثورية المجددة ليس فقط فى الهند وايران وافغانستان ، بل ايضا فى مصر وتركيا والسودان والتركستان فليس معنى هذا ان دعوته قد امتدت لى جماهير الشعب فى تلك البقاع ، بل انها اقتصرت الى حد بعيد على تلك الفئة القليلة الموجهة فى كل زمان ومكان ، وهى الفئة التى تضم الصفوة المثقفة وطليعة المتحررين من قيود التقليد ورواسب الماضى (٣) .

واذا كان جمال الدين يقول فى " المخاطر " تحت عنوان : (الحق والأكثرية) : ان " ... الحقائق من دين ومذهب ، وقواعد علمية وفنية ، ما ظهرت وما استقرت وتدونت وانتشرت الا بواسطة افراد قلائل ، وقد قاومها المجموع بأشد ما لديه من قوة ، ووسئل القهر " (٤) .

اذا كان يقول بهذا ، بالإضافة الى قوله بعدم صلاحية الحكم الجمهورى

(١) " العروة الوثقى " ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر عزت قرنى " العدالة والحرية " ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : افكار جمال الدين الافغانى السياسية ، مرجع سابق ، ص

٢١٥ .

(٤) " مخاطر " ط ٢ ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ .

للشرق اليوم ولا لأهله ، وما طالب به فى حكم الطاغية العادل ...
فهذا كله يرجع الى انه يؤمن بالبطولة القومية وبالقلّة المؤمنة ، طبقا للحكمة
الدينية التقليدية التي تؤمن بالسلطة المركزية فى الكون وفى المجتمع ، حتى
ليبدو جمال الدين فى بعض الاحيان من اصحاب نظرية الصفة المختارة
النشطة المحركة للمجموع (١) .

ولا يسعنا فى مجال تطور الفكر القومى الليبرالى فى مصر ان نغفل الأثر
الكبير الذى خلفه جمال الدين فى البلاد خلال السنوات الثمان التي اقامها بها -
وفى خلالها التف حولّه خيرة المتفكرين المصريين الذين وجه افكارهم لتكون فى
خدمة الشعب : تدافع عن حقه وتهاجم من اعتدى عليه ايا كان .

وكان يرى ان الحرية والاستقلال لا يوهبان عن طيب خاطر بل ان الأمم
تحصل عليهما قوة واقتدارا ، وان يكن يفضل ان يتحول الحكم المطلق الى
الحكم النيابى بارشاد الحاكم ونصحه من جانب عقلاء مقربيّه .

واذا كان - بالاضافة لرأيه فى الحكم الجمهورى - قد أبدى تشاؤمه من
اسلوب نشاط الأحزاب السياسية ، فليس معنى هذا انه كان ينادى بالغاء
الأحزاب قاطبة ، بل انه كان اميل الى التدرج فى مجال العمل السياسى بما
يوثّم طبيعة الشعب واستعداداته (٢) .

وربما كانت خير خاتمة لهذا ، بتعبير لا يخل من النقة والعمق ، ان جمال
الدين ، اذ كان مثله الأعلى فى الحكم - مثل العقائدين المسلمين - حكم ملك
عادل يعترف بسيادة الشريعة ، لم يكن دستوريا على اساس مبدئى ، بل كان
بطبيعته اوتوقراطيا ولجوجا (٣) وقد صرف حياته بكاملها يفتش عن حاكم مسلم

(١) حسن حنفى : قضايا معاصرة ، (١) ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٢) انظر : احمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، مرجع
سابق ، ص ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) سيكون من الطريف مقارنة هذا برأى محمد عمارة السابق ذكره .

يمكنه بواسطته العمل على احياء الاسلام ، على غرار تلك المشاركة بين الحاكم والفيلسوف التي تخيلها الفارابي كبديل للملك الفيلسوف المثالي الذي لم يكن يظهر الا نادرا . لكن آماله كانت تخيب كل مرة ، اذ كان يحتر بوما ، اما على حاكم لم يطبع على العدل ، او على حاكم لا يعترف بسيادة الشريعة ..

ولم يكن جمال الدين ينتمى الى الاغلبية المسالمة من المفكرين المسلمين ، الذين كانوا يقولون بأن عليهم ان يحتجوا على ظلم الحاكم وان يرضخوا له فى الوقت نفسه ، بل تبنى بلأحرى رأى الاقلية المؤمنة بحق للثورة ⁽¹⁾ .

(1) Hourani, A., Arabic Thought000, Op. Cit. P.P. 116-117 .

ملحق النصوص

الحرّوة الوثقى
والثورة التحريرية الكبرى

للسيد جمال الدين الأفغانى
والشيخ محمد عبده

لماذا عدوت الجريدة ^(١)

« ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير »

هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى
الله المتكل في نجاح العمل .

خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تتكرها
الأنفس ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا
بيداء الفكر ، وسحروا لبابهم حتى أذهلوهم على أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط
النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحمله النفوس البشرية .

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ، ونخرى به شيطان الخيال . فظنوا أن
القوة الآلية وإن قل عملها يدون لها السلطان على الكثرة العددية وإن انتفت
آجادها بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم
يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فإن تقلبات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة
ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فتبت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك
العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان امحاء أمة أو ملة كبيرة
بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وإن بلغت القوة
أقصى ما يمتله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم
علم تاريخ الى اليوم أن الأمم الكبيرة إذا عجزت عن التفريق في الكلمة ، أو
عفلة عن عقبة لا تحمد ، أو ركون إلى راحة لا تدون ، أو افتتان بنعيم يزول ،

(١) صدر العدد الأول منها في جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة
١٨٨٤ م وبلغ ما نشر منها ثمانية عشر عدداً وصدر العدد الأخير منها في ذي الحجة
سنة ١٣٠١ هـ ولتتهت بسبب مخزية الانجليز بها .

ثم صالت عليها قوة أجنبية ، أرعبتها ونبهتها بعض التنبيه فاذا توالى عليها وخزات الحواطث ، وألقها آلامها فزعت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أى سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهى ما تكون بالتنام أفرادها ، والتحام أحادها ، وأن الإلهام الإلهى والاحساس الفطرى والتعليم الشرعى ترشدها الى أن لا حاجة إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شئ عليها .

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عييدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الأمكن فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ، واستاسد نخبها ، وتتمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ولن تعد عند الطلب رشاداً .

ربما تخطئ مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط واحتراس من الوقوع فى مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة ، وإن الحركة التى تتبع لنفع ملا يطبق اذا قام بتبويرها قيم عليها ، ومدير لمسيرها ، لا يكفى فى توقيف سريراتها ، أو محو آثارها ، فمر ذاك القيم واهلاك ذاك المدير ، فإن العلة ما دامت موجودة لاتزال آثارها تصدر عنها ، فإن ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأغذ بصيرة ، نعم ممكن تخفيف الأثر أو إزالته بإزالة علته ورفع أسبابه

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يبتئها فى الاخلاق والعادات والمشارب ، وإن لم يكلفها بزياد عما كانت تكين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها اذا حملها مالا طاقة لها به . لاريب انها تستكره ، وإن كانت تستكبره ، وكلما انكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب ضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك

لن مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسى الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرّب ، فتري الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك في غلب المنفعة .

أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسنا بحركة فكرية في أغلب انحاء المشرق في هذه الايام . كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن ولن العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل .

بلى ، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر ولن عمى عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في لبنائه بل ما يجري به القضاء الالهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون .

بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصاً في المسلمين . نهم ، فمنهم ملوك انزلوا عن عروشهم جوراً وذووا حقوق في الامرة حرّوا حقوقهم ظلماً ، وأعزاء باتوا أذلاء وأجلاء أصبحوا حقراء وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء سقاماً وأسود تحولت انعاماً ، ولم تبق طبقي من الطبقات الا وقد مسها الضرر من افراط الطامعين في أطماعهم خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي نوى المطامع فيها . حملوا الى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها وشدوا عيها بما لا تألفه فحاربت ألبابها وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهينوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها نريجة لما كانوا له طالبين فاندفع بينهم سيل المصاعب ، بل طوفان

المصائب ، على تلك البلاد وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا •

لم تكن تخمد تلك الحركة في بادئ النظر حتى خلفتها حركة أخرى وفتح باب كان مسدوداً وقام قائم بدعوة لها المكنة الاولى في نفوس المسلمين بل هي بقية آمالهم ولا ندرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجينية وربما يوجد من يدري أن مسببها في حيرة من تلافئها ، نعم أنهم غرسوا غرساً إلا أنهم سيجنون لو هم الآن يجنون منه حنظلاً ويطعمون منه زقوما • لاجرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالى في طمعه ويغفل في حرصه ولو أنهم تركوا الأمر من ذلك الوقت لأربابه وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته أو اقتناء فائدته لحفظوا بذلك مصالحهم ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الواقعة بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم •

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الامواء وهو اتفق عوامهم وأقبلها وما علموا أنه وإن كان زريع الفتك إلا أنه سريع للعطب وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدّد لقلوب المعنّين فان بلاء الجور إذا حل بشطر من الامة وعوفي منه باقيها كانت سلامة البعض تجزيه • للمصابين وحجاب غفلة السالمين يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب أخواتهم أما إذا عم الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعز عليهم الصبر فيندفعون إلى ما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم •

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً • إن مصر تعتبر عندهم من الاراضى المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحطها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين فإن كان هذا الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع والا اضطربت أفكارهم وكثرت في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية ، إن الخطر الذي ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستقرهم مادام الجرح نغراً • وما هذا بغريب

على المسلمين فن رابحتهم تملية أقوى من روابط الجنسية واللغة ملادام القرآن
يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على أفهام وقارئيه فلن يستطيع الدمر أن يذلهم
أن الفجيعة بمصر حركت أشجناً كانت كلمنة وجذبت أحزانا لم تكن في الحسبان
وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم وهم من تنكار
الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا تأمل أن يصير التنفس زفيراً بل
زفيراً عاماً بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصممه الطمع .

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له
في فتوحاته إلا المداواة ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاربة ولا أسنة
يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة يظهر بصور مختلفة الألوان متقاربة
الاشكال كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ومثبت مراكز الأمراء
ومسكن الفتن ومخلص الحكومات من غوائل العصيان وواقى مصالح المظلومين
فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يتنى من أعماله بما لا يهتك
هذاستر الرقيق الذى يكفى لتمزيقه رجع البصر وكر النظر وأن يتحاشى العنف
مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا خنقت خنقت وليس له أن يغتر بعدم مكتنهم وهو
يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ولا بعدم المتحدون قوياً شديد اللباس
يساعدهم بما يلزمهم لتوزيع سياسته وأن المغيظ لا ينال في الإيقاع بمناوئه أسلم
أو عطب فهو يضر ليضر ، أن معه الضر .

الا ان غشية التهم ذهبت بعقول النيومين ووقرت^١ سهم عن حسيص
الهمسات المتراسلى من الهند الى مكة ومن مكة الى مصر والكثير^(١) الممتد من
مصر الى مكة من مكة الى الهند وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم
المسترسلون في جفونهم .

أن الرزايا الاخيرة التي حلت بهم مواقع الشرق جذبت الروابط وقاربت

(١) الكريز : صوت في الصنر كصوت شمعتق .

بين الاقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظ
أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل
التي أنت بهم الى ما هم فيه فتقاربوا في النظر وتواصلوا في طلب الحق وعمدوا
الى معالجة الحق وعلل الضعف راجعين ان يسترجعوا بعض ما فقدوا من
القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسناً يسلكونه لوقاية الدين
والشرف وإن في الحاضر منها لتهزة تغتم واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها
تقوتهم ولئن فانت فكم في الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الامور .

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار
خصوصاً البلاد الهندية والمصرية وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه
ويوحدون كلمة الحق في كل صقع لا يتون في السعي ولا يقصرون في الجهد
ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حي على حياته .

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يضاعرهم في مثل حالهم رأوا أن
يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتماثلون من مصائبهم ويحبون العدالة العامة
ويحامون عنها من أهالي أوروبا وكتبوا على أنفسهم ان ينظر في أمر السلطة العامة
الاسلامية وفروض القائم بها وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين
وفيها موسم الحجيج العام في كل عام يجتمع اليه الشرقي والغربي ويتآخي في
موافقها الطاهرة الجليل والحقير والغني والفقير كانت أفضل مدينة تتوارد اليها
أفكارهم ثم تثبت الى سائر الجهات والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل .

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر وأقرب الى الظفر يستدعي
أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ودعوة صدق طلبوا عدة طرق لنشر
أفكارهم بين من خفى عنه شأنهم من أخواتهم واختاروا أن يكون لهم في هذه
الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربي وأن تكون فمدينة حرة
كمدينة باريس ^(١) ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم الى

(١) يقصد باريس عام ١٨٨٤ !!

نُظَر القاصية تنبيهها الغفل وتنكيراً للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسينى الافتخاى أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبى رغبته بل نادى حقاً واجباً عليه لاديه ووطنه وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الاول على الإجابة ، حمل الثانى على الامثال ، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال .

الجريدة ومنهجها

سيأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الامكان من بيان الواجبات التى كان التفريق فيها موجبا للسقط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والإحتراس من غوائل ما هو آت .

ويستتبع ذلك البحث فى أصول الاسباب ومناشئ العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل وإشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت ^(١) وضل المرشد حتى لا يدري السالكون من أين تجمعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة والمدهشات القاتلة .

وتكشف الغطاء ما استطاعت من الشبه التى شغلت أوهام المترفين ولبست عليهم مسالك الرشد وتزيح الوسوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة عللتهم وشفاء أدوائهم وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العناية بلغت حدها .

وتحاول اشرا الأفهام أن لا حاجة فى الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم وأن تخيل تلك لدائرة الواسعة انما عرض من الادبار على المطلوب وهو تحت الجفح ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر وقطع بعض خطوات قصيرة .

وأن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها ولا ضرورة فى إيجاد المنعة الى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موصف الأوروبى فى نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك وفيما

(١) الخريت : الدليل الحائق بطرق الارض .

مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرأ أعجزها
وأعوزها •

وتنبه بأن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط
السياسية فإن فقد التكافؤ لم تكن للرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف ،
وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المديح بأشكال المجاملة شفاقاً ينم
عما وراءه وتتقب عن المسالك النقية التي يسرى بها الطامعون في يساجر
الغفلات •

ويهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم
الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ولا وقوف على حقائق أمورهم
وايصال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتكثرون إلى المدينة ماداموا على أصولهم
التي فاز بها أبائهم الأولون ولا تهن في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث
السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون في شئونهم مع اختيار الصادق وانتقاء
للثابت •

وتراعى في جميع سيرها تقوية الصلاتن العمومية بين الأمم وتمكين الألفة
في أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القوية التي لا تميل إلى
الحيف والأحجاف بحقوق الشرقيين •

ومع كل هذا فإنه الجريدة تتبع سير الداعين إليها والحوادث عليها لا تظهر
إذا ألدجوا ولا تنجد إذا غوروا وتذهب مذاهب وترشد رنصيب بحول الله موقعه
عند من سبق في أدلى علم الله هدايته والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم •

وترسل إلى الذين نعرف أسماؤهم مجاناً بدون مقابل ليتداولها الأمير
والحقير والغنى والفقر ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة
الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على التهج الذي يريده والله الموفق •

الجنسية والديانة الإسلامية

ان استقراء حال الافراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلى النظر ودقيقة وجوب تعصب للجنس ونعرة عليه عند الأغلب منهم وان المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيهِ ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ولا بحث فى علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية الا أنه يعد ظنهم ما نراه فى حال طفل ولد فى أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى وربى فيها الى ان عقل ولم يذكر له مولده فانا لا نرى فى طبيعه ميلا اليه بل يكون خالى الذهن من قبله ويكون مع سائر الأقطار سواء بل ربما كان ألف لمرياه وأميل اليه والطبيعى لا يتغير .

ولهذا لا نذهب إلى أنه طبيعى ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس تترسومها على الواحها الضرورات فان الانسان فى أى أرض له حاجات جمّة وفى أفراد ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية زكية ، وسعة المطمع اذا صحبها إقتدار تدعو بطبعها الى العدوان لهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر فاضطروا بعد منازل الشرور احقاباً طوالاً الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الاجناس فتوزعوا أمماً كالهندى والانجليزى والروسى والتركماني ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة مذاقعه وحفظ حقوقه من تعدى القبيل الآخر ثم يجاوزوا فى ذلك حد الضرورة كما هى عادة الانسان فى اطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علماً بأنه لا بد أن يكون جائراً اذا حكم ولئن عدل فان قبلو حكمه ذلاً تحس به النفس وينفعل له

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة في الزوال
كما تبعها في الحدوث بلا ريب وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تنصاغر
لديه القوى وتتضائل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمع وتكة بالنسبة
اليه متساوية الأقدام وهو مبدأ الكل وقهار السموات والارض ثم يكون القائم من
قبله بتفويض أحكامه مساهما للكافة في الإستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين .
فإذا ادعت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه
لعامتهم في النظام لما أمر به . اطمأنت في حفظ الحق ورفع الشر الى صاحب
هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها فمحي أثرها
من النفوس والحكم لله العلى الكبير .

هذا هو السر في أعراض المسلمين على اختلاف أقطانهم عن اعتبار
الجنسيات ورفضهم أى نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبيتهم الاسلامية فان
المتدين بالدين الاسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتف عن
الروابط الخاصة الى العلاقة العامة وهى علاقة المعتقد .

لان الدين الاسلامى لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق
وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الاننى
الى عالم أعلى بل هى كما كانت كافلة لهذا جاءت واقية بوضع حدود المعاملا
بين العباد وبيان الحقوق كلها وجزئها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ
المشروعات واقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها
لامن أشد الناس خضوعا لها ولن ينالها بورائه ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو
قوة بنية وثروة مالية وإنما تنالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها
ورضاء الأمة . فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعهم المقدسة الالهية التي
لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء لأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عنهم
الا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة للدفاع عنها .

وكل فخار تكسبه الاتساب وكل امتياز تفيده الاصحاب لم يجعل له الشارع
أثرا في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض بل كل رابطة سوى

رابطه الشريعة الحقّة فهي معقونة على لسان الشارع والمعتد عليها مذموم والمعتصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم (ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية) والاحاديث النبوية والآيات المنزلة متضاربة على هذا ولكن يعتز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى - اتباع الشريعة " لن لكرمكم عند الله اتقاكم " ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الاجيال من لا شرف له في جنسه ولا امتياز له في قبيله ولا ورث الملك عن أبيته ولا طلبة بشئ من حسبه ونسبه وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه .

وان بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان بسديها إليهم على حسب أمثالهم للاحكام الالهية واهتدائهم بهديها وتجردهم عن الاعتلاء الشخصي وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في أبيته ورفاهة معيشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس الى تعصبها ووقع الاختلاف وانتقضت سلطة ذاك الوازع .

هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الاجناس وانما ينظرون الى جامعة الدين لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني ولا شمتزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وأن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذهباً ، نعم اذا نبأ في سيره عنها وجار في حكمه عما نصت عليه وطلب الإثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب ، وانحرفت عن محبته الاتف وأصبح وإن كان وطنياً فيهم أشنع حالاً من الأجنبي عنهم .

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالثبوت والاسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامي بدون تفكير إلى جنتها وقبيلها .

ولو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أى جنس كان تبع الأوامر
 الإلهية وثابر على رعايتها وأخذ الدماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومة
 فى الخضوع لها وتجاهى عن الاختصاص بمزايا القخفة الباطلة لأمكه أن
 يجوز بسطة فى الملك وعظمة فى السلطان وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى
 الاقطار المعمورة بلربب هذا الدين ولا يتجشم فى ذلك أتعاباً ولا يحتاج إلى بذل
 النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن
 وأتصال الحرية . . . ويستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين
 والرجوع إلى الأصول الأولى فى الديانة الإسلامية القويمة ومن سيره هذا تنبعث
 القوة وتتجدد لوزم المنعة ؛ أكرر عليك القول بأن السبب هو الدين الإسلامى لم
 تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط ولكن مع ذلك لى بما فيه
 مصلحة العباد فى دنياهم وما يكسبهم السعادة فى الدنيا ، والتعيم فى الآخرة وهو
 المعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى بسعادة الدارين وجاء بالمساواة فى أحكامه
 بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة .

ليضت عين الدهر وامتنع لون الزمان حتى أصاب لن بعضا من المسلمين
 على حكم القدرة يحز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم
 فى معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على
 أن التزم يأخذ يارواحهم عند أول خطوة يخطونها فى هذا الطريق فمثلهم كمثل من
 يريد الفتن بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع : وإن بعض ما يطرا على
 الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشأه تصور الوترعين
 وحيدانهم عن الأصول القويمة التى بنيت عليها الديانة الإسلامية وانحراقهم عن
 مناهج أسلافهم الأتقيين فإن مناجزة الأصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة
 أشد ما يكون ضرر مما بالسلطة العليا فلذا رجع الوترعون فى الإسلام إلى قواعد
 شرعهم وساروا سيرة الأولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الا وقد آتاهم الله
 بسطة فى الملك والحقهم فى العزة بالراشدين أئمة الدين وفقنا الله للسداد ، وهذا
 طريق الرشاد .

ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها

{ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا }

لأريت أمة من الأمن لم تكن شيئاً متكوراً ، ثم انشقق عنها عماء العدم فإذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع للنظام قوى الأركان شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات التوازل وتتحل بأيدي مديريها عقد المشاكل نمت فيها أفتان العزة بعد ما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدائى اليها ونفخت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت للقوة فاستعلت أدبها ومبادئ أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقتها ومعاصريها وأحصت مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة الا فى انتهاج منهجها وورود شريعته وصارت وهى قليلة العدد كثيرة المساحات كأنها للعالم روح مدير هو لها بدن عامل .

وبعد هذا كله وهى بناؤها وتنتشر منظومتها وتفرقت فيها الأمواء وانشقت العصى وتبدد ما كان مجتمعاً وتحل ما كان منعقداً وانقصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجوها ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدي الملتحمين معن بلحمة الأمة وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيله الناظر اليه ضحوا ، ونبول يظنه المغرور زهواً وأخذ للتقوط بآمال أولئك المدموشين فأبادها وحشت فيهم قناعة للتهم والرضا بكل حال ولئن تنبه خاطر الحق فى خيال أحدهم

(١) أكثر غلوين المقالات مأخوذ عن تاريخ الامام (حمه الله) - طبعة مجلة (المنار)
الاسلامية .

أو استغفره داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفاً أو يعيد إليها مجداً عده هوساً
وهذياناً أصيب به من ضعف في المزاج أو خلل في البنية أو حسب أنه لو أجاب
داعى النعمة لعاد عليين بالويل وأورده موارد الهلكة أو لصار من أقرب الأسباب
لزوال نعمته ونكد معيشته ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلال من اليأس فتغل
يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعى ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما
فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبل وتجمد قريحته
عن فهم ما قلم به لولئك الأباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقبما على ما
لورثوه لأعقابهم ويبلغ هذا المرض من الأمة حداً يشرف بها على الهلاك
ويطرعها على فرث الموت فريسة لكل عاد وطمعة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم
ضعفت وعزت ثم نلت وصحت ثم مرضت ولكن ليس لكل علة نواء . بلى .

وأسفأ ما أصعب الداء وما أعز الدواء وما أكل العارفين بطرق العلاج كيف
يمكن جمع الكاملة بعد افتراقها وهي لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه . . .
استغفر الله لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه
اتصالاً به ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه . نعم ربما
لنفت كل إلى ما هو فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا
يدري من أى وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون حى أمن عليها ؛ كيف تبعث
الهمم بعد موتها وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمناً غير قصير إلى معاليها هل من
السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواء
خصوصاً بعد ما اسدبر المقصد وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من
الخطوة . كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه المبتهج بأحلامه وفى أنه وقر
وفى ملامسه خدر ، هل من صيحة تزعج قلوب الاحاد المنترقة من أمة عظيمة
تتباع أتحاوها وتتأذى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها هلى من نبأ تجمع
أهوائها المنترقة وتوحد آرائها المتخالفة بعد مراكم جهل واران غين وخيل

للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعز أيم لله أنه لشيء عسير يعيى فى
علاجه النطاسى ويحار فيه الحكيم البصير :

هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى
والعواض التي طرأت عليه . إن كان المرض فى أمة فكيف يمكن الوصول الى
علاجه وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فية من تنقل الاحوال وتنوع
الاطوار ، أيمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن
يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض وإلا
فإن ثيراً من الامراض تتولد جراثيمها فى طور من اطوار العمر ثم لا تظهر إلا
فى طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة للمرض فلا يبدو أثرها ، كلا أنه
ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة
وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد،
لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون بأحياء أمة أو إرجاع شرفها
ومجدها إليها وإن كان المشبهون بهم كثيرين وكما أن المتطبيب القاصر فى
الأمراض البدنية لا يزيد علاجه للمرض الا شدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة ل
ربما يفضى بالمريض إلى الموت . كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلال
الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العالة فيها وأنواعها
وما يكتنف تلك من العادات وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات
وحوائثها المتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ومكانتها الأولى من الترفعة
وبرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين فإن أخطأ طائب
اصلاحها فى اكتناه شئ مما نكرنا تحول الدواء والتواجد فناء .

فمن له حظ فى الكمال الانسانى ولم يطمس من قلبه موضع الاثام الالهى
لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الامم واصلاح ما فيسد منها وهو يحسن من
نفسه أننى قصور فى أداء هذا الأمر العظيم علماً أو غيلاً . نعم يكون ذلك من
محبى اتخفخة الباطلة وطلاب العيش فى ظل وظائف ليسوا من حقوقنا فى
شئ .

ظن قوم فى هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد وانها تكفل
إنهاض الأمم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق كيف يصدق هذا الظن . وانا لو
فرضنا أن كتاب الجرائد لا يصنفون بما يكتبون إلا نجاح الامم مع التنزه عن
الأغراض فبعد ما غم الذمول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون
والكاتبون لاتبج لها قارناً ولئن وجدت أفكار - فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل
ما يجده على غير مما يراد منه لضيق فى التصور أو ميل مع الهوى فلا يكون
منه إلا سوء التأثير فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافاً . على أن
الهمة اذا كانت فى درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه
منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة ويتفق سيول الحوادث ان هذا
وحقك عزيز .

ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبثة فى لقطار واسعة من الأرض مع تفرق
أهوائها ولخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر ورضاها بالدون من
العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها بل لمن
كان خاضعاً لسيادتها راضخاً لاحكامها مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الامراض
القاتلى بانشاء المدارس العمومة دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها وتكون على
الطرز الجديد المعروف باوروبا حتى تعم المعارف جميع الافراد فى زمن قريب
ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت للأقامة واجتمعت القون . وما أبعد
ما يظنون فان هذا أمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمار الأمة على
ما تكره أزمانا حتى تنروق لذته وتجننى ثمرته ثم يتوزع سخيها الصديق من بعد نائبها
عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة واقرة تفى بنفقات تلك
المدارس وهى كثيرة وموضوع كلامنا فى الضعف وبوائه فهل مع الضعف
سلطنة تقهر وثروة تغنى ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين .

فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات واقتناء على الامكان لولا ما
يكون من طمع الاقوياء حتى لا يدعون لهم مميزات لأن يستبقوا نسيم القوة فأين
الزمان لنجاح تلك الوسائل البخيئة الأثر .

على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الافراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً فهل يصح الحكم بان هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية وأن يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بالرشاد الباقي من أبناء أمته . واعجباً كيف يكون هذا وان الأمة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت على سوقها وألنعت وأثمرت وبأى ماء سقيت وبأى تربة غذيت ولا وقوف لها على الغلبة التي قصدت منها فى منشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من المثرات وإن وصل اليها طرف من ذلك فأنما يكون ظاهراً من القول لأتباء عن الحقيقة فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها وسوقها لى أذمتهم المشحونة بغيرها يقوم من أفكارهم ويعدل من أخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد فى إفادة إخوانهم .

لعل الأقرب أن ناقلى تلك العلوم وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها الا فساداً .

ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم . يكون منهم ما تعطيه حالهم يؤدون ما تعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطبائعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتية يظنونهم على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح فيرومون من الصغير ملا يرام إلا من الكبير ويالعكس غير ناظرين إلا الى صور ما تعلموه ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طبائعهم مكان يحمد أو يزيد لها على ما بها اضعافاً وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نقلة وحملة .

فهؤلاء الصادقون الا من وقفه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثله والدبة حنون يلد لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليسامها في اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه فيسرع اليه للمرض وينتهي به الى التلف فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية للجمع ويبندون اهريكات الالتام ان كان الفساد ابقى للقوم بعض الزوابط ، فهؤلاء المفرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا الا خيراً ان كانوا مخلصين ويوسعون بذلك للخصاص حتى تعود ابواباً ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب فيهم تحت اسم للتصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمتهم الى القضاء والاضمحلال وينس المصير .

شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصناعات والآداب وكل ما يسمونه تمناً وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام للطبيعة وسير الاجتماع الانساني . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم ازمان غير قصيرة ؟ هل صاروا احسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استغنوا لأنفسهم من اتياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات ما يلجنهم اليه الاجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا التحصون وسدوا للتغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الاعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار حداً يميل عزائم الطامعين عظيم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وان بلغت في سبيلها ، خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير من الأمم .

نعم ربما وجد بينهم أفراد يتنهيون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصونها في عبارات منطحة بقاء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند

هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم فقلبوا
لوضاع المباني والمساكن وبدلوا ميثاق المأكل والملابس والقرش والآنية وسائر
الماعون وتنقصوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الاجنبية
وعودها من مفاخرهم وعرضوها معرض المبهات ففسدوا بذلك ثروتهم الى غير
بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما تروق منظره ولا يحصد ثمره فاماتوا
لرباب الصناعات من قومهم وأملكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أن يقدموا
بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة والكماليات الجديدة لأن
مصنعيهم لم تتحول الى الطرز الجديد وأيديهم لم تعود على الصنع الجديد
وثروتهم لاتسع جلبه الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الامة
يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على
غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها .

علمتنا التجارب ونطقنا مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة
المتطمين أطوار غيرها يكونون فيها منقاد وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون
مداركهم مهبط الوسائل ومخازن الدسائس بل يكونون بما أقمعت اقتنتهم من
تعظيم الذين يظنونهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شوما على لبناء أمتهم ينلونهم
ويحتارون أمرهم ويسعون بجمع أعمالهم وإن جلت وإن بقي في بعض رجال
الامة بقية من التمس لو نزوع الى معالي اليهم اتصبوا عليه ولرغموا من أنفه
حتى يحس أثر الشهامة وتخدم حرارة الغيرة ويصير لوائك المقلدون طلائع
لجيوش الغالبين ، ولرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ثم
يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون
أن قوة تغالب قواهم . أقول ولا أخشى لوما لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل
من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الاتجيز لما بارحوها أبد
الأبد . فلن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك والركون الى قوة
مقلديهم واستقبال عشارق قنوتهم فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى
يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها سقالاتهم ولهذا لو

طرق الاجانب ارضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم
ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقومهم ويكونون بطئة لهم ومراضع
النقمة ، كما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى
أعقابهم .

فما لاحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت
الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة لسواء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت
ضيق والخطب شديد . . . أي جهوى من الأصوات يوقظ الزاقدین على حشيا
الغلات . أي قلصة ترعج الطباع الجامدة وتحرك الأفكار الخامدة أي نفخة
تبعث هذه الارواح فى أجسادهما وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها .
الاقطار فسيحة الجوانب بعيدة المناكب . المواصلات عسرة بين الشرقى
والغربى والجنوبى والشمالى . والرؤوس مطرقة الى ما تحت القدم أو منغضة
إلى ما فوق المعاء ليس للابصار جولان الى الامام والخلف واليمين والشمال ولا
للاستماع اصغى ولا للنفوس رغبات ولا لهواء تحكم والوساوس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ماذا يحاولون والأخطار
محدقة بهم باى سبب يتمكنون ورسى المنايا على أبوابهم لا أطيل عليك بحثا ولا
أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان ولكنى استفتت نظرك الى سبب يجسج
الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل . ارسل فكرك الى نشأة الأمة التى حدثت بعد
النباهة وضعفت به القوة واسترقت بعد العناية وضيمت بعد الثمينة وتبين أسباب
نهوضها الاول حتى تتبين مضارب الخلل ، جزئهم الخلل يكون ما جمع كلمتها
وانهض همم آحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على
رؤوس الأمم وتسومهم وفى نى مقامها بدقيق حكمتها انما هو دين قويم الاصول
محكم القواعد شامل لأشراع التحكم يناعت على الالفة داع الى المحبة مزك
للنفوس ، مطهر العقوب من لئان الخسائس ، منور العقول بأشراق الحق من
مطالع قضاياه ، كمثل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية ،
وحافظ وجودها وينادى بمحتثيه الى جميع نروع المدنية .

فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت فما تراه من عارض
خللها وهبوطها عن مكانتها اما يكون من طرح تلك الاصول ونبذها ظهريا
وحدوث بدع ليست منها فى شئ ، اقامها المعتقدون مقام الاصلو الثابتة ،
وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله وما أعدته الحكمة الالهية له
حتى لم يبق منه إلا اسماء تذكر وعبارات تقرأ فتكون هذه المحنثات حجابا بين
الامة وبين الحق الذى تشعر بنداثة أحيانا بين جوانحها •

فعلاجها الناجح اما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ باحكامه على
ما كلن فى بدايته ولرشد العامة بمواعظه لقواقية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق
وايقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الارواح لشرف الامة ولان جرثومة الدين
متأصلة فى النفوس بالوراثه من احقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفى زواياها
نور خفى من محبته فلا يحتاج القائم باحياء الامة إلا الى نفخة واحدة يسرى نفعها
فى جميع الارواح لا قرب وقت فاذا قاموا لشؤونهم ووضعوا أقدامهم على طريق
نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا
بسيرهم منتهى الكمال الانسانى •

ومن طلب اصلاح امة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها
شططا وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس
عليه القصد ولا يزيد الامة إلا تحسا ولا يكسبها إلا تعسا •

هل تعجب أيها القارئ من قولى ان الاصول الدينية الحقّة المبرأة عن
محدثات البدع تنشئ للام قوة الاتحاد وانتلاف أشمل وتفضيل الشرف على لذة
الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهى بها الى أقصى
غاية فى المدينة • ان عجبت فان عجبك أشد • هل نسيت تاريخ الامة
العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية واشتات واتيان الدنيا
والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقوامها وهدبها ونور عقولها وقوم
اخلاقها وسدد احكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل
والانصاف وبعد ان كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدينة ومقتضياتها

نبيتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الى
ديارهم طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس وهيئة بطليموس وحكمة افلاطون
وارسطو وماكاتو قبل الدين في شئ من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما
كانت قوتها ومدينتها في التمسك بأصول دينها .

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الاقطار وطلب السيادة على
الامصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنيا
وبعد الغايا وعلو المقاصد ، هي التي هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفقتهم
عن معاطاة الرذائل ، وخسائس الأمور وسوافلها ، ثم بعد مضي زمان من نشأتها
أصابها من الانحطاط ما أصابها ، فيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا
مستقلا في آخر عدد ان شاء الله ، وهو الموفق للصواب .

انحطاط المسلمين وسكونهم

وسبب ذلك

{ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا }

إن للمسلمين شدة في دينهم وقوة في إيمانهم وثباتا على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل . وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض . ومما رسخ في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفاية لسعادة الدارين ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء . وهذه الحالة كما هي في علماتهم متمكنة في عامتهم . حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الأرض عالما كان أو جاهلا أن واحدا ممن رسم بسمه الإسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل إليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقة والاسترجاع . ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به . بل وعلى جميع من يشارنه في دينه . ولو تكررت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقاها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتماك قلبه من الاضطراب ودمعه من الغليان . ويستغزه الغضب ويدفعه لحاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان . وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعضم الآثام، ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية ، بذل الأموال والأرواح وارتكاب كل صعب ، واقتحام كل خطب ، ولا يباح لهم المسالمة مع من يخالفهم في حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خاصة لهم من دون غيرهم ، وبألغلت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد أن عجز المسلم عن التملص من

سلطة غيره ، لو جبت عليه الهجرة من دار حربه • وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق ، ولا يغير منها تلويحات أهل الأهواء وأعوان الشهوات في كل زمان •

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة ، وما يفرض عليه الإيمان ، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألون لما يَأْلَمُ له بعضهم فأهل (بلوجستان) كانوا يرون حركات الانجليز في (أفغانستان) على مواقع أنظارهم ، ولا يجيش لهم جأش ولم تكن لهم نعة على إخوانهم ، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانجليز في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون ، وأن جنود الانجليز تضرب في الأراضي المصرية ذهاباً وإياباً وتقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة في نفوس لخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم ، بل السامعين لخبرها من خلائيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن شمالهم •

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة ، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجملًا منه : أن الأفكار العقلية والعقائد الدينية ومئات المعلومات والمدرجات والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم ، تكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في النفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار التي تلتزمها .

نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس إلى مرآة عقله من مشاهد نظره ومدرجات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ، فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر في داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار ، ما دام الأرواح في الأجساد ، وكل قبيل هو للأخر عماد •

إن نلاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والالتحام لولا ما تبحث عليه الضرورات ، وتلجئ إليه الحاجات ، عن تعاون الانسباء والعصبية على نيل المنافع ، وتضاققهم على دفع المضار ، وبعد كروار الأيام على المضائق والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه في آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية كالإحساس بالجوع والعطش والرأ والشبع ، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعدّه طبيعياً . فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات الحياة في وقت منالوقات الى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدّها ، أو وجد صاحب النسب من يظهره في غير نسبة أو الجلّة ضرورة الى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسيبة ، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض . إننا لم يصحب العقد الفكري ملجئ الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تتطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على لا فكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من اشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وإنما يعد في الصرو العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الأصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك العيب في سكون الملمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم ، والعلة في تباطؤهم عن نصرة إخوانهم ، وهم أثبت الناس في عقائدهم ، فثبت له لم يبق من جامعة بين المسلمين في الإغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعرف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عن بعد عنهم ، والعالم الهندي في غفلة عن شئون العالم الافغاني وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط

بينهم ، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين أفراد العمة لدواع خاصة من صداقة
لو قرابة بين أحدهم وآخر ، أما في هيتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب
بينهم ، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذلك الهجران بين العلماء ، كانت كذلك بين الملوك
والسلاطين من المسلمين . أليس عجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في
مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية
صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح
أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد إلا طفيف من الإحساس بأن
بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون مواقع
أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام ، وهذا النوع
من الإحساس هو الداعي إلى الأسف ولتقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياح حق
مسلم على يد لجنبي عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعارضته .

كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض
ما أضعف الالتئام بين أجزائه ، فتداعت للتناثر والاحتلال ، وكاد كل جزء يكون
على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدأ هذا الاحتلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة
العلمية عن رتبة الخلافة وتما قنع للخفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن
يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان
الرشدون رضي الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية
القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان ، ثم انتلمت
وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام : خلافة عباسية في بغداد ، وفاطمية في مصر
والمغرب ، وأموية في أطراف الأندلس ، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها
وانحطت رتبة الخلاف إلى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج

طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب
الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة ونقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده
وتعمير تلك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلاً وإذلالاً حتى أذهلهم عن أنفسهم
فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الائتام بين الملوك والعلماء جميعاً ، وانفرد
كل بشأته أو اتصرف إلى ما يليه ، فتبدد الجمع إلى آحاد ، واقترق الناس فرقاً
كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب ، فضغفت آثار العقائد التي كانت
تدعو إلى الوحدة ، وتبعث على اشتباك الوشيجة ، وصار ما في العقول منها
صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن
النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب
عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين ، بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى
المسامع على طول من الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت ، كما
يكون على الأموات من الأقرب لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع
الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان
الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في
الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في
مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة
ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا امتز أحد أطرافها اضطرب
لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء
الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في
شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدتهم التنزيل وصحيح الأثر ،
ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة
وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من
قوارع العدول والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حاث الخل وتطرق الأجانب

للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأذهان وصيانة الدين من البدع ، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة ، وليس يخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها والتكادها على دفع ما يغشاها من النوازل .

إلا إننا نأسف غاية الأسف إذا لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفتت إليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الخيرة ، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتواتوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم ، فقد درستهم للتجارب ببيان لا مزيد عليه ، وما هو بالعسير عليهم أن يبتشوا الدعاة إلى من يبعد عنهم ، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا لأحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة ، لو ما يخشى أن يمسها بضرر ، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أنوا فريضة وطلبوا سعادة ، والرمق باق والأمل مقبلة ، وإلى الله المصير

التعصب

" اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء "

لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد الشرقية تلوكه الألسن وترمى به الأقوال في المحافل والمجامع حتى صار تكأة^(١) للمتكلمين ، بلجأ إليه العبي^(٢) في تهنته^(٣) ، والمقلتي^(٤) في تقيقه^(٥) أخذ هذا اللفظ بمواقع التمييز فقلما يكون عبارة إلا وهو فلتحتها لو حشوها لو ختمتها ، يعدون مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعا لكل غناء ، ويزعمونه حجابا كثيقا وسدا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للردائل ، والمتسربلون بسرابيل الافرنج الزاهبون في تقليد مذهب الخبط والخط لا يميزون بين حق وباطل ، هم أحرص الناس على التشديق بهذا البدع الجديد ، فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس ويعبثون باللحي ويرمون السبال ، وإذا رموا به شخصا للخط من شأنه أنرفوه للتوضيح باللفظ أفرنجي (ففاتيک)^(٦) فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا ، وهمزوا به وغمزوا ولمزوا ، وإذا رأوه عيسوا ويسروا ، وشمخوا بأنوفهم كبرا وولوه دبرا ، ونادوا عليه بالويل والثبور ، ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدا لكل شناعة ، ومصدرا لكل نقيصة ، وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته ؟

للتعصب قيلم بالعصية ، والعصية من المصائر للنسيية ، نسبة إلى العصبة ، وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته ، وينفعون عنه الضيم والعداء ،

(١) التكاة : ما يتوكأ عليه (٢) العبي : من العى وهو العجز عن الكلام (٣) التهنته : ضرب من اللكئة (٤) المقلتي : السريع الكلام (٥) التقيق : التوسع والتطوع (٦) معناها : متعصب .

فالتعصب صف للنفس الانسانية ، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والنود عن حقه ، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها .

هذا الوصف هو الذى شكل الله به الشعوب ، وأقام بناء الأمم وهو عقد للربط فى كل أمة ، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد ، لو ينشئها بتقدير الله خلقا واحداً ، كبين تألف من أجزاء وعناصر ، تكبره روح واحدة ، فتكون كخص يمتاز فى أطواره وشؤونه وسعته وشقائه عن سائر الأشخاص .

وهذه الوحدة هى مبعث المبرة بين أمة وأمة ، وقبيل وقبيل ، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لهما من أسباب الرفاهة وهناء العيش ، وما تجمعها قواها من وسائل العزة والمنعة ، وسمو للمقام ونفلا للكلمة ، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ما تسه الطاقة .

للتعصب روح كلى مهيطة هيئة الأمة وصورتها ، وسائر أرواح الأفراد حواسه ومشاعره فلذا لم بأحد للمشاعر مالا يلائمه من لجنبي عنه لتفعل للروح الكلى ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار للحمية العامة ، ومسر النعرة الجنسية . هذا هو الذى يرفع نفوس أحاد الأمة عن معاطاة الدنيا ولارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، لو يؤول بها لى سوء عاقبة ، وإن استقامة الطباع ورسوم بالفضيلة فى أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والاتحام بين أحمادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حى ، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبة الوجود وإنما كل يودى وظائفه لحفظ البدن وبقائه .

وكلما ضخت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الاعصاب ، ورثت الأطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الأمة إلى الاتحلال كما يتداعى بناء البنية البننية إلى اللغناء ، بعد هذا يموت للروح الكلى ، وتبطل هيئة الأمة وإن بقيت أحمادها ، فما هى إلا كالأجزاء المتناثرة ، إما أن تتصل

بإبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، وإما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الأخرى . (سنة الله في خلقه) إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم الله بالقتل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر فيتسع للجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بقاضة روح التعصب في نشأة ثانية .

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حد اعتدال وطرفا إقراط وتفریط ، واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياء والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياء ، والإقراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر إلى الأجنبي عنه كما ينظر إلى الهمل ، لا يعترف به بحق ، ولا يرعى له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتقلب منفعة التعصب إلى مضرة ويذهب بهاء الأمة ، بل يتقوض مجدها ، فإن العدل قوام الاجتماع الإنساني ، وبه حياة الأمم ، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيورها إلى الزوال ، وهذا الحد من الإقراط في التعصب هو الممقوت على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم في قوله " ليس منا من دعا إلى عصبية " .

التعصب كما يطلق ويراد منه التفرقة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فاطلقوا على قيام الملتحمين بصلة الدين لمتاصرة بعضهم بعضاً ، والمتطعون من مقلدة الأقرنيج يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالنس . ولا نخل مذهبهم هذا مذهب العقل . فإن لحة يصير بها المشرقون إلى وحدة ، تتبعث عنها قوة لدفع الغلات ، وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب ، وقد كان من تكدير العزيز العظيم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإنساني ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات

معيشتة ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتد ورابطة
المشرب .

فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض إذا
وقف عند الاعتدال ولم يدفع إلى جور في المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف
لهم لم نقض لئمتة ، فهو فضيلة من أجل للفضائل الإنسانية ، لو فرها نفعاً
وأجزلها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، إذا استحكمت صعدت بنوى المكنة
فيها إلى لوج للسيادة ونزوة المجد ، خصوصاً أن كانوا من قبيل قوى فيهم
سلطان الدين ، واشتكت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على
الزوال كما في أهل الديانة الإسلامية ، على ما أشرنا في العدد الثاني من
جريدتنا .

ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط ، فإنه كما يطمس رسوم
الاختلاف بين أشخاص وأحاد متعددة ، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم
والأعمال ، وكذلك يصور أثر المنايذة والمناقرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس
المتخالفة في المنايبت واللغات والعادات ، بل المتباعدة في الصور والأشكال ،
ويحول أهواءها المتضاربة إلى قصد واحد ، هو تأصيل المجد وتأييد الشرف ،
وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم هذا الأثر الجليل عهد لقوة التعصب ، وشهد
عليه التاريخ بعد ما أرشد إليه العقل الصحيح ، وما كانت رابطة الجنس لتقوى
على شيء منه .

تغثج جماعة من مترنفة هذه الأوقات في بيان مفسد التعصب الديني
وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضيقهم لدفع ما
يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذي يضدهم عن سير إلى كمال
المتينة ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم في ظلمات الجهل ،
ويجعلهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم ، ومن رأى
لوائك المنقذين أن لا سبيل لدرء المفسد واستكمال المصالح إلا بإتخاذ تعصبيه

الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الاسلامي ، ويخوضون في نعية مذام التعصب اليهم .

كتب الخراصون ، ان الدين لو لمعلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف ، وأرحم مؤيد وأبصر مروض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة ، والخلق الكريم ، وقيمها على جادة العدل ، وينبه فيها حاسة الشفقة للرحمة ، خصوصاً بين الاسلام فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة ، وسما بها إلى أن ترى مرآة الحكمة والمدنية في أقرب مدة ، وهي الأمة العربية .

قد يطرأ على التعصب الديني من التغلّي والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي فيقضى إلى ظلم وجور ، ربما يؤدي إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم ومحق وجودهم ، وكما قامت الأمم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض التنك والإبادة لا للفتح ولا للدعوة إلى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الامبائوليون بمسلمي الانلس ، وكما وقع قبل هذا وذلك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي ، إن صاحب السلطان من المسيحين جمع اليهود في القدس وأحرقهم إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة ، ثم يرجع لأرباب الدين إلى أصوله القائمة على قواعد السلام والرحمة والعدل .

لما أهل للدين الاسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الاجيال الماضية الا انه لم يصل بهم الاقراط الى حد يقصنون فيه الابادة واخلاء الارض من خالفهم في دينهم ، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو وجود المل المختلفة في ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائلدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عتقون القوة وهي في وهن الضعف ، نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطتهم ، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الأديان ، ويرعون حق الأئمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من

العمال المختلفة حقّه ، وينفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة في نفوسهم :

(أن من رضى بزمنا فله ما لنا وعليه ما علينا) ولم يحلوا في معاملتهم لغيرهم عن امر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهدوا لله ولو على أنفسكم أو للوالدين والأقربين) اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية . ومن نشأة المسلمين إلى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم إلى ما يستحقه من علو للرتبة وارتفاع للمكانة ، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها إلى المراتب العالية كثير من لرباب الأديان المختلفة ، وكان ذلك في شبيبته وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ما كان ، وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل إلى اليوم (فسخاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم) .

لم يسلك المسلمون من عهد قريب مسلك الإلزام بدينهم والإجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدليات دولهم ، وتغلغلهم في اقتتاح الأقطار ، وانتفاعهم بالبسطة في الملك والعلامة ، وإيما كانت لهم دعوة يبلغونها ، فإن قبلت والا استبدلوا بها رسماً مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شورط عائلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي ، هذا على خلاف منتصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فإتهم ما كانوا يطأون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم ، والتطوق بدين لوائك المصلطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسورية ، بل في البلاد الفرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام سابق إليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك إلى سابق الحديث فيما كنا بصدد : هل لعقل لم يصب برزينة في عقله أن الاعتدال من التعصب الديني نقيصة ، وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون به التعصب الديني أقسى وأظهر وأعم فائدة . لا تخال عاقلاً يرتاب في صحة ما قررناه فما لوائك القوم يهزرون بما لا يدرون؟ أي أصل من أصول العقل يستندون إليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي

فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ، ويجرون عنه بمحبة الوطن، وأى قاعدة من قواعد العمران البشرى فى التهاون بالتعصب الدينى المعتدل وحساباته نقيصة يجب الترفع عنها .

نعم لن الاقترنج تأكد لديهم لن أقوى رابطة بين المسلمين انما فى الرابطة الدينية ، ولذكوا لن قوتهم لا تكون الا بالعصبية الاعتقادية ، ولأولئك الاقترنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية وزينوا لهم حجر هذه الصلة المقدسة وقصم حبالها ، لينتقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ، فاتهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء لجمعون لن للمسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم ، وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدوهم على التفسير من العصبية الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنبس التى يبالغون فى تعظيمها واحترامها حمقا منهم وسفامة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهوى لنفسه مسكناً سواء فاضطر للاقامة بالعراء معرضاً لقواصل الجو وما تصول به على حياته .

من هذا ما سلك الانجليز فى الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدا بهم وفى دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى استرداد ما سلب منهم ، ولرشداهم البحث فى طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية وما دام الاعتقاد للمحمدى والعصبية المليية سائدة فيهم فلا تؤمن بعنتهم إلى طلب حقوقهم فاستهوا طائفة ممن يتسمون بسمه الاسلام ، ويلبسون لباس المسلمين ، وفى صدورهم غل ونفاق وفى قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون فى البلاد الهندية بالنيجرية أى الدهريين فاتخذهم الانجليز أعواناً لهم على فساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الدينى ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا نائرة غيرتهم ، ويبندوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة كبيرة فى (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل

بين الهندي حتى نعم الضعف في العقائد وتُورث أطناب الصلوات بين المسلمين فيستريح الانجليز في التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم ، وعز أولئك الغفل المترندين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة (تعس من يبيع ملته بلقمة ونمته يرذل العيش) .

هذا أسلوب من السياسة الأوروبية أجالت الدول اختباره وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتتال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الجبال في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الإسلامية ، ولم تعد صيداً من الأمراء والمنتعشين إلى العلم والمدينة الجديدة ، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم ، وليس عجبنا من الدهريين الزنادقة ممن يتسترون بلباس الإسلام أن يميلوا مع هذه الأهواء الباطلة ، ولكننا نعجب من ، بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم بسفكون الكلام في نم التعصب الديني ، ويهجرون في رمى المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين ، يطلبون محو التعصب المعتل ، وفي محوه محو الملة ودفعا إلى أيدي الأجانب يستبعدونها ما دامت الأرض أرض والسماء سماء .

والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الأفكار بين الشرقيين ولا يخلون من تبشيع التعصب الديني ورمى المتعصبين بالخشونة . الافرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه ، ومن القواعد الأساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، وإذا عدت عالية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذاهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلاً ومعات ونياءات تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية

وينادى جميعهم : ألا قد ألت ملة ، وحدثت حادثة مهمة ، فاجمعوا الأمر
وخذوا الأمانة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا يتخلص الجامعة
الدينية ، وتراهم على اختلافهم ، فى الاجناس وتباغضهم ، وتحاقدهم وتباذهم فى
السياسات ، وترقب كل دولة منهم ، لعثرة الاخرى حتى توقع بها سوء يتقاربون
ويتآلقون ويتحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم ، فى
الدين وإن كان فى أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم ،
الأنساب الجنسية .

لما لو فاض طوفان للقتن وطم وجه الأرض وغمر البسيطة من نماء
المخالفين لهم فى الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرض ولا يتنبه لهم إحساس
بل ، يتغفلون عنه وينرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون
عما لودع فى القطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما
يعدون الخارجين عن دينهم ، من الحيوانات السائمة والهمل الراعية ، وليس من
نوع الانسان الذى يزعم الاوروبيون انهم حماة وأنصاره ، وليس هذا خاصا
بالمعتننين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون
للمعتننين فى تعصبيهم الدينى ، ولا يألون جهداً فى تقوية عصبيتهم ولينهم يقفون
عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه . لما ان شأن الاقرنج فى تمسكهم بالعصبيية
الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة فى الحرية كجلاستون ، ثم لا تجد كلمة
تصدر عنه ~~إلا~~ ^{وأنها نفثة} من روح بطرس الراهب ^(١) بل لا ترى روحه إلا
نسخة من روحه ، (انظر إلى كتب جلستون وخطبه السابقة) .

فيا أيتها الأمة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، واماؤكم فلا تريقوها ،
ولرواحكم فلا ترفقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت . هذه هى

(١) هو داعية الحرب الصليبية .

روابطهم الدينية لا تفرقكم لوسوس ولا تستهويكم الترهات ، ولا تدهشكم
زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال
الرابطة الدينية التي هي احكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى ، والفارسى
بالهندي ، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم قمام الرابطة النسبية حتى ان الرجل
منهم ليألم لما يصيب أخاه من عذابات الدهر وإن تنأت دياره ، وتفاصت أقطاره .

هذه صلة من امتن الصلوات ساقها الله إليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم
وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها ، ولكن عليكم فى رعيتها ان تخضعوا لسطوة
العدل ، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ،
وعليكم ان تتقوا الله وتلتزموا أوامره فى حفظ الذمم ، ومعرفة الحقوق لأربابها ،
وحسن المعاملة وإحكام الألفة فى المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم
وجيرانكم من لرباب الأديان المختلفة ، فإن مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم ،
كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم ، وعليكم أن لا تخطوا عصبة الدين وسيلة
للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد
العقاب . هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصره على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل
تضاقروا بها على مباراة الأمم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومناقضتهم
فى اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية .

اجمعوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وأخذ كل كمنكم
بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال وتعاونوا على البر والتقوى ولا
تعاونوا على الاثم والعدوان .

الوحدة الإسلامية

وأطيعوا الله ورسوله ولا تتأرعوا فتفشلوا أو تذهب ربحكم *

أظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكائى على حدود الصين فى عرض ما بين فلان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء أقطار متصلة ، ودائر متجاورة ، يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يخالب . أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام ، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلا . ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم على ، ولا يرد قول على قائلهم . قلاعهم وصياصبيهم متلاقية ، ومنابتهم ومغارسهم فى سهوبهم " أراضيهم السهلة الواسعة " وأخياقهم " الأراضي المنحدرة عن الجبل " رابية مزدهية بأنواع النبات ، حالية بأصناف الأشجار ، صنع أيدي المسلمين ، ومدنهم كانت آهلة مؤسمة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها ويدائعهم ، وتفاخرها بشموس الفضل ، وبدور العلم ، ونجوم الهداية ، من رجال لهم المكان الأعلى فى العلوم والآداب .

كان فى نقطة الشرق من حكمتهم ابن سينا والفارابى والرازى ومن يشاكلهم ، وفى الغرب ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم ، وما بين تلك أمصار تتراحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية ، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة فى جميع طبقات الأمة . كان خليفتهم العباسى ينطبق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين ^(١) وترتعد منها فراتص أعظم الملوك فى أوروبا . ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوى وملكشاه السلجوقى ، وصلاح الدين الأيوبي ، وكان منهم

(١) فغفور : لقب ملوك الصين

فى المشرق مثل تيمور الكوركاز ، وفى الغرب العيبطان محمد الفاتح .
والسلطان سليم والسلطان العثمانى ، أولئك رجال قضوا ولم يظروا الزمان نكرهم
ولم يمح أثرهم .

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى فى البحر الأبيض والأحمر
والمحيط الهندى ولها الكلمة العليا فى تلك البحار إلى زمان غير بعيد ، كان
مخالفوهم يدينون لملكوت قضاهم كما يذلون لسلطان غلبهم ، والمسلمون اليوم هم
هم يملكون تلك الأقطار التى ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن أربعمئة
مليون ، وأفرادهم فى كل قطر بما اشريت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع
إقداما على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد الناس ازدياء بالحياة الدنيا
وأقلهم مبالاة بزخرفها للباطل ، جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين
بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى
الفضائل وعقائد أصفاه ، فأودع فى أفكارهم جراثيم الحق وينثر فى نفوسهم
بنور الفضل ، فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهنا وأشد استعدادا لتبيل
الكمالات الإنسانية ، وأقرب إلى الاستقامة فى الأخلاق ، وربما يرون لأنفسهم
من الاختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصائق من اظهار
شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون ، لا يرغبون بسلطة لغيرهم
عليهم ، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم ، وإن بلغت
من الشدة أو اللين ما بلغت . لما بينهم من الإخاء المؤزر بمناطق العقائد ،
يحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الأجانب سقوط
لنفسه . ذلك إحساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسليا ، وبما ساخ (غاص
ورسب) فى نفوسهم من جذور المعارف التى أرشدتهم إليها دينهم ، ونالوا منها
النصيب الأعلى فى عنفوان دولتهم ، يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم
بالفضل .

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم الآن ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم
بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصناعات بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم ،

وأخذت ممالك تنقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا سلطة من يخالفهم بل الركن الأعظم لديهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منزعى كل ذى شوكة فى شوكته . هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون . هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن أن الله لشترى منهم لإعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لزلز إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة فى إرادتهم وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم .

نعم يوجد للتقصير فى انماء العلوم ، والضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم ، لأننا بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة ، والسلطين فى جنس واحد ، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات ، فشغلوا أفكار الكفاة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت للمغالبات وهى أشبه شئ بالمنازعات للدخلية إلى الذمور عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير فى طلب ما لم ينالوا منها ، والاعسار دون الترقى فى عوائلها ، ونشأ من هذا ما نراه من اللاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف فى القوة والخلل فى النظام ، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة واتشاق العصا ، فلهو بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم .

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين فى ميادين الوغى ، لا يجاريهم فيها سواهم من المل ، ولكن ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فأنقلبوا مع الهوى ، وضلت عنهم غابات المجد المؤئل ، وقنعوا باللقاب الأماره وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف

لهم فى الدين والجنس ، ولجأوا للاستتصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالى والتعيم الزائل .

هذا الذى أباد مسلمى الأندلس ، وهم أركان السلطنة التيمورية فى الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الانجليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الإسلامية ودهورتها أمانيهم السكاذبة فى مهاوى اضعف واللوهن ، قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون ، أولئك اللاهون بلذاتهم ، العاكفون على شهواتهم ، هم الذين بددوا شمل الأمة ، وأضاعوا شأنها ، وأوقفوا سير العلوم فيها ، وأوجبوا الفترة فى الأعمال النافعة ، من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدى بنيها .

ألا قاتل الله الحرس على الدنيا والتهالك على الخسائس ، ما أشد ضررهما وما أسوأ اثرهما ، نبتوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه ، فاختلفوا والعدو على أبوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا فى الكلمة الجامعة ، حتى ينفخوا غارة الأبعاد عنهم ، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم ، ماذا أفادتهم المغلاة فى الطمع والمناقسة فى السفاסף ؟ أفادتهم حسرة دائمة فى الحياة ، وشقاء أبدى بعد الممات ، وسوء نكر لا تمحوه الأيام .

أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم ، لتعارت أرواحهم وانتلفت أحاديثهم ، ولكن والأسفا تخلصهم أولئك المفسدون النيون يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى . هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب .

الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية ، من أشد أركان الديانة المحمدية ، والإعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين ، لا يحتاجون فيه إلى استاذ يعلم ، لا كتأ يثبت ، ولا رسائل تنشر . إن رعاية المسلمين فضلاً عن علام تنصاعد زفراتهم ، وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاء على ما أصاب

ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء ، ولولا وجود الغواة من الأمراء ،
نوى المطامع فى السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، وشمالهم بجنوبيهم ،
ولبى جميعهم نداء واحداً إن المسلمين لا يحتاجون فى صيانة حقوقهم ، إلا إلى
تتبع أفكارهم لمعرفة ما به من الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه
وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار .

لم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الأصول الثلاثة ، هى أمة
متأخرة فى الفنون الصنائع عن سائر أمم أوروبا وليس فى ممالكها ينابيع للثروة ،
ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية ، فهى مصابة
بالحاجة والعوز غير أن تتبع أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمنهم واتفاقهم
فى النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسب أوروبا . لم
يكن للروسية مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ،
ولم يرتق فيها الفن الحسكرى إلى حد ما عليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعداها عن
جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها ضولة
تخيف ، وحيلة تخشاه دول أوروبا .

فما الذى أقعدنا عن مشكلة غيرنا ، فيما هو أيسر الأشياء علينا ، ونحن أشد
للناس ميلا إليه : من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على صون
الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يتلهمها ، ماردا الأفكار عن الحركة ، وما أقعد
الهمم عن النهوض ، إلا أولئك المترفون ، يحرضون على طيب فى المطعم ،
ولين فى المضجع ، وتطاول فى البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ولا يراعون فى
حرصهم ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع ، يقتنعون
منه بالاحتفال لهم فى المواسم والأعياد وهز الرؤوس وشى الأعطاف ، تعظيما
وتبجيلا ، ثم تذليل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . هؤلاء الساقطون
يرضون لتخيل هذه الموائل (جمع مثل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنينة ،
هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم فى بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون

موته ، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب ، لاحول ولا قوة إلا بالله .

أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويا نسل الأقيال ، هل ولى بكم الزمان ، هل مضى وقت التذكير ، هل آن لوان اليا ، لا ، لا ، معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم ، إن من أكرمه إلى تيشاور دولا إسلامية متصلة الأراضي . متحدة العقيدة يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، ليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الأمم ، ولو اتفقوا فليس ذلك بيدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم ، هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ، ليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله (إنما المؤمنون أخوة) فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب .

لا ألتمس بقولي هذا أن مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا ، فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم للدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهدده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقائه ببقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات ، هذا أن الاتفاق ، هذا أن الاتفاق ، ألا إن الزمان يواسيكم بالقرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا ، إن البكاء لا يحيى الميت ، أن الأسف لا يرد الفائت ، أن الحزن لا يدفع المصيبة ، أن العمل مفتاح النجاح ، إن الصدق والاخلاص سلم الفلاح ، إن الوجل يقرب الأجل ، إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحنف (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ألا لا تكونوا ممن كره الله قبيحتهم فثبطهم وقيل إعدوا مع القاعدين ، أحرصوا أن تقعوا تحت قول الله : (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) أن القرآن حي لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب

من مقتته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه ، وحكموه في أحوالكم وطباعكم (وما الله بغافل عما تعملون) .

ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بملاقاة أمرهم ، قبل أن يقضى عليهم ، بما رزئ به المفرطون من قبلهم ، ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن أعلام مرتبة ، وأقوام شوكية ، ولا ترتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

العروة الوثقى

مصادرتها في مصر والهند وفرض غرامة على قرائها !!

لتعقد مجلس الوزراء المصري في القاهرة واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى وزارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بأن تشتد في منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية وتراقب جولاتها في تلك الديار . فصدر أمر الداخلية إلى إدارة عموم البريد يلزمها بالدقة في ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها بصورة الأوامر ، أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز في مصر !!) أما نحن فلا نظن أحداً من الوزراء المصريين له رأى اختياري في هذا القرار ، بل لا نتوهم في المستوى على كرمسى الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الحكم ولا يخلج في صدورنا أن مصرياً من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقياً ممن سكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل .

هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستجداء لهم ولها سعى ، بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القذح في عمرو فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا وإنما عملها مكب مياه النصيح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد . نلتبس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم وبأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع للضواري التي فغرت قواها لالتهامهم . ومن رأيها أن الأشغال بدخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق التأهب . هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبتها عن دياره . ولكننا نعلم أن حركات الأمرين في

لقطر المصري هذه الأيام قهرية لا يحلّطها شيء من الاختيار ، والمدير لرحى
القهر عليهم هم عمال الإنجليز .

ولا نريد أن نقول للإنجليز أنهم ظلموا في الحكم ، فإن الجريدة لم يوجد فيها
إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مسايرهم
وبيان الرزايا التي أصيبت بها اليدار المصري منطولهم ، لأنهم - الإنجليز -
الذين أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند وإقبال الناس عليه
بالاعتبار أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله إليها يفتح
له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلى آية
من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه ويسأله هل أنته معتقد بهذه الآية أو
الحديث ، فإذا قال نعم قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا
فإذا أجابه : إنني درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لأنه
كتاب ديني ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو
الحديث فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ولم يبدل عقيدته ولم يناصر
بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع لطبع وينشر ،
بعثت به الحكومة إلى جزيرة أنتومان نفياً مؤيداً ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها
غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين ، فدولة الإنجليز التي تحاسب رعايها المسلمين
على خطرات قلوبهم وما يمكن أن يهجم في حديث نفوسهم لا ريب أنها تعد
وجود لفظ الإسلام في جريدة كافياً لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قسم ثابت
أو تسعى في تثبيتته بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصاً علق هذا الاسم من أي
جنس كان . فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن لها أن
همم الرجال لا تقعد أمتثال هذه المظالم وليس يحجزنا إختلال هذه الجريدة في كل
بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة تلك بعزائم أولى انعزم الذين قاموا بإنشاء
العروة الوثقى .

بلغنا أن بعضاً من الناس يعمل سيفه ويشحذ سنده لئلا تضلّ الولي الحميم
ويقابل ثأره بالذم ومدحه بالقدح وإحسانه بالإساءة يواجه نصيحته بالظنة ولا نظن

أن هذا منه عن عمد ولا إغراء **عدو** ، ولما قولشبهة حجبت نظره عن ترك الحقيقة ، فإذا كشفت نه الأيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه وكنت له مثابة إلى الحق وركون إلى الصواب .

لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى من دخول القطر المصري وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها في هذا المنع . فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شئ فيها سوى الدفاع عن الشرقيين وإنما منشؤه حكومة اتجلترا وشأتها معلوم عند كل عارف بأحوالها .

الحكومة الاستبدادية

(نشرت بالعدد رقم (٢٢) من جريدة " مصر " الصادرة بتاريخ الجمعة

١٤ فبراير سنة ١٨٧٩م - الموافق ٢٢ صفر سنة ١٢٩٦ هـ) .

إن طول مكث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين الذين كان اختلاف
أهوائهم الناشئ عن تضاد طباعهم ، وسوء تربيتهم مع علم وجود رادع يردعهم
ومانع يمنعهم وقوة خارجية تصادهم في سيرهم سبباً لوجب التطاول على
رعاياهم ، وسلب حقوقهم ، بل اقتضى التصرف في غرائزهم وسجاياهم ،
والتغير في فطرتهم الإنسانية حتى كانوا أن لا يميزوا بين الحسن والقيح ،
والضار والنافع ، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوة
المقدسة ، والمقدرة الكاملة والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذي
تخضع لديه البسائط والمركبات ، ويطيع أمره الناقد جميع المواليد من الحيوان
والنبات ...

وإن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تريل البصيرة ، وتستوجب
المحو التام ، والذهول المتعسرق ، بلى تستدعى التنزل إلى المرتبة الحيوانية...
ومداولتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن
حقيقة الإنسان ، وتعلمه بولجياته ، وما يلزمه في معاشه ، وتبين له الأسباب
الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية ، وتمكنه من دفعها والسعى في إطفاء نورها
بما ورثوه من سفه القول ، وسخف الرأي ، والجد في اضمحلال كتبها ، وضياع
آثارها ، واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبداً ...

كل هذه الأسباب .. تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بيد شرقي في
البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية ، وبيان حقيقتها ومزاياها ، وسعادة
نوابها الفائزين بها ، وأن المسوسين بها أعلا شأناً وأرفع مكانة من سائر أفراد
الإنسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون ما عداهم ، فإن
الإنسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه سوى القانون الحق المؤسس على دعائم

العدل الذي قد سته لنفسه يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية ، وتصده عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ويوضح عن فوائدها وثمراتها . ويبين أن الحكومية بها قد هزتهم القطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية والترقى إلى أول درجات الكمال . وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة ، وتطلب مشاركة لولى أمرهم فى آرائهم ، وكبح شره النهمين منهم الطالبيين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم

ولهذا أضربنا عن ذكرها ، وأردنا أن نذكر فى مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصر الذاتى ، وأقسامها الحقيقية التى هى عبارة عن أمير أو سلطان ووزراء وأمورى إدارة وجباية تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : منها الحكومة الفارسية وهى التى تكون أركانها - مع اتسامهم بصفة الإمارة والوزارة والإدارة والجباية - شبيهة بقطاع الطريق ، فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة ويسلبهم أموالهم ومؤونهم وثيابهم التى تقىهم الحر والبرد وسائر مواد حياتهم ، ويتركهم فى البوادر والقفار جفاة عراة جياعا تقطعت بهم حبال الوسائل ، ولا يلاحظ أن منهم الهرم والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعون التخلص من المهالك ، ولا يقدرّون على النجاة ولا يبالى بموتهم وهلاكهم عن آخرهم ولا تأخذه فى تلك الشفقة والرحمة .

كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضياع رعايائهم وعقاراتهم ويستولون على مساكنهم وبساتينهم ، وينتزعون بالضرب والحبس والكى وغيرها من أنواع العذاب ، ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم ، ويدعونهم فى خاليب المصائب ، معرضين للأسقام والآلام ، وأهدافاً لسهام البلى التى ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسمومية ، ولا يخشون اصمحلالهم وإيلانتهم بالكلية ، ومحق حياتهم

بالمرة ، بل ربما يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم ، ولا يشعرون بأنهم قوام
السلطة وأساسها ، ومن أفراد هذا القسم الحكومة الجنكيزية والتيفورية وغيرهما
من حكومات التتر والبرابرة ، كما تشهد بذلك التواريخ . .

القسم الثاني : الحكومة الظالمة :

وأولياء هذه الحكومة يمثل الأخساء المترفين الذين يستعبدون إناساً خلقوا
لحرراً ظلماً واعتداءً ، فكما أنهم يكتفون عبيدهم بأعمال شاقة ، وأشغال صعبة ،
ويجبرونهم على نقر الأحجار وخوض البحار ، ونقل الصخور ، وقلع الجبال ،
وطى المفاز وجوب البلاد فى زمهرير الشتاء وهجير الصيف ، ويؤلمون
أبدانهم بالسياط إذا مالوا (أنا ما) إلى الراحة التي تجذبهم الطبيعة إليها ،
ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام (حياة) هؤلاء المظلومين عن مزايا جوهر
عقولهم المقتصة حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر فى الآفاق وفى أنفسهم
كى يرتقوا من الإحساس البهيمى إلى عرش الإدراك الإنسانى ، ويشاركوا أبناء
جنسهم فى اللذائذ الروحية ، ويجتثوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها مع
الصناعات البدعية ، والمخترعات الرفيعة ، فيسعدوا مع السعداء ، ومع ذلك
يحرصون حياتهم ، ويحرصون على استبقائها استيفاء للخدمة منهم بتقديم قوت من
لرأى ما يقات به لشد الرمق ، ونياب خشنة رثة ، لتحفظهم من أظفار العواصف
وبرائن القواصف ، فلا يكون حالهم مع سائتهم إلا كحال البهائم والأنعام
الأهلية ، لا يعيشون إلا ليغرمهم ، ولا يتحركون إلا برضاه ، بل بمنزلة آلة غير
شاعرة بأيدي مستعبدتهم ، يستغلونهم كما يشاؤون .

كذلك هؤلاء اللواة مع رعاياهم ، فإن للرعاي لا يزالون يتحملون المتاعب
والأوصاب ، ويكدون أيام سنيهم ، ويسهرون لياليها مشغولين بلا فتور بالغرس
والحرث والحصد والدرس والندف والحلج والغزل والنسج ، مهتمين بالحدادة
والتجارة والملاحة والتجارة ، ساعين فى حفر الأنهر وإنباع المياه ، وإنشاء
الجدول والجسور ، متكبين آلام التعرب فى الحر المبيد ، والبرد المميت ، كى

ينالوا رغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، ويحوزوا الراحة والرفاهة ، ويفوزوا بالحظ والسعادة ...

وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعى فى سلب ما بأيديهم جبراً وغصب ثمار مكاسبهم ، وفوائد متاعهم رغماً ، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكد يمينهم ، وعرق جبينهم ، سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار ، وتحمل تلك المصاعب ، لا يفتاتون إلا بكسرات عن خبر رثئة ناشفة يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور ولاتهم القاتكين ، ولا يسترون أبدقهم إلا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين ، ولا يسكنون إلا فى الأكنة المنخفضة والأخصاص الخسيسة كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الإنسانية ، ولا يشاهدون إلا بوجوه مخبرة مقشرة مقفرة ، وتدوم عليهم هذه الحال للرثئة التي نشأوا عليها والمعيشة الدنيئة التي اعتادوها حتى هؤلاء الولاة عما منحوه من فضيلة العقل إلى رتب البهيمة لا يحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ، ولا يتألمون إلا بالآلام الجسمانية ...

ومن أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين فى الأزمان الغابرة ، والأوقات الحاضرة ، وكذلك أكثر حكومات الغربيين فى الدهور الماضية ، ومنها أيضاً الحكومة الإنجليزية الآن فى الأقطار الهندية .

القسم الثالث - الحكومة الرحيمة ، وهى تنقسم الى قسمين :

الأول منها : الحكومة الجاهلة ، ودعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل ، فكما أنه يحث أبناءه شفقة منه على اقتناء الأموال ، واكتساب الثروة ، واستحصال السعادة والاقتصاد فى المعيشة بدون أن يبين طرقها ، ويمهد لها سبلها ، لعدم علمه بها ، ويدعوهم رافة إلى المجاملة والمودعة ، ورفع الشقاق والنزاع من بينهم بغير أن يحدد لهم الواجبات ، ويقدر الحدود اللازمة للإدارة المنزلية لقصور إدراكه عنها فكانه يدعوهم إلى أمر مجهول مطلق لا يهتدون إليه سبيلاً ...

كذلك هؤلاء الدعاتم الرحماء الجهلاء يطلبون من رعاياهم السعى في المكاسب والصنائع والتمسك بالتجارة والفلاحة والتسبيط بالعلوم والمعارف ويغرونهم على مجارة الجيران ، ومباراة أهل العرفان ، والتعلق بأسباب النجاح والفلاح بلا تشييد المدارس المفيدة ، وتأسيس المكاتب النفاة ، وتسهيل طرق المعاملات ، وبث فنون الزراعة جهلاً منهم ، ويريدون من أولئك عرعايا التباعد عن الشقاق والتفاق ، والاحترار عن الاعتداء والاعتصاب والتجنب عن الفساد والعناد والحيث والميل في الحقوق ، والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة العمومية بلا تعيين ناموس عادل حافظ للحقوق معين للحدود ، فاصل للقضايا ، قاطع لما يطرا من التوازل ، جامع لجميع ما يحتاج إليه الإنسان في اجتماعاته المدنية ...

ومن أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض السلاطين المجبولين على الشفقة المطبوعين على للرأفة الذين كانوا يكون على سوء أحوال رعيتهم مع جهلهم بما يصلح شأنها والسير بذلك ناطقة ...

الثاني - منها الحكومة "عالمية" ، وهي تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الحكومة "الأقنية الفرة" وأقانيها تضاهي الأب العالم المأقول، فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه إلى العناية بأحوال أبنائه ، وتفسره عليها ، وأن علمه بأسباب الترف والثروة وعلل المعيشة الهنيئة المرضية يقوده إلى الاهتمام بتأديبهم بأحسن الآداب وتعليمهم الفنون وتمريضهم على الحرف ويجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة ، ويحدد لهم حقوقهم ولكنه بعد ذلك يتركهم وشأنهم لضعف رأيه وقصر نظره وجهله بأن ملازمة الشباب للآداب واجتنابهم ثمار معارفهم التي اكتسبوها ، واجتهادهم في المكاسب ، لا تكون إلا بقوة حافظة ما لم تمكنهم التجارب لما جبلوا عليه من الميل إلى الشهوات والانعكاف على البطالة ، والتقاعد عن الفضائل ، فينووون في هوية التعاسة ، وتذهب مساعيهم

سدى •

كذلك هؤلاء الأقاتيم يحضرون بيوت العلم ، ويشيدون دور المعارف ،
وينشئون المعامل ، ويوسعون نطاق التجارة ، ويوظفون على تشييع سياسة مدنية
تشييعاً للحقوق ، واستتباباً للراحة على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال رعاياهم ،
ولكنهم لعدم تدبرهم فى العواقب ، وعدم تبصرهم بأن اقتدار انتظام أحوال العباد
وسير أمورهم على نهج العدل ، ونيلهم غاية بغيتهم من مساعيهم إلى العلة المبقية
كافتقارهم إلى العلة الموجدة لا يوظفون على أعمالهم هذه ، ولا ينظرون إليها
نظرة ثانية ، بل ينبذونها ظهرياً ، ويتركونها نسياً منسياً ، فيتطرق إليها الخلل ،
ويعتريها الفساد ويسرى إليها التحلل كما جبل عليه الإنسان من الحرص
والشره والميل إلى الجور والاعتداء المستزمنة لمخالفة القانون ، فيقع كل فى
للعطب والنصب والشقاء والعناء ، ويستولى عليهم الفقر والفاقة ، ويصبرون
كأرض مظلومة بتوالى تطاول أذى جائرهم ، وتحاقب اعتساف معتديهم ، ويشبه
أن تكون حكومة المامون وبعض سلاجقة إيران من أفراد هذا القسم .

القسم الثانى - الحكومة المنتطسة :

وأساطينها الحكماء ، وتضارب الأب المتدبر المتبصر الذى لا يبرح ساعياً
فى إعداد الأسباب الموجبة لسعادة أبنائه زمن حياتهم ، وتهيئة معداتها القريبة
والبعيدة ، ولا يتجافى أنا ما على مواظبة دقائق حركاتهم وسكناتهم وتقد شئونهم ،
واستكناه أحوالهم ، ولا يتقاعد لمحة عن تأييدهم فى سيرهم بأرائه السديدة ،
وأفكاره الصائبة ، خوفاً من التواني والكسل ، والإهمال والفشل ، وخشية من
عروض الموانع التى تصدهم عن البلوغ للغاية .

فتجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة ، وحياة الرعايا
بالزراعة والصناعة والتجارة . . . ويعرفون أن كمال هذه الأمور وانتفاعها لا
يكونان إلا بأمرين أحدهما هو فى الواقع عليهما الأولى العلوم الحقيقية النافعة
والفنون المفيدة التى لا يمكن حصولها والفوز بها إلا بمدارس منتظمة ومدرسين
ماهرين متخالفين بأخلاق فاضلة ، شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم ،
وذلك لهما إعداد آلات الزراعة وألوات الصناعة وتسهيل طرق التجارة البرية

والبحرية ، ويقتضون أن حفظ أساس المدينة ، وصون نظام المعاملات ، وفصل المنازعات ، وكيف يدّ التحدى ، ومنع المدلسين ، وكبح الأشرار ، وردع الفجار لا يكون إلا بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والإنصاف ، وأنها لا تتحقق إلا بقانون حتى لا يغتر صغيره ولا كبيرة حتى أرش الخدش^(١) .
محفوظاً بأمناء يقظين ، محروساً بعقول نشطين ، محفوظاً بعلماء فقيهن ، معززاً بقضاة قاسطين ، مؤيداً بحكام أوفياء ، وأعاون بررة .

ويندركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد ، ومناهج تمييز البلاد ، ووسائل درء المفاسد الاخلية ، وطرق منع النوازل الخارجية وأن القيام بذلك لا يكون إلا بضرب ضرائب عادلة عليهم ، يجمعها جباة عدول ، تصرف في منافعهم العامة لدى الضرورة بلا حيف وميل ، وانتخاب طائفة من طاهم الموصوفين بالصدقة وعزة النفس ، وعلو الهمة لحفظ الأمانة الداخلية ، ودفع الأعداء الخارجية ، ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة ، وصيانة استقلالها ، لا يكونان إلا بارتباطاتها السياسية ، وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى ، وإنها لا تتم إلا برجال عارفين دهاء متبصرين محبين لأوطانهم (لا كحسين أفندي فهمي شيخ الإسلام الأسبق في الأسئلة الذي كان يقول لعدو وطنه الجنرال أغنايف سفير الروسية بها - إنك عيني اليمنى وإن حيدر ابني عيني اليسرى كما ذكره حضرة مدحت أفندي في كتابه "المسمى بأس الانقلاب) ، متدربين متفكرين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها ، محيطين بطرق التجارة ، فيقولون بواجبات ما اقتضته حكمتهم ، وما أحاطوا به علماً ، ولا يتهاونون أنما عن أداء حقوق رعاياهم ، ولا يفتنون راحة أنفسهم بسعادة أولئك الضحفاء ، وزد على ذلك أنهم يدرون أن غالب أفراد الإنسان طبع على الحرص ، وفطر على الشر ، وجبل على الشهوة ، وخلق متهاوناً بواجباته ، متوانياً على إصلاح شئونه ، ونشأ

أرش شرعاً : ببل الدم أو الجنابة ، أو للأطراف كالدية للنفس .

على المكر والحيل ، وغرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير ، وعدم الاكتفاء بما ملكته يده ، وغرس فيه بعض الشرائع والقوانين حين ما يراها سداً يمنع عن سلوك سبيل الغدر ، وحاجزاً يردعه عن مقتضيات الشره ، وغلا يكف يديه عن التناول .

وإنهم يفهمون أن كل ما يقع في العالم الإنساني من المرض والصحة والفقر والغناء ، والنصب والراحة ، بل كل ما يقتضى الشقاء والسعادة ، ويوجب الإسلح والفساد لابد وأن يكون لإرادة الإنسان وحركته الاختيارية فيه دخل تام . ويدركون أن الإنسان مادام على هذه السجية والغريزة فهو كمرضى تتنازع أمراض خطيرة مختلفة لا ينجو منها إلا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج ، ويتفقد أثناء الليل وأطراف النهار ، فيهتمون بحكمة وشفقة بتتبع أحوال الرعايا وأفعالهم وحركاتهم ، ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم وأخلاقهم ولا يفترون عن تعديل ثروتهم وغنائهم ، وتقويم علومهم ومعارفهم ، وتجارتهم وزراعتهم ، وإحصائ عددهم وتعداد أحيائهم وأمواتهم ، ولا يتوانون عن مقابلة الصلح والورد في ممالكهم ، والمعادلة بين قوة حكومتهم ، واقتدارها واقتدار الغير وقوته كي يقتدروا على تدارك مصالح البلاد قبل تمكن الفساد ، ويقتربوا على جبر السكر ، وسد الثغر ، ورفع الخرق وإزالة جرائم الرزايا والمصائب ، وإيادة أسباب الخل والمصاعب ، وإذا لم يمكنهم القيام باستقصاء دقائق التعديل والتقويم ، وجزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة انتخبوا رجالاً يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها ، متبصرين بشئون الممالك وأسباب سعادتها وشقتها ، عالمين بنفون التجارة والزراعة والصناعة ولوازمها ، مهندسين محاسبين لأداء هذه المصالح وتسجيلها في السجلات بغاية الدقة والانتقان ، وعرض كليتها على هؤلاء الولاة الحكماء مع بيان مولود النقص والخلل ، وإيضاح أسبابها وغير خاف أن تسجيل المعادلات وحفظ الموازنات للدول ألزم من تقييد التاجر معاملاته في دفاتره اليومية ، فإنه لا يلزم من إهماله في التقييد والتثبيت إلا أن يضيع رأس ماله على جهل منه ، ويصبح مفلساً وهذا ضرر خاص به ، وأما إهمال الدول

فى حفظ المعادلات وتسجيل الموازنات فيوجب خراب البلاد ، وملاك العباد ،
ومن أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم
بالإستاتستيك .

فهناك يأبى الإنسان الشرقى ، صاحب الأمر والنهى ، حكومة رحيمة
حكيمه ، وعليك بهذا والقيام بشأنها ، وحفظ واجباتها ، وإلا فحياتك التى اقتديتها
براحة العالم ، أن تغفونا عن تحمل ثقل تمسبك بالرحمة والعدالة ، والحكمة
والقننة .

أتريد أن تظلمنا فكافئك بالشكر !! وتغصب حقوقنا ونجازيك بأثناء ؟؟ أو
تظن أنك تقدر أن تفر كل عالم وتعمى بصائرهم وأن تنزل بالملك عندهم منزلة
الحق ؟؟ وأن تجلس جورك مجلس العدل ، وأن تقيم سينتك مقام الحسنات ، وأن
تعد ردائك مقعد الفضائل ، ولعلك اغتررت بتمجيد المتملقين ، وتعظيم
المتبصبضين ، وتبجيل المنزلقين امامك ...

ويحك لو كنت تعلم مقامك فى النفوس ، ومنزلتك لدى أرباب البصائر
والعقول لو دعت هذه الدنيا الخسيسة التى ألهمتك ، وفارقت حياتك العزيزة التى
طالما قاديتها بالمروءة والإنسانية .

ولما أنتم يا أبناء الشرق فلا أخاطبكم ولا أنكرنكم . بواجباتكم فإنكم قد أفتتم
الذل ، ورضيتم بالمعيشة الدنيئة ، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف ، وصرتم
كالعجائز لا تقدرزون على الدراء والإقدام ، والجلب والدفاع والمنع والرفع .

فإنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

كتاب دائرة المعارف

(نشرت بالعدد رقم (٤٢) من جريدة " مصر " الصادرة بتاريخ الجمعة ٢٥

ابريل سنة ١٨٧٩م - الموافق ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٩٦ هـ) .

أن الإنسان باعتبار أقتومية المتجاذبين المتدافعين وهما جوهره النوراني ،
وهيكله الهيولاني الظلماني ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : وهو القسم الأعظم سواداً الأكثر أفراداً وهو الذي تتقلب فيه جنبته
البيهيمية الظلمانية على أصله العقلي الذي به قوام إنسانيته ، فتستعمله لقضاء
أوطارها من جلب الملاذ الحسية الجسدانية وتمهيد طرق الشهوات الجنسية
الحيوانية فلا يهتم إلا بالمأكل والمشرب والتفنن فيها ولا يسعى إلا لتزيين
الملابس ، وتشيد المساكن ، لا يدرك اللذائذ العقلية ، ولا يتطلبها ولا يسعى في
تحصيلها بل ينكرها ويسخر ويهزأ بمن يجتهد لنيلها والوصول إليها ، ولا يعقل
الفضائل الحقيقية فيميل إلى التحلي بها ، ولا يفقه الرذائل فيجنح للتخلي عنها ،
ولا يشتاق إلى المحامد فينزِع إليها ..

وهذا القسم وأن كان على صورة الإنسان إلا أنه في الحقيقة من البهم
والعجماوات بل أخط منها منزلة فإن حيواتاً ما من الحيوانات لم يهمل شيئاً مما
أودع الله فيه من الخواص التي تتأدى به إلى كماله الواجب بخلاف هذا القسم من
الإنسان فإنه قد أهمل أشرف خواصه وهي خلاصة العقل التي بها يمتاز عن غيره
من أصناف الحيوانات ، وقد ذهب عليه أن المأكل والمشرب والملبس إنما هي
مقاصد بالتبع لا بالذات يرام نيلها لاستبقاء الحياة كي يكتسب بها المعارف العقلية
والملكات الفاضلة ..

والقسم الثاني : هو الذي يبتغي لذة أخرى فوق اللذائذ الجسمانية بل كثيراً
ما يكف نفسه عن اللذائذ الحسية ويغدرها رغبة في استحصـال تلك اللذة وهو
ينقسم إلى قسمين .

أحدهما السلاطين والأمراء ونحو المناصب والرتب فمن هؤلاء من يتكشف في معيشته مأكلاً ومشرباً وملبساً ، ويصرف فكرته أثناء الليل وأطراف النهار ، ويتجافى عن مهال الراحة والدعة إلى وهلا التعب والمشقة ، ويتباعد عن السكون والطمأنينة إلى الاضطراب والحركة ، بل قد يقتصر من الوازم حياته على الضروريات التي لا يمكن التعيش إلا بها ، ولا يبالي بفقد ما عداها من الحاجيات والكماليات ، فهو بالحقيقة معذب الجسم ، مؤلم البدن ، يحمل نفسه على تحمل كل ذلك سعياً في توسيع الممالك ، وفتح البلدان وقهر السلاطين ، واستحصال المراتب العالية ، والمناصب السامية ، ليتمكن بذلك هيبة من القلوب ، وعظمة في النفوس ، ينال من الناس محمدة وثناء ، ويكون ذلك غاية لذته ، ومنتهاى مطلوبة ولا يعدو ما سواه لذة ..

وهؤلاء وإن طلبوا لذة روحانية إلا أنهم راموها من غير وجهها ، وأتوها من غير بابها ، فإن أعمالهم هذه لا توجب توقييرهم من النفوس ، ولا انطلاق الألسنة بالثناء عليهم خصوصاً عند نوى العقول والبصائر لما أنه لم يترتب عليها فائدة في العالم الإنساني ومع ذلك قد أخطأوا المرمى لأنهم قد اتخذوا لمقصدهم هذا وسائل النقل والنهب ، والقهر والسلب ، وإخفاق الباطل وإبطال الحق ، وتخريب البلاد ، وتدمير العباد ، وهذه الوسائل المشنومة قد انتزعت محبتهم من القلوب ، ونفرت منهم الطباع ، ونبذت التعظيم بالتحقر ، والمدح بالذم والثناء بالتلب لى المعارف العامى والعالم والجاهل وها هي كتب التواريخ مشحونة بمثالهم ومعائبهم ، وأطلال القرى ، ورسوم المدن المخصبة بدماء ساكنيها تشهد بشناعة أعمالهم ، وقبح مساعيهم ، وخروجهم عن حد الإنسانية إلى خطة السبعية والاقتراس حتى ترى أن أفضلهم وأنزههم لا يوصف إلا بعلم الظلم والجور والارتشاء وغير ذلك ، وليس يخاف أن هذه الأعدام لا تعد مدائح إذ ليس لهم حق في التعدي حتى يمدحوا بالكف عنه على أن مادحهم بهذه الأعدام لم يأتوا ذلك إلا كمدح بعض الأحاد بأنه ليس بسارق ولا مختلس مثلاً ..

الثانى : الحكماء والمتفنون والعلماء المؤلفون والعرفاء المخترعون ، هؤلاء هم الذين رفضوا مقتضيات الجنيبة الهيمية ، ونزهوا أنفسهم عن الصفات الخبيثة السلبية ، وبنلوا راحتهم ، وصرفوا نفيس عمرهم فى تجلية عقولهم بأنوار العلوم الحرفية ، والمهارات العقلية ، ونفوسهم بالصفات والأخلاق الكاملة ، بل أبت نفوسهم الشريفة ، وهمهم العالية أن تكلف بهم عند هذا الحد من الكمال أغنى تحصيل الفضائل القاصرة على نواتهم ، بل بنلوا الواسع ، ولجهدوا النفس فى نشر العلوم والآداب ، ووضع القوانين العادلة ، واختراع الصنائع المفيدة ، والقنون العالية وغير ذلك مما لا يقوم للنوع الإنسانى قائم إلا به ، لا يختصون بذلك جنساً دون جنس ، ولا وطناً دون وطن ، ولا يبتغون بذلك سوى لذة الكمال العقلى ، واستحصال المحمدة الحققة بما قلدوا به أعتاق أفراد النوع البشرى من نتائج أفكارهم ، وأقلامهم أعمالهم ، فصار توقييرهم فى النفوس ، وتظيمهم فى الأئدة فرضاً على كل شخص من النوع الإنسانى بالطبع ، إن أنكره لسانه شهدت به جوارحه وجنانه ، بل حازوا السلطنة الحقيقية فى المملكة الإنسانية لا لا يعزلون عنها بموتهم ، ولا تزول سلطتهم المعنوية الحقيقية ، ما دامت السموات . . .

انظر إلى سلاطين اليونان والرومان والفرس والكلدان قد محيت أسماؤهم من صفحات الأذهان لا يطلع عليها إلا المتوغلون فى قراءة التواريخ وسير الأمم، أما فيثاغورس وسقراط وأرسطو وأفلاطون ويزر جمهور وجلما سب فلا تزال الألسنة رطبة بذكرهم ، ناطقة بفضائلهم ومزاياهم ، والنفوس معترفة بعولافهم ، ومذعنة بعظمتهم ، وإن هؤلاء العظاما للفضلاء من الشرقيين والغربيين فى الأزمان الغابرة ، والأوقات الحاضرة بعد حلول جميعهم من الشرف مكاناً عالياً ، واستحقاقهم للمحمدة الحققة والثناء الخالص ، يتفاوتون فيهما على حسب تفاوتهم فيما حازوه من الفضائل وما ترتب على مؤلفاتهم ومصنفاتهم ومخترعاتهم من الآثار والفوائد ، فمن كان منهم فى المعارف أوسع دائرة ، وبالأثر أعم فائدة ، ولتى من الأعمال ما يقيم نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر ،

كان لحق بالمدح وأجدر بالشاء ، فيجب على كل من وضع قلمه في أولى جردات الإنسانية أن يقدم له الشكر والشاء على قدر طاقته قياماً بأداء الحق ، واستهاضاً للنفوس الخاملة لأن تتال ذلك المقام الأسمى ، والشرف الأعلى ..

ولهذا رأيت من القرض على أداء الشكر ، أصالة عن نفسي ونيابة عن كل عارف باللغة العربية الشريفة أن أنشر عطر الشاء على حضرة العالم الفاضل المتبحر " بطرس أفندي البستاني " مما لودعه في مؤلفه " دائرة المعارف " من القوائد الجلية والمنافع العيمة التي قد بمنتهى أعناقنا قائلنا " أن هذا المؤلف الفاضل فضلاً عن سنائر مؤلفاته كمحيط المحيط ، وقطر المحيط وغيرهما ، وقد أتى لنا بكتاب دائرة المعارف محيطاً بجميع ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين ، وأخبار الأنبياء والحكماء والمقربين ، وجغرافية البلاد وعلوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والحيوانات والحساب والجبر والهندسة والفلك وغير ذلك من الفنون الجميلة ، فمن وحيه الله أنسى عقل غريزي وكان لـ ÷ قل إمام بمبادئ العلوم فله أن يستغنى بهذا المؤلف عن تجسم الجلوس بين يد الأساتذة لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها ، وهذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان ، وألف عبارة ، وأرق إشارة ، غير أنني مع تلك لا أتمالك أن أظهر أسفى من أن هذا المؤلف لم يبرز بشأمة في عالم الوجود، ولست أتوهم أنه من فتور في همة المؤلف الفاضل ، ولكنه لقصور في رغبة الشرقيين فتوجه إليهم الخطاب قائلين :

يا أبناء الشرق .. إقلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم إنما كانت بارتفاع درجتهم في العلوم والمعارف ، واحتطاطكم فيها ، فلم لا تنتقد أحسابكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع وأمثاله حتى يبرز بمعدات رغبتكم ، وكمال شوقكم من عالم القوة إلى الفعل : هل رضيتم بعد ما كان لكم نروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف أن تكون لكم تلك الحالة الوخيمة التي أوصلتكم إليها الجهالات والضلالات حتى عانت ترق لكم قلوب الأعداء فضلاً عن

الأصدقاء .. فهايموا لاقتناء المؤلفات ، واقتناص صيد المعارف ، واعتصموا
بعمى الاجتهاد فى نيل العلوم ، واستضيئوا بسنا الحق ، لتسترجعوا مجدكم
وتتألوا استقلاككم ، فتفوزوا مع الفائزين •

• • •

خطبته بالإسكندرية

(نشرت بالعدد رقم (٤٧) من جريدة " مصر " الصادرة بتاريخ السبت ٢٤ مايو سنة ١٨٧٩م - الموافق ٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ هـ) .

(مقدمة جريدة مصر)

فى عيشة يوم الجمعة الماضى ، وفد على الإسكندرية سيدنا فهرست كتاب الكمال ، وفنكة حساب الجلال ، أستاذنا الأجل الفيلسوف الأكبر - السيد " جمال الدين الأفغلى " فابتسم له الثغر عن درر الهناء به ، وغرر الثناء عليه ، وسعى إليه النبهاء والوجهاء وما من جارحة فهم إلا وهى تود لو كانت أننا فنلقط درره وجواهره ، عينا ليتجلى مطالعه ومناظره ، وأعد له وجهاء الثغر وفى مقدمتهم جناب الفاضل الوجيه الحريص على حب العلم ورجاله جبرائيل أفندى المخلع ، وجناب المكرم نجل البارون دى منشى مآذب فائقة الحسن والظرف تأخذ باللب والظرف ، جامعة لمحاسن الكمالات ، وكمالات المحاسن ، متوفرة أسباب الهناء والسرور ، كاملة وسائل الأتس والحبور بما أبدى الوجهاء المشار إليهم من اللطف والإكرام ، بل كانت مجالس فضل وإفادة تلتقط بها الأسماع مما يلقى سيدنا الأستاذ المشار إليه بر الكلمات التى هى وسائط الآداب ، وصيقل الألباب . .

ثم اتصل ببعض شبان الإسكندرية الوجهاء انتهاء خيرى قدوم سيدنا الأجل المشار إليه إلى الإسكندرية ، فوفدوا عليه ليمتعوا الأبصار بأنواره كما تمتعت الأسماع بأخباره ، ثم سألوه أن يخطب فيهم خطبة عمومية يستفيدون من بيانها حكمة وأدباً ، فأجابهم إلى ذلك وخرجوا من لئنه يطلقون النعتهم بالثناء إليه ، ثم شكلوا لجنة منهم للاهتمام بشئون محفل الخطاب ، فاستقر رأيهم على أن يكون ذلك فى مساء الأربعاء فى قاعة زيزينيا ، ورفعوا الأمر إلى حضرة أستاذنا المشار إليه ، فوافق عليه ، ثم رأى أن يجعل لهذا السعى أثراً مفيداً حسياً فضلاً من أثره الأسمى المغنوى بأن يكون الدخول لذلك المحفل بأوراق ، تعين قيمتها

لإعانة فقراء الإسكندرية ، وكلف أعضاء اللجنة بذلك ، فترطبت ألسنتهم بالشكر
له ..

وفي مساء الأربعاء الماضي كانت قاعة زيزينيا محفلاً لينهاء الناس أحدثت
فيهم الأعين من الحجرات والمقاعد بروح الفضل والحكمة ، المتجسم في ذات
سيدنا الأستاذ ، وانفتحت الأسماع لالتقاط نر الفاظه الحكيمة ، والتشف بجواهر
أقواله الفلسفية ، فقام أعزه الله في تلك الجمع خطيباً يصل الألباب ويمهد مناهج
الأدب بالكلام البريء من الكلف ، حتى تمت الجوارح لو كانت كلها آذاناً تلتقط
درر حكمته ، وودت الأعضاء لو كانت بأسرها عيوناً تتمتع بأنوار رؤيته ، وقد
وعينا من نطقه الكريم ملخص خطابه الفائق الوضع ، الجيد الوقع ، الذي ارتفع
له حجاب السمع ، وانخفض له جانب الطبع ، فأثبتناه مع الاعتراف بانطباطه
عن الأصل ، فما هو إلا رسم لحقيقة ذلك الخطاب ، وشتن ما بين الحقيقة
والرسم .

خطبته

يا أيها السادة ، ويا أيتها السيدات ..

لرى من الواجب على أولي أنى على الجرائم الشريرة الشرقية التي
مضت عليها الدهور ، ومرت العصور ، وهى فى حالى الكمون فمنع الموانع
الخارجية ، وقصر القواصر الداخلية ، ومع ذلك لم تفقد مزاياها العالية ، ولم تحدم
سجاياها السامية ، بل برزت ونمت فرائد أصولها الشرقية سادة شرفوا هذا
المحضر لإعلاء كلمة العلم ، ورفع منار المعارف ، وتأيد أمر الفضل ، اعتقاداً
أن العلم سلطان عادل حكيم إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى والثروة لأنهما لا
يحصلان إلا بالتجارة والزراعة والصناعة التي لا تحصل إلا بالعلم ، ولزمه
الطمأنينة والراحة لأنه يحين الحدود ، ويبين الحقوق ، فيكون لكل الناس حظ لا
يتخطاه ، وحد لا يتعداه ، ووليته الحرية لأنه يبين للإنسان مقداره نفسه ، فيعرف
بذلك قدر غيره ولا يخضع لمن يتوهم فيه السيادة خضوعاً أصم ، ولا يطيع لمن

يعتقد به الرئاسة طاعة عمياء ، فلا يأخذ إلا بالقانون ولا يدين إلا للشرعية ، وتلك الشفقة لأنها لا تحصل إلا بأن يدرك الإنسان ما ألم بغيره من المصائب إدراكاً بصم تلك في خياله حتى كأنه يشعر بألمه ، وهذا الإدراك هو عين العلم ...
علماً بأن الجهل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر والفاقة ، ويواليه الارتباك والاضطراب ، ويلقيه للذل والعبودية ، وتلزمه القسوة والشراسة ، ولذلك فبني لغتم الشكر للأفضل للكرام والأرومات الشرفاء الأصول الذين اجتمعوا في هذا المقام لإحياء العلم الموجب لتلك المزايا ، ونفع للجهل الداعي لهذه المصائب ..

وثانياً .. إنه معطوم أن الأمة المؤلفة من طبقات الناس تمثل الشخص الواحد ، المؤلف من الأعضاء والجوارح ، فكما أن قوام الأعضاء ونموها ، يكون بالقوة الحيوية تقوى بازديادها وتضعف بضعفها على نسبة واحدة ، كذلك جسم الأمة لا تحصل لطبقاته القوة إلا بروحه الحيوية التي هي عبارة عن الميل إلى المعالي ، والشوق إلى الكمالات ، وليس بخاف عنكم ما ألم بروح الجنسية في الأمم الشرقية من الضعف والوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات ، فلا تولخذوا من قلم فيكم خطيباً أن رأيتم في صورته تهادجاً ، وفي عبارته قلقاً ، وفي معانيه اضطراباً ، فما الخطباً إلا من طبقات الأمة التي ألم الضعف بروحها الكلي فسرى إلى طبقاتها وأعضائها ، ولهذا فإذا رأيتم في خطابتي نقصاً فلا بد من التجاوز عنه لكوني رجلاً شرقياً ...

وإذا تقرر لي ذلك فإني أشرع في بيان المطلوب فأقول :

لا أريد أيها العباد أن أنكركم بمجد آبائكم للكرام ، وأنكم إما أن تكونوا من أبناء المصريين ، أو من حفدة الفينيقيين ، أو من سلالة الكلدانيين ، وإن المصريين قد بلغوا من الهندسة ثروتها ، ومن الحساب غايته ، ومن المساحة قاصيتها ، ومن فن جر الأعمال منتهاه ، وعلموا اليونان الحكمة والفلسفة ، بل أن شخصاً واحداً منهم قد بحث في اليونان روح المعرفة ، وعلمهم فن تدبير المنزل على ين كانوا ممجاً متوحشين ، وأبان لهم كيفية الزراعة والصناعة على حين

كانوا يتعيشون بالصيد والقتل ، وأن جل علمائهم ، ومعظم حكمائهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموه في مدرسة مصر العظيمة . . .

ولا أنكركم بالفينيقيين وأنهم وضعوا أصل الصناعة ، وخاضوا غلب البحار ، وكانت إنجلترا واليونان من مستعمراتهم ولا تزال أسماء بلاد أسبانيا (وسلاطينا) شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم ، وأن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة ولا التجارة ، بل كانوا يقدمون لجودهم كنوز الطبيعة ومعالناتها الثمينة ليأخذوا منهم الأقمشة والآلات ، وسائر ما يحتاجون إليه ، وأنهم علموا اليونان الخط وكان أعظم حكمائهم منسوباً إليهم وهو (تاليس الصوري) ولا أعيد نكر الكلدان جدوكم الأول الذين أنشأوا صناعة النحت ، وقسموا الفلك بالنواير ، وعرفوا معول النهار ومنطقة البروج ، ودائرة نصف النهار ، ووضعوا الإسطرلاب ، وعرفوا القطب ، واخترعوا الكرة ذات الحلقين ، لا أنكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين ، ولا تخافون فيه منكراً لو معترضاً ، فإن الهرمين والمسلات وأعمدة الكرنك تقف بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والنقص في النظرة ، وأن تلؤلؤ نينوى وأطلال صور وعبك ومنفيس وثيبة ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المنكرين الذين ينظرون إلينا بعين الاستخفاف والاحتقار ، وإنما أريد أن أعطف نظركم إلى حالتنا الحاضرة فأنكم علمون بما حصل لنا من الانحطاط ، وما حاق بنا من النذل والهوان ، وأن النوائب قد خففت منا ، والأجائب انقسمت بدارنا ، ولا شك أن هذا حادث من الحوادث فلا بد له من علة يوجد بها ويعدم بعلمها ، وبعبارة ثانية إنه قد وضع في دائرة الوجود عوالم متعددة ولكل منها مركز يكون بمنزلة شمس تجذب توابعها بحبال الجذبات اللستيكية التي تكفح تارة وتجذب أخرى وترسل إليها رسل الأشعة حاملة عناصر الحياة ، وإنه قد وضع في كل نبات وفي كل حيوان من التغذية ما هو حافظ لنفسه ومن التوليد ما هو حافظ لنوعه ، ولا شك أن ما وضع فينا من قوى الإدراك لم يكن إلا لتعال مراننا من السعادة

فلا بد أن يكون لحرماننا من تلك الأمنية مانع ، وإنا سهرنا الموجودات سبباً
فلسفياً فلا نجد لتأخرنا غير سببين أصليين هما : التعصب ، والاستبداد .

فلما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين ، فلما إذا نظرنا بعين المتأمل
البصير إلى انتشارعين من عهد " مهاتيو " إلى " زرنشت " إلى " موسى " إلى "
عيسى " إلى " محمد " (صلى الله عليه وسلم) لا نجد في شرائعهم إلا الدعوة
لمعرفة مبدأ حق وهو الله ، والحث على الفضائل وفعل الخير والزرع عن
الردائل والشرور وبعبارة ثالثة لا تلقى بها إلا الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، ولكننا إذا نظرنا إلى الكثير من الذين تبعوهم فإنا نراهم قد استعملوا تلك
الشرائع للشقاق والنفاق ، واتخذوها وسائل لإضرار الفتن ، ووسائل لإلقاء المحن
حتى لمكن للشاعر العربي أن يقول :

إن الديانات لقت بيتنا إحنا ولودعنا أقاتين للعداوات

وما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداء فاستعمله في قتال
الأحباء ، فلبس ما كانوا يفعلون . . .

ولما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأى واحد من الناس
لا تتحرك إلا بإمرائه ولا تفعل إلا لأمره ، فإذا كانت الأمة على هذه الصورة
لزمها لا محالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة
شخص واحد فيكون لكل فائياً فيه ، ومن المعلوم أن الرجل الواحد لو انفرد في
العقل والذكاء والهمة وعلو النفس لا يستطيع جلب السعادة فضلاً عن جلبها لأمة
كبيرة . وما هنا يمكن لي أن أبشركم بأن قد زال عنا هذا المانع بما نلناه من
الحكومة السورية فلم يبق إلا أن تسولي في صيانتها وتأييدها ، ولا تكتفوا بمجرد
حصولها إذ لا يخفى عنكم أن الحكومة هي كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية ،
فلا بد لها من استمداد للغذاء الجديد وإلا فإنها تزول كغيرها من الأجسام بما يطرا
عليها من التحلل .

وحيث إننا شعرنا بالآلم ، وعملنا بسقوطنا في هذه المهواة ، وأن أنفسنا تميل إلى الخروج منها فلابد لنا من البحث عن الدواء الحقيقي لهذا الداء الحادث ، فإذا رجعنا إلى بصيرتنا التوراتية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب ، فإن المتحرك لا يسكن ، والسكن لا يتحرك إلا بالعلة ، ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة ، فهي المحركة للنفوس الداعية إلى المجاراة والمباراة والباعثة على الاهتمام والإقدام على قدرها تأتي العزيمة ، وترتفع القيمة ، وعلى حسب تأصلها في الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم إلى معارك العز والثروة ، وهبوطها إلى دركات الذل والفاقة .

ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسهم ، ولا قوة لأمتهم ولا فخراً إلا بوطنهم ، وأنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء إلى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة في الثوب الجديد ، أو بمنزلة العبد الذي يفتخر بسيدته ، ولهذا أرجو منكم أيها السادة أن تقيموا حزباً وطنياً يصون لوطنكم حقوقه ، ويحفظ عليه بهاءه ، على أنى لا ألومكم على انتماء بعضكم إلى الأجانب فإن ذلك لم يكن إلا فراراً من الظلم ، وحصراً على الحقوق الإنسانية والمدنية ، ولكنى أومل منكم أن تؤيدوا أمر الوطن ، وتشيدوا فيه الحكومة الشورية ليستقيم أمر العدل والإنصاف ، فلا يعود بكم من حاجة إلى حماية الأجنبية بل تمزقوا أوراق الانتماء ، وتذاكر حمايات حتى يكون شرفكم منكم وإيكم ، وحمايتكم في ظل قوانينكم ، ولا تكونوا رقعة بالية في ثوب الأجنبي "جديد" . . .

ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطنى لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة مهذبة التراكيب جيدة الأساليب ، فإن لم يكن لهم ذلك ، لا تستقر فهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم ، وإن ذهب جماعة كثيرة منهم إلى أوروبا ، وتعلموا اللسان الأجنبى ، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال ، ووطنهم يكون كلبلد الذى لا ماء فيه يجلب لأهله الماء من ضواحيه ، فهو عرضة للظما وسوء الحال ، وأمله على شفا الاضمحلال .

فلن سأل سائل كيف يمكن بث الغيرة ، وإنشاء الحزب الوطنى ، وإحياء اللغة قلنا : إن معظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا إنما هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الألباء ، وينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق ، ويعين الواجبات ، ويتكرنا بمجد آبائنا ، ونل أبنائنا ويرينا حالة الأجنيبين وما هم عليه من القوة والثروة والمجد والسطوة ، فنعلم أسباب السقوط ووسائل الهبوط ، ويتبع ذلك إنشاء الجرائد الحرة القائمة بأمر الوطن بأطراف الحق ، فاتها تقرب الأقصى باللفظ الموجز ، وتبئ بأخبار السلف ، وتبين لنا أحوال جيراننا ، فترينا المصالح والمفاسد لتجنب تلك ، وتجنب هذه ، ولا شك أنه لا بد فى عالم المدينة من كل منهما ولا يمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما ، ولا فرق بينهما ، إلا أن الخطابة تحرك الدم بحركة الخطيب ، وقوة المشافهة ، ولن الجرائد تثبت المطالب فى الأذهان بإعادة النظر إلى ما أثبت فى الصحائف .

ولكنى أجلكم أيها السادة عن أن تحسبوا أنكم تتالون مزايا المدنية ، وتحوزون المعارف والعلوم ، وتستكملون أسباب التقدم والسعادة ، وتبلغون ذروة المجد والشرف إن كان العلم فيكم مقصوراً على الرجال . . بل أعينكم من أن تجهلوا أنه لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهل ، ومن محبس النذل والفاقة ، ومن ورطة الضعف والخمول ، مادامت النساء محرومات من الحقوق ، وغير عالمات بالواجبات ، فانهن الأمهات اللواتى تصدر عنهن التربية الابتدائية ، والأخلاق الأولية ، ولا شك أن أول ما ينقش فى لوح ذهن الإنسان يكون ثابتاً صعب الزوال ، وقد قيل " العلم على صغر كالنقش فى الحجر " وأقول إن هذا النقش هو السبب الأصلى فى اختلاف المذاهب ، وتنوع المشارب ، فلن وجدت فيه الكدورة فلا صفاء فى الذهن ، ولا سلامة فى المشرب ، ولكن إذا كانت الأمهات عالمات عاقرات بحقوق الإنسانية ، متأديات على ما تقتضيه أحكام الشرف والمدنية ، فلا شك أن أولادهن يخلقون بأخلاقين ، ويكتسبون عنهن تلك المزايا الفاضلة ، وعندى أنه إذا حصل التساهل فى تربية المرأة وكان رجال الأمة جميعاً راخصين فى العلم والمعارف ، مترفين فى درجات الكمال ، فلا يمكن بقاء

لأمة على تلك الحال المكتسبة إلا مدة بقاء أولئك الرجال ، فإذا انقضوا ،
خاتم الأبناء المتخفون بأخلاق أمهاتهم على ما يهن من النقص في الكمالات
العلية ، رجعت أمهم إلى ما كانت عليه من الخسف وسوء الحال ...

أقول هذا وفي يقيني أن حلمكم يقيني الملام ، وأن تلطفكم يضمن لي حسن
الختام ... اهـ ...

خاطرات

جمال الدين الزمخشري الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بحث فى كل أمة نذيراً ، وأرسل خاتم النبيين محمداً سراجاً منيراً ،
وأُنزل عليه " وَمَنْ يُوْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا " والصلاة والسلام على
سائر الانبياء والمرسلين هداة الخلق إلى الحق وعلى آلهم وحسبهم أجمعين .

تمهيد

إن هذا الكتاب (خاطرات جمال الدين الأفغانى) قد كتبت مواضيعه فى
دور السلطان عبد الحميد ، ما بين سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ / ، إلى سنة
١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م ، على كمال الاحترار ، بل الخوف من شدة المراقبة ،
ووفرة الجواسيس ، وكثرة الاقتراء فى ذلك الزمن على الأبرياء خصوصاً على
السيد جمال الدين ، وعلى من كان يكثر الاجتماع عليه ، أو يدخل بيته .

فالمطالع له الآن ربما لا يرى فيه كبير أهمية ، ولكن إذا أرجع النظر إلى
ما قبل أكثر من ثلث عصر ، وإلى أن مواضيعه تحررت فى الآستانة ، وأن تلك
الأفكار ، والاقوال لم تحور ، ولم يطرأ عليها أدنى تغيير ، يعلم خطر أمرها .
كذلك لا بد للمطالع أن يرى مواضيع الكتب غير متسلسلة والسبب فى ذلك أنها
لم تكن فى موضوع أو مطلب واحد ، بل هى أحاديث بعضها بنى على
الحوادث ، وبعضها أتى على سبيل السؤال والاستفهام ، وبعض الآخر على
سبيل الجدل مع آخر ، ومنها ما هو عفواً وبغير مقدمة . فأثبتنا الجميع على
علائها وكيفية صدورهما .

على أثر إعلان الدستور العثمانى توهم كثير من أصدقائى الذين يعلمون
بوجود (خاطرات جمال الدين) أن الزمان قد حان ، وأن أوان نشر الكتاب بعد
ذلك الطى والخفاء .

وأنتى عدة رسائل من إخوانى فى مصر ، وممن لا معرفة بينى وبينهم من
أنحاء الهند يستحثوننى على سرعة طبع الكتاب ، فما كنت أن أبأشر الطبع إلا

ورأيت في مقال جمال الدين تحت عنوان " الأحزاب في الشرق " ما ينطبق على حال رجال جمعية الاتحاد والترقي من أثره ، ولأنتية ، وكتب الأمانى التي منوا الأمة بها وذهبت هباء منثوراً .

فراى لقيف من الأصحاب خطراً على الكتاب أن يحرم ، وعلى المنتظر أن يحرم ، فرأينا التأجيل للوقت الأنسب أولى ، والسلامة لأدعى .

مرت سنون ونحن على طبع الكتاب بين إقدام وإحجام حتى كانت سنة (١٣٢٩ هـ - ١٩١٢ م) إذ أعانت الأصدقاء للكرة في مقنمتهم بعض أرباب الصحف الأفاضل يطلبون نشر الكتاب .

فنشطنا لتلبية الطلب ونشرنا فهرست الكتاب مطبوعاً ؛ وما فرغنا من إذاثه إلا ونجو السياسة أخذ يتعكر صفاه ، ومخاوف بعض كبار موظفى الاتحاديين أخذت تبدو من مواضيع كتاب يخلعون حقيقة أنه لم يقصد به تقرير أشخاص أو تفهيم أعمال هيئات ، أو قلب حكومة ما . ثم أعقب تلك شوب الحرب الكونية ، فاحتلال الحلفاء البلاد ؛ ثم تقطيعها إلى دويلات . الخ - فاضطررنا أيضاً بحكم تلك العوامل أن نرجئ النشر ولكن ليس إلى يوم النشر .

والسبب الذى حمل على تكوينها هو أن المرحوم السيد جمال الدين بعد مقدمه الأخير للاستتابة أو استقدامه إليها من عاصمة الانجليز أوائل عام ١٣١٠ هـ . ومكنه فيها إلى أن توفاه الله لم يكن له من الآثار مطبوعاً أو غير مطبوع^(١) يجمع ما كان يجول فى نفسه من تلك المخدرات من معانى الحكمة التي نزلت عليها آية الحجاب فى تلك الديار وما لاقاه ، مع شدة عارضته ، وقوة عزمه ، وعدم مبالاته فى القهر ، ومناهضته المتغلبة من الحكام ، وتحمل الجور منهم فى سبيل نهضة الشرق ؛ وما كان يرمى إليه من سامى الغرض فى طلب

(١) نعم ترك رسالة فى " نفى مذهب الدهريين " كتبها فى الهند وقد أدرجناها برمتها فى آخر هذا الكتاب .

الحرية الحقيقية وإعطاء العدل حقه ، بالتوزيع بين طبقات النوع الانساني .

فكنت من يوم وقد على القسطنطينية ألزم له من الظل في عزلته ، سهل ذلك على ميله رحمة الله عليه ، وقرب الدار والجوار (في مجلة نيشا نطش) فكشفته بلزوم تكوين عمله ، وما تكنه سرائره من الحكمة ، وناقذ النظر وثقوب الرأي لنفع النوع .

فكانت تلك الرغبة منى في بداية الأمر لا يبالي بها كثيراً ، ولا يتلقاها لقاء حسناً ، ولكن في الأخير رأى في طلبى حقاً ، ولمح منه للشرق وأمله نفعا ، قبل أن يؤخذ عنه وأجاز بقوله : سل ما تريد يا شيخ بنى مخزوم واكتب ما تسمع واحفظ ما تراه ، وقبل كل شيء ألقت نظرك لأمر ربما أنت ملاقيه فخذ له من الحذر عدة ، ومن التحمل درعاً ، إذا سلمت في كتابة خاطراتي من خطر الطاغية ^(١) وطواغيته - يعنى جواسيس السلطان عبد الحميد - فستصادف من أهل الجمود عنتاً وتخرصباً ، وقلباً للحقائق فلا تبالأ بهم ، فما خلا الكون منهم يوماً ليخلو زمناك ، ولا نجا منهم مخلص لتجو أنت ؛ ولسوف تعثر بأفاس دينهم التنقيد لا حياً بتمحيص الحقيقة واستجلائها وإنما دأبهم وما يرمون اليه أن يقال : قام فقال ، وانتقد واعترض ، فمثل هؤلاء ربما يخدمون الحق ، وينشرون الفضيلة من حيث لا يريدون ولا يشعرون فأعرض عنهم وقل لهم سلاماً . انتهى قوله بالحرف .

(١) وعواقب ملك الروم .

مقدمة المؤلف

قبل الدخول في ترجمة حياة جمال الدين المدونة في متفرق المطبوعات أقول ما اختبرته بالذات : انه رحمة الله عليه كان غير مغرور بنفسه كثير الاستخفاف بكل من كان يخاطبه : بدولتكم ، أو سماحتكم ، أو كان بطريه بالفلسفة ، والتبريز بالحكمة ، والتفرد بالخطابة واحتقار الموت وغير ذلك مما هو متصف به حقيقة من المزايا والصفات العالية ، وكان يقول : يهمني أن أصل من كل هذه الصفات للطمانينة القلبية فقط أنني استطعت في حياتي أن قلت الحق ولم أكتمه لا رغبة ولا رهبة بل جهرت به ، وأني بلغت من الشجاعة مرتبة فعلت معها بعض ما أقول .

وقد ذكرت له يوماً أن بعض أصدقائي ^(١) من محبيه على البعد يرغبون في الحصول على ترجمة حاله ايزينوا - على اصطلاح أرباب الصحف - أعمدة جرائدهم بها .

فابتسم السيد وقال :

إن العيان لا يحتاج الى ترجمان . قل لهم ما قاله فلان عنى ، وكان داء البصد من المعاصرين قد نفشى ، خصوصاً بعد إقبال جلالة السلطان عبد الحميد عليه ، واحتقائه به ، بأحبوا أن يضعوا من قدر جمال الدين فقالوا عنه انه " سرسرى " يعنى متشرد ، تائه في الارض . وهذا ما يعنيه بالقول عنه .

(١) وهو المأسوف عليه صديقنا جرجى زيدان صاحب مجلة الهلال وكان طلبه هذا على خلاف ما اعتادته مجلته اذ كانت لا تنشر الا تراجم مشاهير الرجال بعد وفاتهم - وهكذا جرى وقد بعثت له بترجمة جمال الدين بعد وفاته كما سيأتى ذلك اذ لم يتيسر لى ليرسالتها وهو حي أما الهلاك فلم ينشر الترجمة كما بعثها بل نشر قسماً وأغفل قسماً وقد أتينا على السيرة بنمائها .

فقلت لا ينبغي للاستاذ الحكيم ان يضمن على اهل عصره بما ينفعهم ولا
يضره . قال :

واى نفع لمن ينكر لثنى ولدت سنة ١٢٥٤ هـ ، وعمرت أكثر من نصف
عصر ، واضررت لترك بلادى " الافغان " مضطربة تتلاعب بها الأمواء
والأغراض ، وأكهرت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ،
لو إن شئت قل نفيت منها ، ومن الأسف ، ومن أكثر عواصم الارض . كل هذه
الاحوال - خاطرات (١) - لا تسرنى وليس فيها لثنى فائدة للقوم .

لما للقول بأنها لا تسرنى ، لا بمعنى لثى نفيت من البلاد ، لو سجنتم كلاً
لأثى اعتقد ان السجن يطلب الحق من الظالمين العتاة " رياضة " ، والنفى فى
ذلك السيل " سياحة " ، والقتل " شهادة " وهى لسمى المراقب .

(١) كنت سميت هذا الكتاب بعد ان اخذت بتحريره (جمال الدين الافغانى فى البلاط
السلطاني) : فلما منع منى هذا وقته عنوان للكتاب نقر قاتلاً : ان هذا العنوان ليس لهذا
المقال بطريق . قل " خاطرات " ولا تزد . فاجبت لثى اقول . ولكن نيهنى الى كلمة "
خاطرات " لحد الاستقام - وهو من المنهمكين فى قوليس اللغة - لاذ قال لا يصح ان تجعل
عنوان ذلك الاثر المفيد مما تستداه اهل اللغة لان خاطرات لم ترد بالمعنى الذى تريده من جمع
وكتابه لراء وأفكار جمال الدين والاقترب للصواب ان تقول (خواطر) ولا ان تقول
(خاطرات) لانها تفيد الوسائس (فلما كشفت جمال الدين بذلك تبسم وقال : رحم الله القيروز
ابادى حيث قال (خذوا فنتكم من أعجنى) . ورحم الله الفرزدق ، وجريز ، والحيثه حيث
قالوا : المتهوسين بالمتعامل المشهور ، اللقائم مقام ضوابط وقواعد اللغة والاتها ، من صرف
ونحو اليوم - (علينا ان نقول وعليكم ان تقولوا) . قال : ويمعبنى أحدهم إذ مضى بانقاد
لصديقه على مسمع من معارضة ومهاجيه ، فلورد نكر الجميل مكنى للناقة فقال معارضه "
استنق الجميل . ثم ذهب مهرولاً . تلك شأن لسلطين اللغة فى لبنان شبلها ، وزهوها .
ونضارة بلاغتها . قل (خاطرات) ولا تبال بمن فسد لسانهم ولا يصلحون الا إلى الاجوف ،
والمهموز . ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب لو تطرب السمع ، انتهى - فعملنا بقوله رحمه
الله وعزونا للكتاب كما ترى " بخاطرات " . -

فلما عن نفسي غير راضٍ ذلك لأنّ الخمول قد قعد بي فلم يوصلني إلى
أسمى مرتبة وهي مرتبة الشهداء ، وحطني في مصاف المتقيين من أرض إلى
أرض والمسجونين فيها ، فما أبعدني في كل هذا عن أولى الهمم ، وما قام
بالاعمال الخطيرة " لو المطلب الجلال " اهـ

مع أن جمال الدين حمة الله عليه لم يترك عملاً من الاعمال الخيرة لخير
النوع الانساني عموماً ، والشرقيين خصوصاً ، الا واقتحمه ، ببسالة كانت إن
تخرجه عن الهيئة المتوسطة ، وتتجاوز به فضيلة الشجاعة إلى نقيصة التهور ،
وكان على علاقه حكيماً خطيباً ، قوى الذاكرة ، وكان في ذاكرته سريع الحفظ ،
سريع للذكر ، بطئ للتعيين . وانه لينكر خطيباً لقاها لرتجالاً ، أو مقالاً أملاه لو
كتبه من سنين بالحرف الواحد ، وكأنما يتلوه من كتاب ، شديد البعد عن
التعصب ، نفوراً منه وإن ذكر المسلمين في أكثر مقالة ، ذلك لانهم الغنصر
الغالب بأكثريته في الشرق ، والملة المسلمية ممالكها ومقاطعاتها . ولهذا أكثر
من يلقظهم ، وتببهم وتقرعهم ، والا فهو أكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى التسلوة ،
وميلاً للعمل بها فعلاً بين نوع الانسان ، خصوصاً في الحقوق العمومية التي لا
يصح لها معنى الا بالحرية المعقولة . يهيمه الشرق والشرقيون على السواء ،
ويدون ليشياء ، مهلباً أكثر مما هو محبوب لأول نظرة ، شجاعاً ، جريئاً ، كريماً
لحد الاسراف ، تواضعاً مع الوسط ومن دونهم لدرجة الذل ، متكبراً على الملوك
والعظماء لحد التجبر ، حاد الذهن ، قوى للحجة ، ناقد النظر ، يجذب مخاطبه
إليه ، ويرضخه لبرهانه ، ولو لم يكن ساطعاً ، له أسلوب خاص في المقدمات
تلكى تنتجها بكعبها ، عظيم النفس ، كبير الهمة ، محب لخير البشر ، يحمل كل
من خاطبه على العظام ، وينال لديه المصاعب ، صحيح العقيدة ، مؤمنساً

وقد عرف جمال الدين بكثرة أخذه بالقياسي ونفوره من التقيد بالسماعي وسيأتي في غير
هذا الموضع قوله يوماً . " سياسة بقرونية في مملكة فرعونية " ولما قيل له في ذلك قال :
كفّ صبح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندي " بقروت " والسلام .

بالالوهية ، شديد التمسك بحكمة الدين ، نفوراً من التقليد في المذهب ، " مجتهداً " .
وله في اجتهاده بعض الغرابة لمخالفته المؤلف ، من جهة التفسير يقدم حيث
يحجم للناس ، ويتكلم حيث يسكتون رغبة لو رهبة ، متسرعاً ببيانات ذهنه ،
وأكثر أرائه ، يتعذر غالباً إقناعه جلاً ، لاسلوبه الخاص في إبطال الحجة عليه أو
للتخلص منها ، غير مكابر بالاجمال ، وكثيراً ما أعطى خصمه الحق ، بعد أن
يفحمه ، وينبئه ويبله على ما أغفله من الحجج أثناء الجدل ، ولكن كان لا يخلو
من الحدة لمزاجه العصبى .

رأيه في المجلس النيابى :

قال جمال الدين مجابياً : " ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية ،
وإخلاص ، إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل
بين أفراده ، ولكن غير محروم من وجود العالم والعامل ، فبالنظر الذى تنظرون
به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به لعمومكن وإن هبتم تصح هذا
المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى ،
فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تمن للقوانين ، وتنفذ باسمكم وبلارائكم ،
يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم " هذا أهم ما جرى فى هذه المقابلة التى
كان بها سمو الخديوى غير راضٍ وأسر فى نفسه للبطش فى جمال الدين ولكن لم
يظهر له شيئاً من ذلك .

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوى ومضى إلى تنفيذ خطته فى
المحفل الماسونى وأخذ يخطب خطباً تستفز الخامل وتوقظ الغافل ، تصوير الجبان
شجاعاً ، والرعيد أسداً ضارياً ، وأشار على تلاميذته ومريديه بنشر القصول
الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من المصريين . وكان فى مقدمة كتب

الادباء السوريون وفي مقدماتهم للأسف عليه (أديب بك اسحق ^(١))

وعلى أثر ذلك بدأت الحركة الفكرية للوطنية في الظهور ، وأخذت الحكومة تحتاط لتلك الحركة ، وتجاهل الوطنيين ، وتتقرب من الشعب بالمواعيد الحسنة ، وحسن النية ، من إنالتهم مجلساً نيابياً إذا هم حافظوا على السكينة ولم يفرطوا في المطالب للوطنية .

فطلب الاحرار من جمال الدين أن يضع خطة للمجلس النيابي المصري الجديد ، وبيئاً واضحاً للشعب كي يسير بمقتضاه نحو انتخاب نوابه فقال :

ليها الاخوان : إن القوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفسة الأمة ، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة لجنسية محركة لهما ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة ، موقوفة على إرادة من أحدثها .

فكرة الملك ينقصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصاً إذا هو صدام لإرادة ماله لو لميره ؛ وللتاريخ لم ينقل لنا أن ملكاً أو أميراً أو خيلاً بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خاطر أن يبقى ملكاً اسماً ، وألمته هي المالكة فعلاً ، وزمام أمورهما على مطلق المعنى ؛ وأعظم ألمتي للشعوب المملوكة ، التملص من رقة الإحتي وتحكمه .

ثم قال : سترون عما قريب إذا تشكل المجلس النيابي المصري ، سيكون ولا شك بهيكلة الظاهري مشابهاً للمجلس النيابية الأوروبية ، بمعنى أن أقل ما سيوجد فيه من الأحزاب ، حزب الشمال وحزب اليمين . وسوف تسرون إذا تشكل مجلسكم ، أن حزب الشمال ل أثر له في ذلك المجلس ، لأن أقل مبادئه أن

(١) كان جمال الدين لأخر نسمة من حيلته عند ذكر أديب بك اسحق يسترجع ويقول : كان طراز العرب وزهرة الألب ، قضى نحباً في شرخ الثبوية وعنوان الفتوة وترك لنا قلوباً لسة وشجوناً فائضة لنا لله ولنا إليه راجعون .

يكون معارضاً للحكومة ، وحزب اليمين لن يكون من أعضائها .

قال : تستغربون قولي هذا اليوم ، لان ما نبحث فيه هو أمر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد ، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل ، ورأيتم كل عضو يفر من أن يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراره من الاسد إلى حزب اليمين " إذ ذاك تقولون : صدق جمال الدين " .

نعم أكون صدقت ، ولكن ليس لي في هذه القراسة ، وفي صدق التصور التصديقي أدنى فضيلة ، إذا رجعتم وعلمتم ، أن المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة . فمقدما مجلس نيابي ، قوته المحدثه له ، خارجه عن محيط الامة ؛ والمحدث له ، قوة خارجه عن الامة ومجلسها ، يعارضها منافع متضادة ، وهدفان مختلفان ؛ فمثل هذا المجلس لا قيمة له ، وكما أنه لا يعيش طويلا كذلك لا يغنى عن الامة شيئاً .

ثم قال ضاحكاً ضحكة متألم : سترون أن الذي سيكون نائباً عن شعب لا أعد مصائبه ، ولا أنواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها ، هو الذي كان آلة صماء ، بيد تلك القوة التي عملت على وصلو وطنه ومواطنيه ، إلى ما وصلوا اليه .

تعرفونه اذا شئتم ان تتفكروا قليلاً . وإن شئتم وصفه فأتا أقول لكم :

نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مييزات مصركم في زمانكم هو : ذلك الوجيه الذي امتص مال الفلاح بكل مساعية ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همه ، ذلك الرجل الذي لا يعرف لايراد الحجة ، تجاه الحاكم الظالم معنى ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل يرى في إرادة القوة الحائرة ، كل خير وحكمة ! ويرى في كل نفاع عن وطنه ، ومناقشة للحساب ، قلة أدب ، وسوء تدبير !! وعدم حنكة وتهوراً ! وبالتالي يرى، ان كل صفات العزة النفسية ، والمقومات الاعلية القومية ، مآلها الويل والثبور .

وكل ما يدعو الى النذل ، واحتقار القومية ، وسحق ما تنويه حرية الأمة ،

هو من مجالى حكمته العصرية 11

هذا مع الاسف الذى لراه سيتكون منه مجلسكم النيابى الموهوم - اذا

صحت الاحلام - والذى سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفة ، أقرب على ان

الوجود خير من العدم ، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده .

غرض جمال الدين الأسمى فى حياته :

قال : وأول نظرة نظرتها فى الكون وفشلت بها ، أتنى وضعت الكرة

الأرضية بين يدى ، وقستها ببعض الاجرام ، فرأيت منها ما يكبر الأرض ،

بمئات الملايين من المرات ، ثم تمعنت فيما حوته من الحيوان الناطق (الإنسان)

فوجدته لا يتجاوز الألف وخمسمائة مليون تقريباً ، وهو مقدار زهيد بالنسبة

لسطح الأرض .

ثم افترضت ذلك الجرم الذى يكبر عن الأرض بمئتى مليون مرة ، وأن

الرجل هناك يعيش ألف سنة ، وأن ذلك الرجل صاحب أراضٍ واسعة فيه ،

فتخيل لى أنه يملك من الأراضى ما مساحتها مساحة الكرة الأرضية ، وأن أولاد

وأحفاد أحفاده ، من الممكن أن يبلغ عددهم ، إذا ازواج بمئات من السناء مع

طول العمر ، عدد أهل الأرض هذه ، أو ما يزيد . فإذا صح مع هذا الخيال ،

أن تكون الأرض برمتها ملكاً لرجل ، فى قرية من جرم المريخ مثلاً ، ونسله

عدد أهل الأرض ، هل يكون بين أهل تلك القرية الذين هم لبناء رجل واحد ،

مثل ما هم عليه أهل هذه الكرة من الاختلافات ؟ 11

أجابنى الخيال : كلاً ! بل يكون كل أهل القرية آمنين مطمئنين ، لا تحاسد

بينهم ولا هم يحزنون ، يغرسون يرزعون ، ويجشون فيأكلون ، لا يعرفون

للحرب معنى ، إذ لا ملك عليهم وليس بينهم أولى مطامع . ملك شاسع واسع ،

وخيرات مما يستهون يعبدون مع ايهم ، صاحب القرية إلهاً واحداً ، خالق الكل ومبدع الكائنات .

قال : ثم رجعت لأهل جرماً الأرض ، وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته (الدين) فأخذت الأديان الثلاثة ، وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد ، منصرفاً عن كل تقييد ، مطلقاً للعقل سراحه . فوجدت بعد كل بحث وتقيب وإمعان ، أن الأديان الثلاثة ، الموسوية والعيسوية ، والمحمدية ، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية . وإذا نقص في الواحدة شيء من لوازم الخير المطلق ، استكملته الثانية .

وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا في الطغيان ، أو أساءت الكهان فهم الناموس ، أو أنقصوا من جوهره ، لتاهم رسول بأرفاد وتأييد ، فأكمل لهم ما لنقصوه ، وأتم بذاته ما أهملوه .

وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير ، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها ، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة .

قال : وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً ، وألحظ أسطراً ، وأحبر رسائل للدعوة ، كل تلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن حرب وكذب ، ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً ، وشيعاً وطوائف .

ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان ، تلك الهوات العميقة ، وأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة * حاثوت * وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة ، ورأس مال تلك التجارات ، ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية ، على حد قول الشاعر :

قد يفتح المرء حاثوتاً لمتجره وقد فتحت لك الحاثوت في الدين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به وليس تغلح أصحاب الشواهير

علمت أن أى رجل يجسر على مقاومة التفرقة ، ونبذ الاختلاف ، إنارة أفكار الخلق ، بلزوم اتئلاف ، رجوعاً إلى أصول الدين الحق ، فذلك الرجل هو هو يكون عندهم قاطع أرزاق المتجربين فى الدين ، وهو هو فى عرفهم ، الكافر الجاحد المارق ، المخربق المهرق المفرق ... الخ .

ولما انتهى بى العلم إلى ذلك الحد ، انقلبت أفراحي بالخيال أتراحا ، ورجعت عن نظريتي ، والفشل ملء إهابى وجبتي .

ثم جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان ، وهى أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تنقف عقلى ، فايران بحكم الجوار ، والروابط وإليها كنت صرفت بعض همتى ، فجزيرة العرب ، من حجاز مهبط الوحي ومشرق أقوال الحضارة ، ومن يمن وتبليعتها ، وأقبال حمير فيها ، ونجد ، وعراق ، وبنخاد ومارونها ، والشام ودهاة الأتوميين فيها والاندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام فى الشرق وما آل إليه أمرهم فيه اليوم .

فالشرق ! الشرق ! وقد خصصت جهازى لماغى لتشخيص دائه ، وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء انقسام أهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة .

نعم عرف جمال الدين بغرضه ، وسعيه الحثيث ، لجمع شتات أهل الشرق ، وإيقاظ الهمم من أهله ، والإشراف بهم على الخطر الغربى ، المحقق بكيائهم ، والآخذ بخنائهم ، ليعملوا على جمع كلمتهم ، ويأخذ كل ملك ، أو أمير فى الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه ، وتحسينه بالحكم الشورى الدستورى ، وتمكينه بما يربط الأقرب فالأقرب ، وتقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل ، إلى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى .

هذا مختصر مرتناه ، وكان لا يقط من الوصول اليه ، بدليل سعيه المتواصل ، وتحمله أنواع المكاره ، والمصائب ، والنوائب ، في سبيل ذلك المطلب .

نعم كان يراه بعيداً ، ولكن ما كان ليراه مستحيلاً ، بل رأيناه يستبشر بكل ضغط ، وعسف ، وجور ، يحصل على الممالك الشرقية من الدول الغربية ، ويقول :

" بالضغط والتضييق نلتحم أجزاء المبعثرة ، والأزمة تلد الهمة " ، وسيأتي تفصيل ذلك في بحثه عن الانكليز ومصر .

رأيه في الاحزاب السياسية في الشرق :

قال : الاحزاب السياسية في الشرق نعم الداء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء .

نحن نحن الشرقيون تأليف الاحزاب السياسية ، لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم لنا أصدقاء ، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء .

والسبب العامل في ذلك عدم التكاتف في القوى بين الأمة وأحزابها السياسية . يقوم الحزب السياسي بعنصر ضعيف ، أو بأفراد قلائل ، بينهم اللسن والمحنك ، ويعلمون تغانيهم بخدمة الأمة لتحريرها من ربة الاستعباد والاستبداد ، ويسرون خدمة أنفسهم . فتتألف على أهل الحزب القلوب وتجتمع حولهم الكلمة ، بسوق الضرورة وداعى الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ، ويهوسهم الدخيل ، شأن الحوادث المستجدة ، في انقلاب الأمم من طور إلى طور .

فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب ، سعادة ورفاهاً وحرية واستقلالاً ومساواة على لوسع شكل قد لا يمكن حصوله في البعيد الآجل ، فضلاً عن القريب العاجل . فيؤازرون الحزب بكل معاتى الطاعة والاتقياد والنصرة

والتضحية . . الخ فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة ، واستحكم له الامر ، ظهرت هنالك في رؤساء الاحزاب ، الأثرة والأنانية ، ومدحج الذات عنقه ، فتتخلص من القلوب تلك الطاعة وتتكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، فنضطر عندئذ لترك الحزب ، وينقرط بالطبيعة عقده ، والكل له أعداء .

وضرب لنا عدة أمثلة ، منها ما حصل في الأفغان وغيرها وما حصل في حوادث عرابي وحزبه في مصر . . . ثم قال : لا ينبغي أن يؤخذ من قولي هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأي والمعنى ، فإن الشرق بعد أن أخنى عيه الدهر بكله ، ومرت عليه زلازل العصف والجور ، وأشكال الاستعباد حتى تأصل في نفوس أبنائه بذور النذل والاستكانة لكل قوى اكتسح بلاده ؛ إن هذا الشرق وهذا الشرقي لا يلبث طويلاً حتى يهب يوماً من رقله ، ويمزق ما نقع وتسربل به هو وأبنائه من لباس الخوف والنذل ، فيأخذ في إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها ، المستكرة لاستبعادها .

على هذا الأساس الاجتماعي التكريجي ، لا مانع يمنع الشرقي من الاتخراط في الحزب بعد الحزب ، ويقبل من المواعيد ما يصدق وما لا يصدق ، حتى يظهر في الشرق ما ظهر في الغرب من أفراد يرون الموت في حياة وطنهم مغنماً ، والحياة في موت وطنهم مغرمًا .

حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذي هو نعم الدواء من داء استعباده ، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أنلةً ، ويصيرهم بنعمة الاخاء والاتحاد والتعاون أعزةً ، فيجمع شتات أبنائه كانوا أنلةً ، ويصيرهم بنعمة الاخاء والاتحاد والتعاون أعزةً ، بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الامناء ، يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ، ونصرة مظلومهم ، يأخذون ما لهم من حق ، ويؤثرون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون .

رده على من زعم أن حكمته بلسانه أكثر مما هي من قلبه

خالف جمال الدين أهل عصره ، بكثير من الصفات ، ولو جاراهم وحاكاهم
في كل ما هم فيه من المزايا ، لما كان له تلك الميزة* ، ولا نوه بنكره وحسب من
يُحبر حكماء هذا العصر .

كان - كما ذكرنا - جهرياً ، متسرعاً بيلغات ذهنه وآرائه ، يجهر بها ولو
كان بها كل خطر وضرر .

فرغم الكثيرون ممن مريديه أن حكمته بلسانه ، أكثر مما هي من قلبه*
وكاشفه بعضهم بقوله : لا أحد ينكر أن الاستاذ لم يقم نظيره في عصرنا حكيماً
اجتماعياً ، جاب البلاد ، وتحمل جفاء العباد ، لمطلبه الشريف ، وغرضه
الأسمي ، ولكن نراه يقول من الحكمة مالا تنفع قائلها ، وتضر في الغالب من
قيلت له ، فيحمل سامعه على العظام ، ويقتحمها مغرراً بنفسه من غير جدوى ،
ذلك مما دلنا على أن حكمته بلسانه أكثر مما هي من قلبه* .

فلم يرق لجمال الدين هذا القول ، وظهرت على وجهه علامات الغيظ وعدم
الرضى فقال :

لا ينفع في الشرق لسان ولا قلب ، طالما خلق المالك والمملوك ، الأمير
والصعلوك ، العالم والجاهل ، سواء في العالم الصوري .

يرون في الحقيقة مرارة ، وفي الوهم حلاوة ، وفي الذل الهناء ، وفي طلب
العلی والعز الشقاء واللعناء .

كل مسلم مريض ودواؤه في القرآن وما على طالب الحكمة إلا أن يتكبر
معانيه ، ويعمل بأحكامه .

فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم أو
مفتكون به كما افتدى به الاصحاب أو التابعون .

لم تقولون إن محمداً لم يكن حكيماً حكمته من قلبه ، تلك الحجة الواهية
لمرضاء القلوب ، وساقطي الهمم ، ومتكأ أهل الذل .

يقوم إن محمداً جاء نبياً مرسلًا ، وقيل النبوة كان أميناً صادقاً ، لم يقنع
بأسود بيته ، مثل عمه حمزة ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، وأبطال قريش
والأنصار ؛ أن يخوضوا وحدثهم غمرات الموت في الحروب لمن تحداهم
وناهضهم من كفار قريش ، بل هو ، بذلته للكرامة ، وقد أقرغ عليه الدروع ،
ونقلد الصارم البتر ، واتهم اللوغى ، فتكسرت ثلياه وتخصب وجهه بالدم ،
فتصلراً الحق ومقاومة الباطل ، علمكم بنفسه وأرشدكم بقوله وفعله .

أين المسلمون اليوم ، من شئ من هذا الأقدام وتلك الهمم .

والسفاة !! بنس الخلف نحن ، ونعم السلف من قد سلف . ترتعد فرائصكم
إذا سمعتم نكر ما أنتم فيه من غريب الذل ، خوفاً من أن تدعوا لنزع نيره عنكم ،
فترجعون إلى بارد القول ، وسفيه الرأي ، فتطلبون حكمة من قلب لا حكمة من
لسان ، قتل من كان على هذه الشاكلة من إنسان .

فندم من تحرش بالسيد وعلم أن قوله الحق .

رأيه في مصر والمصريين وصورة الحكم الذي يجب أن تحكم فيه مصر
خضوعاً والشرق عسوماً :

كان جمال الدين محباً لمصر والمصريين ، شديد الارتباط بهم ، كثير
البحث في القضية المصرية ، وما آل الأمر من سقوطها بين برائن بريطانية ،
وينكر خطيئات الدولة العثمانية كان بالإمكان إذ ذاك تجنبها . وبعد عدم إرسال
الدولة جيشاً لتسكين فتنة عرابي من أكبر الهفوات ومن أعظم الأخطاء على سفيه
السياسة والتفريط .

وكان يقول :

" كان القوة الفرعونية أخذت على الدهر عهداً أن لا تبرح وادي النيل ،
فكلما قضى فرعون تقمص بآخر ، وكلما تقرضت عائلة فرعونية ادعت ليرثها
عائلة ، وجاءت ولو من وراء البحار والتصقت بالنسب الفرعوني ولو بأقل
مشابهة ، من خلق القطرسة والتأله على الناس • وكثيراً ما كان يردد " باستخف
قومه فأطاعوه " ... ويقول :

عجيب هو نصيب المنتصر لمصر والمصريين ، إذا مكث بين ظهرائهم ،
فموسى خرج منها خائفاً يترقب ، متهماً موسى به من مظلوم نصره على ظالمه •
وفرعون معبود فيها ، ويوسف الصديق زُجَّ في السجن متهماً وهو لم يأت
القلعة •

نعم ، في النتيجة حصص الحق وزهق الباطل • واسوف تخلص مصر
لأهلها إذا هم عملوا بالحزم ، وهينوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات
من القوى • واسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط ، والمسك بالخنق ؛ وإذا ما
فعلوا واجتمعت الكلمة ، وتوحدت الأهواء نحو الغاية ، حصل للبأس • وإذا لم
يضعوا هذا البأس بينهم بسوق التحاسد ، لو بفعل الدساتين ، قل تم الأمر وفاز
القوم ، ودخلوا في دور الحياة الصحيحة •

لا تحي مصر ، ولا يحيى الشرق بدوله وإماراته ، إلا إذا أتاح الله لكل
منهم رجلاً قوياً عادلاً ، ^(١) يحكمه بأمله على غير طريق التفرد بالقوة
والسلطان • لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ولا عدل إلا معاقبة المقيدة •

(١) قلنا إن المتداول بين الناس عن لسانك : " يحتاج الشرق إلى مستبد عادل " قال هذا من
قيل جمع الاضداد وكيف يجتمع العدل والاستبداد ، وخير صفات الحاكم " القوة والعدل
" ولا خير بالضعيف العادل كما أنه لا خير في القوى الظالم •

وحكم مصر بأهلها ، إنما أعنى به ، الاشتراك الأملى بالحكم الدستورى
الصحيح . ثم قال : إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوجب ، فأهم هذه الأشياء
(الحرية) و (الاستقلال) . لأن الحرية الحقيقية ، لا يهبها الملك والمسيطر
للأمة عن طيب خاطر ؛ والاستقلال كذلك .

بل هاتان التعمتان ، إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم ، أخذاً بقوة واقتدار ؛
يجبل التراب منها بدماء أبناء الأمة ، أولى النفوس الأبية ، والهمم العالية .

لما تغير شكل الحكم المطلق ، بالشكل النيابى الشورى ، فهو أيسر مطلباً ،
وأقرب مثلاً ، إذ يكفى فيه أحياناً ، إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ،
فيفعله ويشرك معه أمته ورعيته ؛ ويرى بعد التجربة راحة ، وتضامناً على
سلامة ملكه ، وعزة بالتفاف طبقات الرعية حول عرشه ، بقلوب خالصة
مخلصة ، وحب صميمى . فيكون للملك الدستورى عظمة الملك ، وعلى نواب
الأمة أعباء نواب المملكة ، ودرء المفاسد عنها ، والنود عن سلامتها ، بالأموال
والأرواح .

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكم عقله فأرشده إلى استبدال مطلق
للملك ، بالملك الشورى ، فاستراح وأراح .

وهذا هو الشكل من الحكم الذى يصلح لمصر ، ولدول ، وإمارات الاسلام
فى الشرق .

استنتاجه أن ترك الأثر مع التفريط فى صون الملك وعدم حفظه أدعى
للتأثر وليس فيه شئ من الفخر

قال : إن عدم ترك الأثر أثراً بعد أن توغلوا فى فتحهم لأوروبا ،
ودخولهم " اقينا " وتخليهم عن تلك الأمصار بدون آثار أبنية أو عمرانية لا يعد
حطة ، كما أن بقاء آثار العرب فى الاندلس لا يحسب لهم شرفاً ، بعد أن
استوصل ظلهم وزال ملكهم وانقرضت دولتهم ، بل فى معتقدى أنه من أقدم
وهجات من استطاع أن يلقى بتلك الآثار ، وتجثم لايرازها وإيذاها تلك المهالك

والاخطار والاموال ، أن يعد لحفظها في حوزته وتحت سلطانه ما استطاع من قوة ، لا أن تبقى لثراً بعد عين .

والأثر في مثل هذه الحال أدعى للحزن لأنه أقصَح من كل بلاغة على التفريط ، وأنطق على السفه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان . بل لرى أن عدم ترك الأثر على هذا النمط لولى من تركه ، لعدم التأثير - وإن خالف هذا القياس بعض الأوروبيين .

فالفرنسيين مثلاً ، ألف مهرة كتبهم شناعات الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ ، وصوّروا ضعفهم تجاه الألمان ، وعدم تكبرهم للأمر ، وهفوات قوادهم وأسباب خذلانهم ، وما أتاه عدوهم من الهزائم والتمثيل ، بصورة أقطع من أن يصورها العدو الألماني ، فهم ينكرون ذلك ليشاروا ولكن على اهتمام متواصل ، لقرى الأمة ، وإعداد ما يستطيعون من قوة .

وأما العرب والترك ففي كل فتوحاتهم ، سواء فيه من ترك لثراً لو لم يترك ، فقد تركوا من بعدهم خلقاً من الأبناء ينكرون مجد الفتح ويفتخرون بأعمال آباءهم وأجدادهم . وعن إعداد القوة هم غافلون وعن واجباتهم لاهو وإن تكرتهم لا ينكرون ، وإن ليقتنهم لا يفيقون ، بل هم في غفلتهم راقدون ، وعلى القدر كل شيء يحيلون .

ولو عملوا بالقاتون الإلهي ، ويقولوه : " ولئن ليس للإنسان إلّ ما سعى " لكان لوفر خيراً للامة ، و (السعى) أدل السبل على النجاح ، ولحسن ما تربي عليه الناشئة .

قوله في تأثير آداب اللسان

قال : أما انتشار اللسان العربي فيما عدا بلادهم ، فليس للفتحين أدنى دخل فيه ، ولا اتخذوا له أسباباً ووسائل ، بل إن ما وجد في اللسان العربي من الآداب الباهرة ، والحكم والأمثال والمواعظ ، تلك هو الذي أحله من الانتشار هذا المحل .

حتى أن العرب قبل الاسلام ، وهم في تلك الحالة الجاهلية ، والبدولة المحضنة ، وبعدهم عن كل حضارة ، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أو شروان ، محلاً رفيعاً ، يأخذون الجوائز ، ويشرون بتجارته مع الأعاجم ، بآداب لسانهم ، وما يجري على ألسنتهم من الحكمة التي تأخذ بمجامع القلوب .

مكنا كان للنكاه العربي القطري المتوقد ، يناسبه سلامة اللسان وأدبه . فكان إذا ظهر بين العرب حكيم طيب مثل الحرث بن كلة مثلاً استطاع بآداب اللسان وفرط النكاه ، أن يقارع ويضارع أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدينته . وكذلك الشاعر في قبيلته إذا نبغ ولو كان وضع النسب أجلته القبيلة ، واعتبرته حامى نملها بلبيه وشعره ، واعتته بالمال والماشية .

وأما في الحضرة الاسلامية وفي دولها ، فكثير ممن برع بالآداب فأوصله إلى مرتبة الوزيرة فالأمارة ، وأما من ائثرى بأخذ جوائز الخلفاء والملوك من الألباء فلا يحدون كثرة .

هذا بعض ما لأدب اللسان من التأثير المادي ، وأما التأثير المعنوي فيمكن أن نلحظ من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر . فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة ، وتركت الفرس ونهضت بعد دهر فرئت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل في ذلك إنما هو اللسان ، قبل كل ما سواه ، ولو تقدوا لسانهم لتقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا في الاستجداء ما شاء الله .

فيما عرف عن جمال الدين من مزية الاقتناع في حالتي السلب والإيجاب والسبب في ذلك :

كان جمال الدين من أكابر علماء الكلام ، وإماماً في المنطق يحب الجدل والحجاج وقد أحاط بضروب المنطق ، ليسلم في جدله ، ثم أكملها ، قوى الحجة

كما ذكرنا ، أوتى قوة الاقتناع لدرجة يخال الإنسان أنه قادر على الاقتناع فى
حالتى السلب والإيجاب .

والسبب فى ذلك ، هو أن جمال الدين ، مع حكمته وسرعة خاطره وتوقد
نكاته ، وسعة اختباره للأخلاق البشرية ، وكثرة مخالطته الأمم فى مختلف
الأقاليم ، وحصول الملكة له فى وجوه المباحث التى كان يطرقها . فقد أحاط
على وجه إجمالى بأخلاق العرب والترك والفرس والأوروبيين ، وعلم أشياء
كثيرة عن مرامى القوم وحالاتهم الروحية ، وأعظم ما كان يحرص عليه فى
تتبعاته أن يراقب حسنات كل قوم - ولو لم يكن يحبهم - ويحفظها فى ذاكرته ،
كما يحفظ سيئاتهم وخطيئاتهم . وهكذا شئت مع الأفراد حتى مع خاتمهم ، فكان
يرقب حركاته وأعماله فى كل يوم ، فإذا أخذ ينكر حسناته اعتقد السامع أنه
الرجل الكامل ، ثم إذا أتى على نكر سيئاته جعله أسفل وألام خلق الله .

وقد كثر ورود أمثال ذلك فى محاضرات جمال الدين ، ومحادثته وإقناعه
مخاطبه فى حالتى الاستحسان والاستهجان تشخص للواحد والشئ الواحد ، حتى
توهم البعض أنها من المواهب الخاصة لجمال الدين .

ولما نكر له ذلك قال :

ليس فى الأمر شئ من المواهب ، إذ لك خطِ طرفان ، ولكل إنسان وجه
وقفا ، وفيه صفات قيحة ومزايا طيبة . والحكم على الأشخاص والأشياء إنما
يختلف باختلاف الزمان والمكان والموقف ، ورغبة القائل .

أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يُربط أبو سفيان فى خُطم الجبل لتمرّ
عليه جيوش الله فاستحق هذا الإذلال فى ذلك الموقف ، ثم فى موضعه من قريش
وأنه من كبارهم قال بحقه (إن كل الصيد فى جوف الفرا) ثم لما برز أبو دجانة
لقتال كفار قريش ، وأخذ يتبخر قال صلى الله عليه وسلم : (مشية يكرها الله
إلا فى مثل هذا الموضع) .

وهكذا قال : (نعم الأثم الخل) تطبيقاً لقلب ذلك الصحابي الفقير الذي لا يملك سوى الخل ، تقدمه طعاماً في دعوة رسول الله . وقال (بنس الأثم الخل) إذ قدمه ذلك الصحابي الموسر .

فكان اختلاف الحكم على الشيء الواحد ، لاختلاف الوضع والواضع .
وهكذا يكون الحكم على ما يمثل ما نكرنا من الأشخاص والأشياء .

ومن صفات جمال الدين أنه كان لا يغالي في المدح ولا يسترسل في الذم والتدح وله أسلوب كاد أن يكون خاصاً به .

مثال ذلك أنه في مجلسه رجل من أرباب الصحف المشهورة في مصر ، فأوسمه الحاضرون استحساناً واستهجاناً حتى انتهى الأمر لقول جمال الدين ليكون الفصل ، فما زاد على أن قال : (هو مثل الهر) ثم سكت فرضى بهذا القول المستحسن والمستهجن ، والمدح والتدح . ثم ما مضى وقت طويل حتى أفضى الحديث أيضاً إلى نكر ذلك الرجل فأثنى جمال الدين على عصاميته ، وإقدامه ، وتمنى لو يكون بين المصريين والشرقيين عدة أفراد مثله .

فما وسع من كان حاضراً في مجلس تمثيله في الهر إلا أن قال : يا أستاذ في الأس هجوت الرجل واليوم أخت في مدحه .

فقال بماذا هجوته ؟ - فنكر عبارة الهر .

قال : نعم قلت ذلك وأيس في هذا التشبيه شيء من الهجو ، بل يجب ، نكرم الهرة والهر ، فالرجل يطوف كالهر لينقط الحوائث من منابعتها ، فيكاشف بها الأمة ، ونعم ما تصف به وما يفعله .

ولقد جرى لجمال الدين بحث وجدل مع كبير من العلماء في قول (ليس في الامكان أبدع ممّا كان) فأخذ السيد الوجه العلي وقال : نعم في الامكان أبدع مما كان ، ها نحن اليوم نعجز بالعين المجردة عن رؤية الأشباح والأجرام البعيدة، ونستعين بالمجاهر والنظارات ، فلو كانت عدسات أعيننا أقوى ،

والانعكاسات التوراتية أشد ، لكان ذلك أبداع مما نحن فيه من ضعف البصر وعدم رؤية البعيد .

فوقف الشيخ وظهر عليه العجز ، ولم يستطع لبرهان جمال الدين رداً .
فلما انفضّ المجلس قال السيد لجلسائه : أخذ الشيخ بالسفسطة وغلب بها ،
وكان الغلب له لو قال أن النظارات إنما فائدتها لرؤية البعيد فقط ، وأما إذا
استخدمت للقريب فلا يمكن أن يقرأ سطر ولا أن يرى قريب .

وعلى هذا يكون الحق في جانب القول في الخلق (ليس في الامكان أبداع
مما كان)

فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون
قال جمال الدين : أخذ المنصفون اليوم من علماء الغرب بالاعتراف للعرب
ببعض الفضل بما سبقوا إليه .

كالجبر : وهو من موضعات العرب وواضعه " أبو السمع " .
والجانبية ، والمركز ^(١) لم يكن المكتشف لهما " إسحق نيوتون " مع
الاعتراف بفضل الرجل .

وكذلك التحليل والتركيب ^(٢) ، واكتشاف الفوسفور ^(٣) واستحضاره

(١) اكتشفها أبو بكر بن بشر من الجيل الثالث للهجرة ، وعرفها بقوله ، عند ذكر
مركبات الكيمياء " قوة حاسة قابضة منعكسة الى المركز الارض " !!

(٢) وكذلك التحليل والتركيب من مكتشفات ابن بشر تلميذ أحمد بن مسلمة المجريطي
الذي عاش في الجيل الثالث وذكر ذلك في رسالته لأبي السمع في الكيمياء الموجودة
في مقنعة ابن خلدون تحت تعبير " الحل والعقد "

(٣) اكتشفه ابن بشر من الجيل الثالث للهجرة ، والمؤرخ الالماني " هفر " في كتابه
تاريخ الكيمياء يقول صراحة انه وجد في المكتبة الملوكية رسالة ترجمت الى اللاتينية
ليشير من علماء العرب الموجود قبل عصر يعرف استحضار الفوسفور من الانرار
ويسميه " لياقوت الجمرى الاصطناعي " .

واستحضار الاوكسجين من حجر المغنيسيا ^(١) ، ووصفهم لغاز الاوكسجين والدلالة عليه بخاصته أنه غاز حساس ، وكذلك الايدروجين وخصيته وان الواحد منهما لحاسته يطفى الأجسام الملتهبة ، ويصعد مرتفعاً ، والثاني يلهبها وهو نخط من الاول .

وحامض الآزوت ^(٢) ، وحامض الكبريت ^(٣) ، والكبريتي وغيرها من عمادات مباحث الكيمياء ، كل ذلك من مكتشفات العرب .

وكان الأساتذة في علم الكيمياء للجيل الثالث للهجرة أحمد بن مسلمة المجريطي ، وتلميذه ابن بشرّون ، وأبى السمع وقد تقدمهم مثل جابر بن حيان الحرّاني ، ومن بعدهم زكريا أبو بكر الرازي وغيرهم .

أدلة جمال الدين على أن الكيمياء قد تتم بالصناعة ، وتقنيده لأدلة ابن خلدون :
قيل لجمال الدين : إن المجريطي ، وتلميذه ابن بشرّون ، وأبى السمع ورد ذكرهم في مقدمة ابن خلدون في بحث الكيمياء ، فما رأى الاستاذ في هذه الصناعة ؟

قال : أما أحمد بن مسلمة المجريطي ، وهو من انتهت إليه الرياسة في مختلف العلوم في الاندلس " في الجيل الثالث للهجرة وما بعده " فما كذب في قوله

(١) وهو من مكتشفات ابن بشرّون وعرفه بخاصته في الرسالة المار ذكرها لأبى السمع وتعبيره عنها بروح حساسة أي غاز .

(٢) حامض الآزوت وهو من مكتشفات جابر بن حيان الكوفي ولم يستطع الغربيون إنكاره لو ادعاهم لكتشفه . وجابر عاش في الجيل الثاني للهجرة وفي العصر الثامن للميلاد يعني قبل ألف ومئة سنة تقريباً

(٣) اكتشفه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود في مدينة (الري) في بلاد العجم سنة ٢٤٦ وتوفي سنة ٣٢٩ وعرف استحضاره وذكره في كتابه (الحاوي) في فن الكيمياء باسم (روح الزاج) وأنه بتقطير (زاج قبرس) التي هي (كبريتيت الحديد) يستحصل حامض الكبريت الذي هو اهم الحوامض والأزمها وأنفعها في الصنائع .

" إن الكيمياء ثمرة الحكمة " وأنها " تتم بالصناعة " أي يتم عمل المعادن الخسيسة، وترقيعها للذهب ، أو الفضة (صناعة) •

أقول هذا لا تنكيداً للطغرائي ، ولا لآتي عانيت هذا الأمر ، لو أشير على أحد أن يعانيه ، أو يؤلج به • وليس تلك لاستحالته كما يتوهمون بل لعدم توفر أسبابه العلمية والفنية ، وعدم وجود الأستاذ فيه ، وشغف الخلق في معدن الذهب معلوم ، الأمر الذي يذهب معه كل عقل ودرية • فيحاول المولع ثمرة الحكمة بمحض الجهل ، والتخبط بتجارب وأمر لا تثمر إلا الخيبة •

لما براهمين ابن خلدون في إنكاره على المجريطي وابن بشرين قولهما بصحة الكيمياء ، وموافقته لأستاذهم " التتيفي " وحكمهما باستحالة صحتها - للكيمياء - لم يكن بالاستناد منهما إلى علم ، بل جل برهان ابن خلدون وأستاذهم ، أن رسالة ابن بشرين في الكيمياء من قبيل الألفاظ ، ومعانيها لا تكاد تبين !! مع أن الرسالة بكافة ألفاظها ومعانيها صناعية محضة ، وفنية صرفة • وعلم الكيمياء له اصطلاحات خاصة ، يفهمها من يعانى ويدرس ذلك العلم •

ولما كانت الكيمياء ثمرة الحكمة والعلم - كما صرح به المجريطي - كان فهم ما يكتب في شأنها عويصاً يحتاج إلى تحقيق في النظر ، وممارسة في العمل •

ولم يدع ابن خلدون أو أستاذهم التتيفي أنهما عانياً هذا الفن ولا هما قنّدا ما ورد في الرسالة عن طريق علمية ، لو أتيا بالحجج والبرهان • بل غاية ما قالاه فيها سبق " أن الرسالة لما كانت من قبيل الألفاظ أو لا تكاد تبين فهي إذا لا تتم - وهي الكيمياء - إلا بالسحر أو برفاد مما فوق الطبيعة) •

مع أن الرسالة كما قدمنا ، صناعية فنية صرفة ، تنطبق في معانيها على فن الكيمياء الحديث ، المأخوذ بدون شك عن جهاينة العرب ، لولئك الأعلام الذين وصلوا من كل فن إلى الغاية منه خصوصاً فيما نحن في صدده " الكيمياء " •

ولابد أن يأتي زمن ، إن دام الحال على هذا المنوال ، من البحث والتتقيب والتجربة ، أن يتوصلوا إلى فهم حقائق هذا الفن الجليل واقتطاف ثمراته .

قلنا إن علم الكيمياء قد أخذ الأوروبيون عن العرب بشكل ناقص لغريب اصطلاحاتهم فيه ، والترامهم للتسمية بأكثر مباحثه ، لأنه لم يكن قصدهم منه ترقية الصناعة ، وإيجاد الاصباغ والاجزاء للكيماوية على نحو ما فعل الأوروبيون بعلم الكيمياء ، بل كان غرضهم (العرب) عمل الذهب بالصناعة ، ومع كون أوروبا لم تعتن ولم تهتم إلا بقشور ذلك للعلم وهي مقدمات لنتيجة ، فقد قامت تلك القشور لدى الغربيين مقام تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب بدليل ما انتفعوا بها في شعبات الصناعات والتجارة .

ثم إن ابن بشر - في رسالته لأبي السمع - قد دل بإشارة ، وبتعبير خاص على المادة التي يمكن بها العمل - وهي ما يسمونه باصطلاحهم (الحجر الفلسفي ، أو المكرم ، أو حجر الحكمة) - وأنصف كل الاتصاف بقوله " إن معرفة المادة وحدها لا تفي بالغرض المقصود ، ولا تشر إذا لم يتمكن طالب ذلك العلم من معرفة عمادات تلك الصناعة ، ومنها التحليل والتركيب " ، هذه الصراحة في أساس فن الكيمياء وجدت مسطرة في رسالة ابن بشر العربي قبل الجيل الثالث للهجرة ويحده ؛ وعلماء أوروبا يدعون بنون محاشاة لو مبالاة ، أن المعلم لأقوازيه ، هو أول من تنبه فأثبت التحليل والتركيب !

نعم إن ابن بشر لم يذكر بلسانه العربي لفظه " تحليل " و " تركيب " بل قال " الحل و " العقد " ، وهو الأصح فناً وفهماً .

ثم نكر ابن بشر بعد الحل والعقد ، عماداً آخر ، وهو " التخليب " وفسره بقوله تخليب الشيء من جوهره إلى جوهر غيره ارتقاء - قال فالتراب يستحيل نباتاً ، والنبات حيواناً ، وإن أرفع مواليد النبات أدنى طبقات الحيوان ... سلسلة تنتهي عند الإنسان إذ هو آخر الاستحالات الثلاثة ونهايتها الخ .

وقد نكر في معرض التحليل والتركيب أو الحل والعقد قائلاً : اتنا لو اخذنا مادة مركبة وحللناها ثم أعدنا تركيبها ، وهو ما يسمى اليوم في علم الكيمياء الحديث " أصول سانتاز " يستحيل أن ترجع تلك المادة إلى ما منه تركيب ، لتبادل أجزائها الفردية ، واتحداها مع بعضها على القانون الفنى ، الذى كان بلا ريب معروفاً عند علماء العرب .

وقد صرح ابن بشرون أيضاً بإمكان حصول جسم مستقيم معتدل بالتفاعل الكيميائى طبعاً . وهذا هو المفهوم اليوم عند من درس مقدمات الكيمياء ، وعلم أن الأناس مثل " البوتاس " مثلاً ، إذا تعامل مع حامض الأزوت فعلى التكرير تذهب خاصة الأساس وخاصة الحامض ، ويحصل هناك جسم معتدل ليس هو بالأساس ولا بالحامض ويسمونه " لزوتيت البوتاس " لا يؤثر على الترنسول ، ولا على ما هو أشد منه إحصاساً .

هذا نوع من أنواع ما يسميه علماء العرب الاقدمون " التقلاب " فمن لم يدرس تلك الفن ، ويعلم أصوله ، ويتوهم لا شك كما توهم بعض المغاربة الطواقين فى الأرض ، الذين يموهون على السذج من الخلق (بعلم الكيمياء) ويفهمونهم أن " التقلاب " عبارة عن قص أوراق على شكل الدينار والدممة عليها ، وحرق البخور والعزائم ، فتقلب الورقة ديناراً !!

فأين هذا من أقوال ومقاصد ابن بشرون ، وأستاذة المجريطى ، اللذان وصلا بلا ريب إلى الغاية ، والثمرة المطلوبة من هذا الفن .

ثم نكر بعد التقلاب ، عملاً آخر هو " التشيف " . وهذا العماد غاية فى الأهمية ، ويكفى أنه لا يتم الأمر بدونه مع استكمال شروط العمادات الأخر .

وقد ثبت فى الفن الحاضر أن التشيف أو التجفيف ، على أنواع :

فمن المواد ما يسمونها صابونية لا يمكن تنشيفها بالهواء ، ولا بالشمس ، ولا الحرارة ، لأنها لو وضعت على حرارة مهما كانت درجتها خفيفة ، أو

معتلة ، لو شديدة - وهي تحت تماس الهواء - فلا تجف ، لتواصل امتصاصها ما في الهواء من الماء .

فإنك يراجعون في معالجتها أنواعاً كثيرة من أصول التجفيف ، لو التشيف .

منها ما يضعونه في ناقوس من زجاج ضمنه حوض فيه حامض الكبريت للصرف ، وفوق الحوض لو الإناء تلك المادة التي يراد تشيفها ، فتوضع على لوح من زجاج تطلّى أطرافه بمادة لزجة يوضع عليها للناقوس لمنع الهواء من الخارج وبذلك الطريقة يمتص حامض الكبريت ماء الهواء ورطوبته ، لشدة حرصه على الماء ، وبالتالي يمتص ما في المادة من ماء ورطوبة ، فيحصل تجفيفها .

والنوع الثاني للتجفيف : وهو وضع المادة تحت مظية الهواء وتوالى استعمالها حتى تجف وتتشف .

والنوع الأخير وهو لم ينكر فيما طالعت من كتب للكيماة الحديثة ، وإنما وجدته في كتب القوم - أي علماء العرب - وكان نكرهم له من قبيل الشارة إذ قالوا بعد البحث فيما للحرارة والرودة من التأثير ، ذلك البحث الدقيق - بقولهم " مادة ^(١) حساسة استحضارها يكون من برادة النحاس بعد إخراج سوائه حتى يصير نحاسياً ، ومعاملته بحامض الكبريت (الزاج) الخ .

ولا نرى هذا الوصف ينطبق على غير الحامض الكبريتي الذي يعمل بواسطة الثلج اليوم لشده برودته يتبخزه السريع .

(١) كذلك في رسالة أبي بكر بن بشر بن لابي السمع في مقدمة ابن خلدون في علم (الكيماة)

ثم نكر من العمادات " التنقية " لمنع المادة من الفساد وتطهيرها من دنسها .
وإخراج أفتها منها .

وهذا معروف بالفن الحاضر " بالتطهير " ومواد التطهير كثيرة - منها
الكحول الصرف والأوكسجين " مواد الحموضة " وقد رجحوه على الكلور لحفظه
للمادة العضوية من غير تخريب ، ويفيد بالتبييض أكثر من فائدة الكبريت أيضاً .

ثم نكر " التكليس " فى عدل العمادات المهمة ، فمن التكليس ما يتم
بالاحتراق تحت تضيق الهواء التسمى ومنه ما يحصل بتفاعل الحوامض الخ .

فمن هذا كله نعلم أن علم الكيمياء لا يمكن الحصول عليه إلا بالتعلم
الصحيح ، والنظر الدقيق ، والتجارب المتملية عند فقد الأستاذ ، وبالأجمال
فالكيمياء صنعة من أدق الصنائع ، وفن من أجل الفنون ، ولا ريب أنه ثمرة العلم
والحكمة - كما قالوا حقاً - .

بن ابن مسلمة المجريطى ، وتلميذه أبا بكر بن بشرى قد صرحا بأن معرفة
الحجر ، أو المادة التي يمكن العمل بها غير كاف وحده إذا لم تكن المعرفة تامة
بتلك العمادات التي هي روح تلك الصناعة .

وابن خلدون لم يدع ، ولم يقل إنه عثر على المادة ، ولتكن هذه العمادات " .
كما سبق القول " بحسب الأصول الفنية ، وأنه جربها على ما يتطلبه العلم ولم
ينجح " ليصبح إذ ذاك إنكاره ، ويكون قوله حجة على إبطالها ، وإخراجها من
عداد الصناعات وأنها لا تتم إلا بالسحر ، أو بأرفاد بعالم مما فوق الطبيعة أو
بالنفوس الخيرة أو الشريرة ، وما كانت حجته على هذا القول إلا أنه وجد
الرسالة من قبيل الالغاز كما نكره وهكذا وافقه أستاذة التلغيفى وليس ههنا من
برهان غير أنهما وجدنا معانيها " لا تكاد تبين " .

فيا ترى لو أخذ ابن خلدون أو أستاذة التلغيفى كتاب الكيمياء الحديث اليوم
ورأى (ك ٤/١) وأن تلك معناه حامض الكبريت أو (ذى ٢ ك) أنه كبريت
الزئبق ، وهو لم يدرسه أو يعنى ذلك للفن ، أو يأخذه عن أهله بالتعلم ، لا شك

كان ينكر لك ويقول أنه ليس يعلم . بل أحجى وأغزى وأضاليل بحروف مقطعة وأرقام ، أو كان يقول إنها من قبيل السحر لأنها لم تبين له واضحة ، ولا لأستاذه التلغيفى كما تظهر بسائط الأمور .

ثم إن ابن خلدون قد صدق بحالومية أحمد بن مسلمة المجرىطى وهى :

" طماغس بعد أن يسود وغداس توقفا غادس " - وقال : إن تلك الكلمات والأسماء الأعجمية ، إذا تلاها الإنسان قبل النوم ، بعد رياضة وصدق توجه ، فإنه يرى بها ما يحب أن يراه مما تتوق نفسه لمعرفته .

وقال ابن خلدون أيضاً " أنه بها مرآة غريبة كانت نفسه تتشوق للوقوف عليها " - وبالنتيجة - قد قال بصحتها " وأن التجربة قد أثبتتها إلخ " مع أن تلك الحالومية " لا تنطبق على علم بأصول ، ولا على فن يحصل بالمزاولة ، والممارسة ، أو ما يقوم عليها برهان عقلى .

من الغريب أن يصدق ابن خلدون مثل هذه الحالومية - وربما يكون تدقيقه حقاً - وينكر علماً مثل الكيمياء الذى لم يعان أمره واضطلاحاته ، مع اعتراقه بأن الكيمياء صناعة غريبة المنحى ، بعيدة التداول عن جيل البداوة ، مفتقرة إلى صحة النظر ، والتدقيق فى علوم من تقدم من اليونان القدماء ، والكلاسيين قبل جابر بن حيان الحرانى .

ثم قال جمال الدين : هذا ما رآه ابن خلدون ، وهذا ما ارتأته فى هذا المطلب .

ولا يصح أن يرتب المنصف بأن ابن خلدون من مفاخر الأمة ، وأنه أغرز العلماء مادة ، وأنهم نظراً ، وأصحبهم قِيَاساً ، وانفاهم للخرافات عن الدين ، وأسرعهم لخذاً بالمعقول ، وأكثرهم رداً للباطل من القول ، وأبعدهم عن التقيد بالمألوف عن غير علم بالفائدة ، وبالأجمال ، فالعالم عالة على فضل ابن خلدون فى حكمة التاريخ إذ هو الواضع لها ولا منزع .

إنكار جمال الدين علي من يقول بسد باب الاجتهاد :

عرف جمال الدين باستكافه ، ونفوره من التكليد من غير تمحيص ، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال ، ويرد للضعيف منها ، ويجتهد للاستنباط للأولى ، ويتناول الأقرب للصواب ، وما يقبله العقل .

ذكروا يوماً في مجلس جمال الدين قولاً للقاضي عياض ، واتخذوه حجة . واستند عندهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحي بأنه لا يأتيه الباطل لا من خلقه ولا من أمامة - فقال جمال الدين : يا سبحان الله إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناول فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة ؟

وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس ، هم أنفسهم لم يبقوا عند حد أقوال من تقدمهم ، قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ، وأدلوأ دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط منه العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم وتقلب مع عقول جيلهم ، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان .

فقل : يفهم من قول الأستاذ أن القاضي عياض أو من تقدمه من الأئمة إذا قالوا قولاً جاز لمن بعدهم أن يقول ما يترأى له سواء أكان مخالفاً أو موافقاً ، ولا يخفى أن مثل هذا القول يحتاج إلى الاجتهاد ، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود ، لتعذر شروطه .

فتنس جمال الدين الصعداء وقال :

ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أي إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد لينتفع بالدين ؟ لو أن يهودى يهدى القرآن وصحيح الحديث ، لو أن يجد لتوسيع مفهومه منهما ، والاستنتاج بالتقريب على ما ينطبق على العلوم العصرية ، وحاجيات الزمان وأحكامه ؟ ولا ينبغي جوهر النص .

إن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه " العربى " ليفهمهم ما يريد إقحامهم -
- ليفهموا منه ما يقوله لهم (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) وقال :
(إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون) وفى مكان آخر (إنا جعلناه قرآنا عربياً
لعلكم تعقلون) .

فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم ، ولكى يعمل الإنسان بعقله لتكبير معانيه وفهم
أحكامه والمراد منها .

فمن كان عالماً باللسان العربى ، وعاقلاً غير مجنون ، عارفاً بسيرة السلف ،
وما كان من طرق الإجماع ، وما كان من الأحكام مطبقاً على النص مباشرة - لو -
على وجه القياس ، وصحيح الحديث ، جاز له النظر فى أحكام القرآن ، وتمنعها
والتنقيح فيها ، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس .

ثم قال : لا ترتب بآئه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ،
وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجدين ، مجتهدين يستنبطون لكل
قضية حكماً من القرآن والحديث ، ولكما زاد تعمقهم تمنعهم ، لزدادوا فهماً
وتنقيحاً .

نعم إن لولئك للفحول من الأئمة ورجال الأمة ، اجتهدوا وأحسنوا " جزاهم
الله عن الأمة خيراً " ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم لحاطوا بكل أسرار القرآن ، أو
تمكنوا من تكوينها فى كتبهم ، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم للباهر
وتحقيقهم واجتهادهم ، إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم ، والحديث
للصحيح من السنن والتوضيح إلا كقطرة من بحر ، أو ثمانية من دهر " والفضل
بيد الله يؤتیه من يشاء من عباده " وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

نفور جمال الدين من قول سنن وشيخى ، وإن لا موجب لهذه التفرقة التى أحدثتها
مطلع الملوك لجهل الأمة :

قال : ظهر لآل البيت النبوي في لوقات وأزمنة مختلفة ، أحزاب وشيع ، فمنهم من ضل " كالمولاهة " وهم من يقولون بألوهية علي بن أبي طالب ، ومنهم " المفضلة " و " الخلاة " في محبة أهل البيت ، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال " يهلك فينا أهل البيت لثان : محب غال وعدو قال "

أما المفضلة من الشيعة وهم يقلدون في المذهب الإمام جعفر الصادق وهو من اكابر فقهاء أهل البيت ، فهذا الجمهور من المسلمين لمجرد تقليدهم للإمام جعفر ، ومغالاتهم في حب الآل ، وتفضيلهم للإمام علي ، لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين ، ونجسم أمر هذه الفروق في الفروع ، ونجعلها واسطة للفرقة والنزاع ، فالخصام فلاقتال ، تلك الامور التي سهل وجودها جهل الأمة ، وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم .

فالملوك من السنيين هوّلوا ، وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة ، وعزوبات عجيبة على شيعة أهل البيت ليتسنى لهم بذلك تخريب الاحزاب وتجييش الجيوش ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً ، بحجة الشيعة والسنية ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله .

أما مسألة تفضيل الإمام علي ، والانتصار له يوم قتال معاوية ، وخروجه عليه ، فلو سلمنا أنه كان في ذلك للزمن مفيداً ، أو ينتظر من ورائه نفع لإحقاق حق أو إزهاق باطل ، فالיום نرى أن بقاء هذه النعرة ، والتمسك بهذه القضية التي مضى أمرها وانقضى مع أمة قد خلت ، ليس فيها إلا محض الضرر ، وتكبيك عرى الوحدة الاسلامية .

ثم قال : لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المفضلة من الشيعة - من عرب ، وعجم - وأقرّوا ، وسلموا بأن علي بن أبي طالب كان أولى بتولي الخلافة قبل أبي بكر . فهل ترتقى بذلك للعجم ؟ لو تتحسن حال الشيعة ؟ لو لو وافقت الشيعة أهل السنة ، بأن أبا بكر تولى الخلافة قبل الإمام علي بحق ، فهل ينهض

ذلك بالمسلمين السنيين ، وينشلهم مما وقعوا فيه اليوم من النذل ، والهولان ، وعدم حفظ الكيان ١١ ؟ .

لما أن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة ١٢ ومن هذا الموت قبل الموت ١٣
يا قوم ١ - وعزة الحق - إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يرضى
عن العجم ، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قتلوا أهل السنة ، لو افترقوا عنهم
لمجرد تفضيله على أبي بكر ، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم ، " والناس أبناء
ما يحسنون "

وكذلك أبو بكر ، فلا يرضيه أن تدفع أهل السنة عنه ، وأن تقاتل الشيعة
لأجل تلك الأفضلية التي مرّ زمنها ، والتي تخالف روح القرآن الأمر أن يكونوا
" كالبنين المرصوصين " .

لما قضية التفضيل فلو استحققت للبحث بعد تلك الاجيال لكفى أن يقال لحل
مشكلتها " أن أقصر الخلقاء الراشدين عمراً تولى الخلافة قبل أطولهم عمراً "

فلو تولى الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ، لامت
أبو بكر وعثمان ، ولم يتيسر لهم خدمة الاسلام والمسلمين ، بما استطاعوا أن
يختموه به ، رضوان الله عليهم أجمعين ، حكمة الله في خلقه ، (وإن أكرمكم
عند الله لتقاكم) .

رأيه في الأديان الثلاثة وأنها متفقة في المبدأ :

الناس تجاه الأديان الثلاثة : الموسوية ، والعيسوية ، والمحمدية ، وكتبها ،
لا بد أن يكونوا لأطرجلين ، أما رجل يعتقد أن رجال الأديان الثلاثة قد أرسلهم
الله ، ولوحى اليهم بالتوراة ، والانجيل ، والقرآن ، والقصد من إرسالهم لارشاد
الخلق إلى الحق ، وإراعتهم الصراط المستقيم الامور التعبدية . ومن بيان الحلال
والحرام ، وصون مصالح العباد بما شرعه لهم من الشريعة ، وإلزامهم العمل

بها، وبالأجمال ، وبيان مشيئة الله بما يريد من خلقه ، وما يريد أن تكون خليقته عليه .

وعلى هذا فلا يمكن ، أن يكون قصد الله إلا واحداً ، ومشيئته إلا واحدة ، وكتب الوحي وما أنزله على الرسل ، لا بد وأن تكون متفقة في المقصد والغاية ، ولا يصح التباين في جوهرها ، ولا أن تخالف بعضها بعضاً .

فلنتظر إلى الأمر الرئيسي الذي جاء في التوراة من أمر العبادة ، وما أراده الله من عباده هناك ، فنرى أن الله قد نادى موسى من جانب الطور وكلمه قائلاً: **إني أنا الله لا رب سواي فاعبدني أنت وبنو إسرائيل ، ومختصر ما ورد فيها أن طاعة الله وعبادته ، والعمل بما يبلغه الرسول - كل ذلك له في الآخرة ثواب ، وسعادة سرمدية ، فضلاً عن عاجلة الدنيا .**

والاعتسان بسوق الحب للذاتى ، لا يريد ، ولا يحب أن يعتقد أنه سيذهب مدى بعد الموت - لأن الاعتقاد بذلك مزعج للنفس ، مقبض للروح - يرجو بعد الفناء الظاهري أن يبعث ، ويكون له معاداً ، وأن يحيى حياة أبدية .

ثم لنتظر ما جاء في الانجيل ، وما قاله المسيح " فنرى أنه قال : " ربما معناه - أعطيتنى سلطاناً على كل جسد لأعطى حياة أبدية لكل من أعطيته وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفون أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته " .

فالعيسوية هي ناموس جاء متمماً مكملأ لما قبله من التوراة - كما قال المسيح " جئت لأتمم للناموس " لا لأنقضه " .. الخ .

ثم إذا نظرنا إلى المحمدية - نرى القرآن مشحوناً بتوحيد الله ، ولزوم طاعته وعبادته ؛ بقوله : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، قل إني أمرت أن أعبد الله) ، (ولا أشرك به أحداً ..) و (الحمد لله رب العالمين ..) و (إياك نعبد وإياك نستعين) و ...

هكذا ترى الاديان الثلاثة متفقة في الامور التجديدية بلا أدنى تباين أو تخالف .

ثم ننظر في المعاملات ، وما أجز منها في تلك الأديان ، وما نهى عنه فيها . نرى أن ما جاء به موسى ، أو ما أمره الله به من الوصايا ، قد عمل بها المسيح ، ولم ينقض لو ينقض منها شيئاً . وكذلك محمد فانه جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل .

قلنا : إن الناس تجاه الاديان الثلاثة وكتبها ، أحد رجلين : رجل يعتقد بالوحي ويؤمن بالانبياء والرسل ، ورجل يجحد الوحي ولا يؤمن بالانبياء ولا برسالهم من عند الله .

أما الرجل المؤمن ، فقد بحث ودقق ، وطبق كتب الاديان الثلاثة على بعضها كما مر ، فلم يجد فيها أقل تباين ، بل وجدها متفقة في المقصد والغاية .

وأما الرجل الكافر ومنكر الوحي ، فيقول : إن الكون مع حوادثه من حيث حقيقتها ليس فيها شئ جديد . وما نراه جديداً ، فانما هو في شكل الابرار ، وصورة اللقاء والتلقى . فيأتي في قرن من القرون ، أولوا بصيرة ولب ودهاء ، فيعلمون تعليماً بشكل خاص ، وصور معلومة عندهم ، تأخذ من نفوس الخلق كل مأخذ ، ويتعبد لها إذا وضعت في شكل تعبدى ، أو يعمل بها إذا أفرغت في قالب تطبيعى .

فالتعليم بتوحيد الله وتقديسه معروف عند قدماء المصريين قبل موسى بأجيال . والتثليث من تعاليم الوثنيين وقد قال به فيثاغوروس الفيلسوف اليونانى قبل المسيح بخمسمائة عام . وإن موسى وعيسى محمداً ، هم رجال عقلاء حكماء امتازوا عن وسطهم ، وجمعوا من معتقدات الأقدمين قواعد وأقوالاً ، وضعوها في كتب ، لا يحل أن تكون من إله السماء .

ويقول ذلك المنكر ، إنه لو سلمنا أن في كتب الاديان شيئاً من النفع ، فهو لا يوازن مضر ما نراه بين أهل الدين نفسه والاديان ، من الاختلاف والتناقض

والمشاحنة والبغضاء • ولو كانت من الاله حقيقة ، لجعلهم ان يتفقوا عليها ولا يختلفوا ، ثم يستحيل ان يكون فيها ما يرى من الخرافات ... الخ •

قال جمال الدين : هذا غاية ما عند الجاحد المنكر من القول والججاج •

والمطلوب منه في موضوعنا هنا ، ليس الايمان بالوحي وبالانبياء ، بل إذا كانت كتب الأديان الثلاثة متفقة بالتعاليم الجوهرية ، وفي المقصد والغاية ، أم لا؟
أما اتفاقها ، وعدم تخالفها فقد ثبت ، ولا يستطيع أحد جحوده ، وإنكاره •
وأما يراه المنكر ، ونراه نحن أيضاً ، من اختلاف أهل الأديان ، فليس هو من تعاليمها ، ولا اثر له في كتبها ، وإنما هو صنع رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمناً قليلاً ساء ما يفعلون •

رؤساء الأديان ، وما أنفعهم إذا أصلحوا ، وما أضرهم إذا افسدوا •

فالاديان في أصلها وجوهرها " ولزج عظيم ، ودواء نافع مفيد لكثير من أمراض البشر " هذا إذا أحسن الأطباء - وهم هنا رؤساء الأديان - عدم خلط ذلك الدواء ، بالضرار من الاجزاء ، وراعوا قابلية العقول قبل الاجسام ، وأعطوه منه بقدر معلوم ، بقول مفهوم ، وبيان معقول •

قال : سألتني أحد نواب الهند عن أشياء يعتبرها شهاب ، كانت أن تخل في عقيدته الاسلامية ، وتربيته في إنزال الكتب ، أهمها : إذا كان القرآن كلام الله وقوله " ونين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " حقاً •

فلم الاسلام في هذا العصر في أعظم دركات التقهقر والاحتطاط ، وعلى خلاف صراحة الآية • وأطال في القول حتى إذا انتهى ، قلت له :

اعلم أن كل دين يجب أن يكون حقاً • فالاسلام اسم ومسماه الحق • فلو أنك رجل اسمه " عالم " وهو في حقيقة جاهل ، هل تتكرر لمرجد الاسم وعدم انطباقه ، فضل المسمى ، وتقول لان اسم هذا الرجل " عالم وهو جاهل " ، إذا لافضيلة العلم •

ولو أنتك للملايين باسم الاسلام ، كما هو الحال فى هذا العصر ، وهم لم يقوموا بحق المسمى من الحق ، هل ينبغي لمجرد مخالفة الاسم أن ينكر فضل المسمى ، وهو حقيقة " الاسلام " كلا .

لذلك قال الله تعالى " ودين الحق ليظهره .. الآية "

ولم يقل : ومن تسمى بدين الاسلام ليظهره .. الخ . على أن الاسلام ، ومن دان به من المسلمين لما عملوا بحق الدين ، ظهوراً ظهوراً طبق الأرض نوراً ، وملأها عدلاً .

فالظهور للحق والحقيقة ، وليس للاسلام اسماً مجرداً . وما تراه اليوم فى المسلمين من التقهر ليس من حقيقة دين الاسلام بل من جهل المسلمين " حقيقة الدين " . وفى هذه الآية (ودين الحق ليظهره على الدين كله) ما يفهمنا أن هناك " كل " من " بعض " .

فالاديان فى مجموعها هى " الكل " وأجزاؤها " الموسوية " " والعيسوية " والاسلام " . فمن كان من هذه الاديان كلها على الحق فهو الذى يتم له " الظهور والغلبة " .

لأن الظهور الموعود به الدين إنما هو " دين الحق " كما قلنا وليس دين اليهود ، ولا النصارى ، ولا الاسلام اذا بقوا أسماء مجردة ، ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك " الدين الخالص " .

قال الله تعالى " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله للدين الخالص .. الآية " .

المسألة الشرقية وموتاه في حلها ، وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاح ،
والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربى لساناً رسمياً والأخذ بتهذيبه

مختصر المسألة الشرقية ، هى عراك بين الغربى والشرقى ، وقد أبس كل
منهما لصاحبه درعاً من الدين . فالغزبى تنزع بالتصراعية ، والشرقى
بالاسلامية . وأهل الدينتين كالآلة للصماء بأيدي محركيهما .

فالقاتمون بالتصراعية يسخرون الدين لأجل الدنيا ، ويحسنون أمر دنياهم وما
تتطلبه مظاهر الحياة . والعاملون بالاسلامية يسخرون الدنيا لأجل الدين ، وإذا
هم لم يعملوا بأحكامه يخسرون الدين والدنيا معاً .

إن فتح القسطنطينية - تلك العاصمة الصماء - من قبل السلطان محمد
الفتاح سنة ٨٥٦ - ٨٥٧ هـ التي ولدت الحق في الملوك المسيحيين ضد
المسلمين وأخذت من ذلك الوقت تجمع كيدها وتحصر همها لمنصبية الدولة
العثمانية ، وتعمل على إزالتها وتضعفها ، وإخراجها من فتوحاتها الأوروبية
بكل وسيلة ، وفى كل ساحة وفرصة .

والأكثر فى الحروب والتغلب ، والانتصار فيهما ، إنما يكون بالقوة وبالعلم ،
ولو أن الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست ، أو من يوم ما استقلت به سنة
٦٩٩ وراقبت حركات العالم الغربى ، وجرت معه حينما جرى فى مضياء
المدنية ، والحضارة ، وفرت إلى فتوحاتها المادية القوة العلمية ، على نحو ما
فعلت اليابان أقله .

نعم لو فعلت ذلك لما كان ثمة مسألة شرقية ، أو لما ظهر ذلك التباين الذى
لا يثبت معه الحكم طويلاً ، وهو تحكم الجهل بالعلم ، أو " حكومة جهل تحكم
حكومات علم " ولا يتسنى اليوم للسف المجرى أن يحكم بأمة يدافع عنها مدافع
العلم ، وما مسألة الدين إلا نريفة ، تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك
الغاية ، وهى دفع الجهل والحكومة الجاهلة ، عن الحكم بأمة عالمة لها تاريخها
ولسانها وأثارها ، ولو كانت بالية .

وإذا كان للضعيفة الدينية شئ من الدخول في إيجاد المسألة الشرقية ،
والاحتفاظ بها ، فإنها ليست هي كل أسباب المسألة ، بليل أن سلاطين آل عثمان
فتحوا وتوغلوا وضموا الممالك ، وكانوا يدينون بالاسلام .

ومن دخل في ملكهم ، وتحت سيطرتهم ، كانوا نصارى وأشد تمسكاً
بالنصرانية مما هم الآن . فلو كان أمر الدين هو الباعث على هذا الحقد
والمناهضة ، لكان الأولى أن يظهر إذ ذاك ، وعدم ظهوره بل رضوخ الطوائف
والأمارات النصرانية للحكم العثماني الاسلامي ، أكبر دليل على أن مسألة الدين
لم تكن هي وحدها الفاعلة في أمر المسألة الشرقية ، التي امتدت وستممت إلى غير
تركيا ، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق في شكلها وحكمها وتفرطها مع
حكومة تركيا .

وإذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الاسلامية على الحكومات النصرانية
لوجدنا منحصراً " في القوة والعلم " .

وهكذا يدول أمر الدول انتصاراً وانكساراً .

والدول المسيحية اليوم إنما يغلبون الحكومات الاسلامية بالعلم مصدره
القوة، ويتغلب المسلمون بالجهل مصدر الضعف .

علم الأتراك يوم تسنى لهم فتح الممالك " علم الحروف وتعبئة الجيش "؛
وجهل الاوروبيون ذلك ، ولم يضارعه فيهم ، فانتصر الأتراك ، وانكسر
الفرنجية .

النرم الأتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين وكان على منصة
المشيخة الاسلامية علماء اعلام ، وفقهاء ، وأجلاء عالمون ، عاملون بحقيقة
وأحكام الاسلام ، يصدر السلطان وأكابر دولته عن رأيهم ، وينزل على حكمهم ،
فعلوا في الرعية ، وأمنوا من دخل ف متهم وسهلوا لهم الصعاب ، وحافظوا
على جامعاتهم من دين ، ولسان ، وعادة ، فريض المستعمرون من الطوائف

النصرانية لقوة الثمانيين وعدلهم وعلمهم ، بالنسبة لجهل غيرهم فى تلك
الأعصر .

فظل النصارى فى طاعة العثمانيين ، وظلوا فى كل المعانى رعية لهم ، ما
دامت تلك المؤهلات والصفات فى الفريقين : القوة والعلم فى الحاكم ، والضعف
والجهل فى المحكوم .

حتى إذا انعكس الأمر ، وبان الجهل مصدر الضعف فى الأمة الحاكمة
وظهر العلم مصدر القوة فى الأمم المحكومة ، نهضت للتخلص من رقة الاستعباد
لمن دونهم فى العلم ، واستبسلت فى الرجوع لحكم ذاتها بذاتها .

وقد سهل عليهم كل صعب فى هذا السبيل ، إقرار الدولة لهم على جماعاتهم
الكبرى ، من دين ولسان وتاريخ ، تلك النعمة التى كانت وتكون على الدولة أكبر
نقمة . ولا مناصن لها من تحمل أعباء ذلك ، وهى منه الوجود . لأن الأمم
المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ ؛ ولم
تستحل ، وتتحل فى يخر عنصرها ، فهى أرقب الناس للفرص وأعلق الخلق
 بإعادة وتجديد وإعادة سيرتها الاولى . ولن يشيها أشد العوامل عن المطالبة بها .
وترداد نشاطاً وتستمد قوة معنونة كلما آتت من حاكمها المستهين بها استطلاة
بغير حق ، واستهضاماً لحقها بغير وجه مشروع ويقهر ليس له من الاتصاف
نصيب ، ويقتل يحيى ميت العزائم .

ثم قال : ومن ينظر إلى تاريخ الدولة العثمانية ونشأتها لا يتمالك نفسه من
الإعجاب بنشاطها ، وكثرة ما فتحت من الممالك ، وأخضعت لسلطانها من
الأمم .

ويأخذ به الاستغراب كل مأخذ ، من تفریطها وعدم جريها مع أحكام الزمن ،
وحرمانها نفسها ومن دخل فى حكمها من الأمم أن تجرى وإياهم فى ميدان
الحضارة ، أو أن يبقى لها أثر من الآثار ، فى تلك الممالك والامصار .

نشأت في الجيل السابع للهجرة ، أو آخر القرن الثالث عشر للميلاد بآسيا
الصغرى . فاستخلص السلطان عثمان الاول ما بيد السلجوقيين من الملك وهو
القسم الشرقي ومشوا على ما بيد الروم من القسم الغربي .

وقد حول العثمانيون أنظارهم وصرفوا قوتهم ، واهتمهم إلى شبه جزيرة
البلقان تلك البقعة الغربية في وضعها الجغرافي ، إذ وقعت في أقصى الجنوب
للشرقي من أوروبا ، وإلى جانب آسيا . وبهذا انقسام المملكة الرومانية إلى
شرقية وغربية ، كانت شبه جزيرة البلقان في المملكة الشرقية ، وفيها غير تركيا
، اليونان ، والصرب ، والبلغار ، ورومانيا ، والجيل الأسود؛ ولكل من هؤلاء
الأمرم عنعنات ومطامع وعروف وأنساب ، وتزعزعات طائفية ، واختلافات مذهبية
ولمبال سياسية ، كانت معها البلقان في سائر الأعصر مهد الفتن والفتن ، ولا
ترال كذلك ، وسيعم بلاء البلقان أهله ، ويتعدى إلى ما سواه من الممالك .

لأن كل دولة من هذه الدويلات الصغيرة تطمح في تكبير حوزتها، وهذا
الكبر لا يتم إلا بتصغير جارتها ، أو بابتلاعها ومن وراء هذه المطامع في
حكومات البلقان وابتلاع بعضهم بعضاً ، الدول الضخمة كروسيا والنمسا ومن
ساعد على استقلالهم وإخراجهم من الحكم العثماني وهم بمساعدة البلقانيين على
الاستقلال إنما يريدون أن يبتلعوه ويملكوه جزءاً بعد جزء ، وستكون الحجة
عنصر السلاوي والصقلي ، وكانت الحجة من قبل تخلص النصرانية من الحكم
الاسلامي . والصحيح ، قوى يحاول اقتناص وابتلاع الضعيف .

ثم قال : هذا بحث يطول ، ولتعد إلى ما كنا فيه من النظر إلى ما ترك
العثمانيون من الأثر فيما افتتحوه من الممالك .

افتتح السلطان مراد الثاني بلغاريا سنة ١٢٨٢م وبقيت تحت حكم العثمانيين
وفي حوزتهم نحواً من أربعة أجيال ، والبلغاريون قوم أشداء وأصلهم من المغول
مثل المجر والفنلنديين ، نزحوا من جهات فازان في روسيا أوروبا ونزلوا بلاد
البلقان في الجيل السابع للميلاد ، وهي من أول نشأتها ألقت الاستقلال وحافظت

على مكائنها ، وكانت دولة البيزنطيين تخشى بأسها ، ثم أخذت في التدهور
فانتهزها الروسيون ، ثم نامضتهم وأعلنت استقلالها في القرن الحادي عشر ، ثم
دخلت في حوزة الروم وصارت جزءاً من المملكة الرومانية الشرقية ثم استقلت
ثالثة ، ولم يفقد البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلا مع العثمانيين ، وماذا فعلوا
مع البلغار في مدى تلك الأجيال ، وأى عثماني تركوا في بلغاريا ؟ لا شيء بل
تركوا لهم جامعاتهم الكبرى ، من دين ولسان وتاريخ يسبرون مع الحضارة
والدنية مع السائرين ، وحكامهم الأتراك مع القاعدين ، مكتفين بالقفخة
والنطرسة والفخر بالأسلاف .

منذ أربعة قرون ، وبلغاريا تحت حكم العثمانيين ، وهي لا تزدد إلا
تخططاً حتى إذا ما صرت آلة متحركة بموجب معاهدة براين ، نهضت ،
واقطعت شوطاً بعيداً في الحضارة والعمران والترقي ، وصار لها جانب يخشى
حتى من الدولة العثمانية .

أما الصرب فهي أيضاً من تتوحد مراد الثاني سنة ١٣٨٩ وبقيت كذلك
في حوزة العثمانيين أكثر من أربعة قرون ، وقد حاولت التخلص من حكم
العثمانيين مراراً ، وآخر ثورة قام بها الصربيون دامت أربعة عشر عاماً نال بها
الصربون من الباب العالي نوعاً من الاستقلال . وسنة ١٨٧٨ استقلت تماماً
بمقتضى معاهدة باريس ، ولحقت بجارتها بلغاريا .

وكذلك اليونان فقد أخضعتها الدولة العثمانية مع من أخضعت من ممالك
البلقان وظلت في حوزتها وتحت حكمها إلى سنة ١٨٢٩ فاستقلت بمناصرة
أوروبا وبعد حروب طويلة دامت سبع سنين ، واشتركت فيها العمارة المصرية
بقيادة إبراهيم باشا إذ أرسلها محمد علي باشا الكبير إلى المورة . الأمر
المعروف .

أما رومانيا وكانت في القرن الثاني عشر عبارة عن إمارة فلاحيا ،
ومولدانيا وقد خضعوا للعثمانيين وكنوا يودون الجزية من سنة ١٢٩٢ إلى سنة

١٧١٦ • ثم بعد ذلك دخلوا تحت سلطة الحكم العثماني ، ثم احتلت روسيا البلاد وأعلنت لهم امتيازاتهم التي كانت لهم وخسروها من سنة ١٧١٥ ثم كانت ثورة سنة ١٨٦٦ وانتهت باختيار الرومانيين للبرنس شارل دي هو هنزلرن الالماني •

ثم قرر مؤتمر برلين استقلال اللولايين " المعروفتين بالفلاخ والبغدان " استقلالاً تلاماً ودعاهما باسم رومانيا ، وفي سنة ١٨٨١ جعلت الامارة مملكة ونودي بأمرها ملكاً •

لما الجبل الاسود - وله من اسمه نصيب - فهو مقاطعة صغيرة ، جبلية وعرة ، لا تزيد مساحته عن ٣٦٣٠ ميلاً مربعاً وسكانه مئتين وسبعة وأربعين ألفاً ، وهم من العنصر الصقلي ، وأكثرهم فلاحون رعاة ، على غاية من شقاء العيش ؛ هذه الامارة الحفيرة قديمة العهد بالاستقلال ولم يرضخها ، وبفتحتها من العثمانيين إلا ذلك السلطان العظيم سليمان القانوني ، الذي وصلت السلطنة العثمانية في عصره إلى منتهى المجد والعظمة •

ولما كان الجبل الاسود على ما ذكرنا من الفقر والوعورة ، وأهلها أولى بآ وشدة ، واستبسال في الدفاع عن استقلالهم ، فكانت الدولة تعد الجبل من ولاياتها ، والجبايون من حين آخر يجاهرون بالعصيان ، حتى إذا حملت عليهم جيوش العثمانيين يتظاهرون بالرضوخ وهكذا من سنة ١٥٢٦ إلى زمن البرنس نقولا " وهو ملك الجبل الحالي " ظل معترفاً بسيادة الدولة إلى سنة ١٨٦٢ ثم جاهر بالعصيان والتمرد ، حتى إذا كان مؤتمر برلين ، " ذلك القضاء المبرم على الدولة ، فقد أثن استقلال الجبل الاسود والتحق باخوانه أمراء شبه جزيرة البلقان ، وتخلصوا من حكم آل عثمان •

هذه هي شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون ، وبقيت في حوزتهم وتحت سلطانهم الاجيال ، فماذا أحدثت في تلك الممالك من آثار العمران ؟ وماذا تركت في تلك الشعوب من الذكرى ؟ وماذا أعنت من الحزم والرأى والتدبير لبقاء تلك المقاطعات والامارات في حوزتها ؟ وإذا كان الحواب " لا شيء " •

حينئذ يضطربنا الاتصاف إلى أن نقول : إن الدولة العثمانية في فتوحاتها ، وما شاهدها من تفریطها ، لم تكن لتحسن الاستعمار بل بقيت سداً منيعاً للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الاخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدينتها وعلومها وصناعاتها . شعوب من تكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليوناً . ولكل أمة ومملكة ، جامعات ومميزات ، من تاريخ ودين ولسان ، وعادات وأخلاق ، وهي في كل هذا ، على طرفي نقيض مع العثمانيين الأتراك ، فلو أخذت الدولة بالحزم بعد الفتح ، وعملت بصائب الفكر والرأى ، لعلمت أن بقاء تلك الممالك في حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعتمد إلى وسائل تعميم لسانها ، بإحداث دور علم وغيرها ، حتى إذا استطاعت وتغنى لها في ظرف جيل أو جيلين أن تعم لسانها ، وكان لها إحدى العوامل الكبرى للبقاء ، ولعدم سرعة الانفصال والتفكك . إذ يكونوا أتراكاً باللسان مثلاً ، لو بالدعوة الدينية كما يفعل اليوم دول الاستعمال بيت المبشرين من الإنجليز والبرهمن ، وتشبيدهم " دور العلم " .

فإذا انتشرت الدعوة الدينية ، وقبلتها الأمة المستعمرة ، اشتركوا بجدامة ثانية ، وهي للسان والدين ، فكان الارتباط أشد وأوثق .

وهكذا إذا فازت على مدى أربعة أجيال ، أن تعم الجامعات التي لها بين تلك الشعوب ، اشتمكت عرى الاتحاد وانتهى التناحر ، وأسباب النفرة ، أما والدولة العثمانية لم تفعل في ممالك البلقان ما ذكرنا ، ولم تفكر فيه فضلاً عن أن تسعى إليه ، فكان خروج تلك الممالك من حوزتها واستقلالهم ، أمراً محتماً وقوعه لا مرد له (سنة الله في الدين خلوا من قبل) .

ثم للنظر في فتوحات الدولة للممالك الإسلامية من مصر والشام ، فطرب فبغداد وتونس وسائر الممالك العربية . فتراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب . وكان لجامعة الدين التأثير العظيم في قبول الحكم العثماني ، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها ، وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد

الفتح ، أو السلطان سليم ، بأن يتخذ للسان العربى ، وهو لسان اليدى ، لساناً رسمياً ، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك ، لكأنت فى أمنع قوة - وأمن حصن من الانتفاض ، والخروج عن سلطتهم . ولكنها فطنت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفها سيلة ! وأسقمه من رأى ! لأن تدين الأتراك بالدين الاسلامى ، على جهل باللسان العربى ، جعل لهم فى القلوب منزلة ، سالت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين .

فما قولك لو تعربت ، وانتهى من بين الامتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام " التركى وبالعربى " ، وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الاسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات .

لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً ، وجمع شتات الممالك الاسلامية تحت لواء سلطان عادل همام مثل الفاتح ، أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم ، غير عسير .

ولكن مع الاسف عدم قبول فكرة السلطان الفاتح ، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى ، خطأ بين ، لا يضاعره إلا توغل العثمانيين فى أوروبا ، وشبه جزيرة البلقان ، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة .

لأن المستعمرة مهما عظم موقعها ، وطلب هواؤها ، لا يصح أن تتخذ قاعدة أو عاصمة الملك ، لأسباب أهمها ، أن المستعمرة كما سيأتى بيانها كالثوب العارى قبل الاعتزاز ، والممالك لا تسقط ولا تتبعثر أجزاءها ، إلا من ضعف السلطان فى عواصمها ويسقطها .

ومنها بعد المستعمرة على الغالب عن مجموع القوة ، وإحاطتها بأعداء الملك وأعدائه . الخ .

نظر ، هل ترى دولة أوروبية جعلت عاصمة ملكها فى غير مملكتها ، وفى غير مكان نشأة تلك الأمة .

فالانكليز لم يجهلوا عاصمتهم - مع سعة ملكهم - إلا جزيرة برييتانيا وفي قلبها مدينة " لندن " وهي الجزيرة التي سكنها البريتانيون ، في نور توحشهم .

والفرنسيين ، في باريس ، قلب بلاد الغالبيين .

وهكذا بقية الدول ، لأنه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها ، وانتفاضه فأنه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكاً خاصاً .

وعلى هذا جرى الخلقاء الراشدون ، فمقرهم كان المدينة وهي قلب البلاد العربية ، محاطة بقوة العرب من سائر الجهات .

ثم الأمويون ، قفى الشام .

ثم العباسيون قفى بغداد ، والعاصمة أنشأها المنصور إنشاءً وكان في ملكهم من المدن ما هو أطيب هواء ، وأمنع موقعاً من بغداد ، ومع ذلك فلم يستبدلوا العارية بالملك الصرف .

نعم إن فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفتح ما لا يحويه الدهر ، خصوصاً بعد أن حاوله الأمويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد ، ومعه خالد أبو أيوب الاتصال صاحب المقام المعروف بالسلطان أيوب ولم يظفروا . ثم العباسيون ، واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها . وغيرهم من ملوك الاسلام ، ولم يظفر بالفتح ويعنى الحديث الشريف " انتخبن القسطنطينية ، فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش ، إلا ذلك الفاتح العادل الكبير السلطان محمد طيب الله ثراه .

ولا لرتاب أن فتح القسطنطينية لو تيسر للأمويين أو للعباسيين ، لما جعلوها عاصمة ملكهم . بل جعلوها كما جعلوا غيرها من الممالك ، مستعمرة تنقوى المملكة بجباية الأموال منها ، وفوضوا أمر إدارة شؤونها لأحد الدعاة منهم كما فوضوا مصر ، والاندلس ، والسند ، وبخارى ، وبلاد القرم وغيرها للمفتكرين من العمال ، وهذا هو الحزم ، وغاية الصواب .

ولما شبه جزيرة البلقان ، فإن كان في ظاهر أمر فتحها من الأتراك ما يدل على القوة واللباس ، فإن في حقيقة الأمر كانت مصدر بلبال الدولة ، وإضعاف قوتها إذ لم تسكن فيها القلاقل ، والفتن ، ولم تفتقر الدولة من تجهيش الجيوش ، وإرفاق الدماء في سبيلها ، كل ذلك وبالنتيجة كان لقاء في البلقان غير مضمون ، بل كان استقلال ممالك البلقان مجزوماً فيه من كل عال .

قال : ولقد سمعت من المرحوم علي باشا ذلك الصدر الأعظم الكبير العقل للنقد للنظر ، وهو يعتقد أن داء البلقان سوف يضعف جسم الدولة ، وسوف تضطر مكرمة على التخلي عن البلقان ؛ بعد خسارات مادية ومعنوية لا يمكن تعويضها . وأنه وجد طريقة للتخلص من البلقان ، مع حفظ شرف الدولة ، والاستعاضة عنه بمبالغ جسيمة يمكن إصلاح بقية المملكة بها . وتعزيز قوتها في آسيا ، وإفريقيا .

وبالأسف كيف أن هذا الرجل الكبير لم يتوفق لتحقيق هذا الفكر السليم ، والعمل الذي فيه كل خير ، وكان أمر الله مفعولاً

فلو فعلت الدولة ، وأخذت برأي علي باشا وغيره من حكماء الوزراء، لو بالذي تصورته لها من ، ما تتخذ بغداد عاصمة ملك ، ومقر الخلافة . وعندما لليلة ، والقرات ، والخابور ، والبصرة وشط العرب - ذلك النيل الذي يفيض كل أربعة وعشرين ساعة مرة . وتلك السهول الخصبة التي على جانبي وضيقتي نينيك النهرين العظيمين ، والتي مساحتها عشرة أضعاف أراضي مصر على أقل تعديل ، وأعظم منها خصباً . وأكثر إنتاجاً .

ثم قال : رحم الله محمد علي باشا ذلك الأمي الكبير ، نابغة رجال أعصار وأجيال ، فقد طوى تحت جبينه مسمماً تكديك الجبال ، وقلباً يقدم به على هائل الأعمال ، وتحت عمامته دماغاً فغلاً ، وعقلاً جوالاً ، وبصراً نافذاً ، وفكراً ورلياً صلياً .

بلغ الرجل من حدة الذهن ، وفرط النكاء والدهاء ، وبعد النظر ، أنه بعد أن
حصن خراب مصر تحسناً ببنياً ، ونظم ما اختل من أمورهما ، واستتهر النيل
للقناطر الخيرية . ومنها جرى في الجداول والترع . عرض على الباب العالي
والتمس من السلطان أن يعيضه بالبصرة عن مصر . وأنه يعد أسعاف هذا
المستول منه فضلاً فتأمل !!

هذا الرجل العظيم ، لو لم يعلم يقيناً أن البصرة خير من مصر ، لما طلب
ما طلب . هذه هي البصرة ، وأما الموصل " ذات الربيعين " فما شئت عنها
قل .

ثم إذا علمنا أن المسافر من بغداد في عصر الرشيد كما يمشي في ظل
الأشجار حتى يبلغ غوطة دمشق ، ومصب نهر " قويق " في حلب . ثم إذا توجه
من هناك للشمال ورأى سيحون وجيحون يجريان في سهول أظنه ، وفي الجنوب
عند دمياط ورشيد ، والاسكندرية يصب النيل المبارك ، ولن كل تلك الممالك
والأمصار والأنهار ، هي ملك خاص للمسلمين ، لا ينافرهم فيه منازع إلا أولوا
القوة من أهل المطامع ، ونزاعهم بالختل والخداع ، وبالحيلة والمكر ليس إلا .

قلو لتصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم واستعربوا ، وترأسوا تلك
الممالك ، وعدلوا في أهله ، وجروا على سنن الرشيد ، لو المأمون على الأقل ولا
نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين . فمن كان من دول الأرض أغنى منهم
مملكة ؟ لو أعز جانباً ؟ ، وأمنع حوزة ؟ من ؟ ولكن الأسف ، إن إخواننا
الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير " الحرب " وهم فيما عدا ذلك ، وفيما
يختص في شؤون العمران أقل روية وعملاً من سواهم ، يسوونى وأنا ممن
يحهم ، ولئن كثرت بما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان
العربي ، ولن يستعربوا ولزدد تئراً إذ لراهم يرتكبون خطأ أقبح ، وهو جريهم
وزاء تنريك العرب واستبدال اللسان العربي لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر
، وديوان الفضائل والمفاخر ، باللسان التركي !!

وذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية ، لكان أفقر
لسنان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية . ولولا أنه
خلط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعراً يقرأ ، أو منشوراً يفهم ، أو بيتاً
يترجم عن جنان . وهو في حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية ، تجه
قد خف وزناً ، ولحط معنى .

فكيف يحل تترك العرب ، وقد تبارت الاعاجم في الاستعراب وتسابقت ،
وكان للسان العربي لغیر المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر
المفاخر ، فالأمة العربية هي " عرب " قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من
الوضوح والظهور للعيان ، مالا يحتاج معه إلى دليل أو برهان . ثم قال : لقد
كشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضع في خلوات عديدة فكان يسمع
بكل إصغاء ولكنه في النتيجة كان قليل الاختفاء بكل ما قلته له وفهمت من
لوضاعه ، وأسرير وجهه أنه لا يعتقد أن قبول للسان العربي ، وفكرة الفاتح
والسلطان سليم بذلك صواباً ، وكذلك لا يجب أن يعترف أن توغلهم في أوروبا
وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأ ، نعم إن زمن العمل قد مضى وانقضى ،
وكان الحزم في إخراج تلك التصورات لحيز العمل ، والدولة العثمانية إبان عزها
واستكمال قوتها وبأسها أما اليوم فالأمر للقوة والطاعة على الضعيف ، وليس
بإستطاعة عبد الحميد أن يفعل ما كان بإمكان السلطان الفاتح ، أو السلطان
سليمان ، أو السلطان سليم أن يفعله . قال : فحولت وجهي عن ما لا يمكن ، إلى
ما يمكن وفيه وقاية ما تبقى من أملاك السلطنة العثمانية في غير أوروبا .

رأيه مختصراً في الدول الإسلامية ، وأسباب ما نراه فيها من التقهقر
والانحطاط :

قال : لا تتكون الدول ، ولا يخلص لها السلطان ، إلا بقوتين : قوة الجنس
التي تدعو للاتحاد لمغالبية من مساوهم ، ويكن فيه النعرة والعصبيّة والانتصار

لجنسه . وقوة الدين ، الذى يقوم مقام الجنسية فى جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة ،
وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها .

فإذا أخذنا العرب قبل الاسلام ، وجدناهم أمةً فيها النجدة واللباس والقوة
الجنسية ، ولكن ما تيسر لها تكوين دولة ، ولا قام لها سلطان يجمع الكل . ذلك
لأن قوة الجنس توزعت فى القبائل ، فكانت كل قبيلة تجمع فى نفسها من قوة
الجنس كتلة صغيرة ، تغالب فيها غيرها من القبائل .

وعلى هذه الصورة ، لم ينتفع العرب كأمة من قوتها الجنسية ، بل خسرت
لأنها وزعتها ، بدلاً من أن تجمعها ، ووجهتها لنفسها ، عوضاً من أن تغالب بها
غيرها فكانت قوة الجنس فى العرب على هذه الحال ، أشبه شئ بسلاح المنتحر ؛
جاء الاسلام ، والأمة العربية على هذا الوضع ، من شتات قبائل مختلفة الأهواء ،
بأسهم بينهم ، كل قبيلة تتعصب لقبيلتها ، يغيرون ويقتلون ، ويسبون حلة بعضهم
بعضاً . فدعاهم إلى دين يجمع الأهواء ، ويوحد الكلمة ، ويمنع الدعوة إلى
عصبية ، وأقام قواعده مقام القوة الجنسية ، مع حفظ ما القوه ورضعوه من
الحرية بكل معناها ، ومساواة بأصبح مبنائها ، وعدل شامل ، وبالإجمال بكل ما
يطر الأنفس ، ويلطف الشعور .

فالعرب بنكائهم ، وحدة ذهنهم لم يطل عليهم الزمن حتى وجدوا من أنفسهم
ارتياحاً للدعوة ومن قلوبهم ملياً ، ومجيباً للداعى ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ،
وزداد العرب بالاسلام إقداماً ، وبأساً ، وقوة . تلك القوى التي كانتوا قبل
الاسلام ، يضعونها بينهم . قد وجههم بها الاسلام - بعد أن اتحدت قلوبهم - إلى
الممالك ، والامصار ، فدانت لدعوة دينهم الأمم ، ودخلت فى طاعتهم الملوك ،
ونلت لهم الاكاسرة ، فملؤوا أكثر معمر الأرض عدلاً وفتحاً من بجال بيرينى
الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا إلى جدران الصين ، فى أقل من ثمانين سنة .

وهكذا دام مجد الاسم فى تعال ، وملكهم فى اتساع ، فى دور الخلقاء
الراشدين فالأمويين فالعباسيين ، إلى عصر الرشيد والمأمون ، وهناك بلغ مجد

الدولة الإسلامية الأوج ، وأخذ من بعدها زعناً في التوقف ، ثم بدأ في التقهقر
والانحطاط إلى درجة لم يبق معها من تلك العظمة والإجلال ، إلا رسوم وألقاب ،
فقد مسماها وتعكس معناها .

فهل تم هذا الانحطاط والتقهقر ، بدون سبب ؟ كلاً !!

هل حصل لفة في عدد المسلمين ؟ لا - بل إن عدد المسلمين في دور
انحطاط دولهم كان أكثر من يوم مجدهم وبقا عزهم .

إذا فالسبب الأعظم ، والفاعل الأكبر في السقوط ، هو إهمال ما كان سبباً
في النهوض والمجد وعزة الملك ، وهو ترك حكمة الدين ، والعقل بها ، وهي
التي جمعت الأهواء المختلفة ، والكلمة المتفرقة ، وكانت للملك أقوى من عصبية
الجنس وقوته .

نعم لما فشى الجهل في الخلفاء ، وبعثوا عن العلم بحقيقة الدين وحكمته ،
ومن ضعف أساس الملك ، وتزلزل أقوى دعامة له . فرجعت القواد والرؤساء ،
إلى توزيع قوى الجنسية ، ومتفرق عصيات القائل ، من واتلى ومضرى ويمنى ،
ولم يعد لسلطان الدين تلك القوة الجامعة المثة من عصبية .

وقد زاد في ضعف الخلفاء بلية ، الإكثار من الأعراب ، وجعلهم قوة
لستعاضوا بهم عن قوة عصبيتهم وجنسهم ، فارتقى كثير من المماليك إلى أعلى
مراتب القواد ، وترأسوا الدواوين ، ومدوا أيديهم إلى الأموال ، واستبدلوا بالقرى
والسواد ، وتصرفوا بأموال الدولة حسب الهوى .

فوقع الخلفاء بين فقدان قوة الدين وقوة الجنس ، ولا يكون مع هذا إلا
الانحطاط ، وبالتالي الانقراض - كما حصل والأسفاه - ! (وما ظلمناهم ولكن
كنوا أنفسهم يظلمون) .

وهكذا ترى الممالك في دور تأسيسها معززة الجانب بأهل عصبيتها أولى
الغيرة على الملك ، وصونه ، لا يدخل في مناصب الدولة الرئيسية غريب عن

الجنسية ، ولا تبدو انك أقل ضرورة بعكس دور التقهقر ، فأول ما تبدو لاته
فى استخدام الغريب وهو بخلق التملق والترلف والمسكنة ، وبالأجمال كلما تأباه
نفوس أهل عصبية الملك من الأخلاق ، يتمكن من التقرب ، ويتدرج فى
المراتب ، ويقرب من كان على شاكلته من أهل جنسه وقبيله ، حتى يسقط بآخر
الأمر ، الملك والمملكة بأيديهم .

وما أكثر الأمثلة على تلك فى بطون التواريخ ، كالفائد افشين ، والدبلوماسين ،
آل بويه وغيرهم .

ثم إن ما جرى لدول الاسلام العربية فى دور تأسيسها وانطاطها ، جرى
للعثمانيين وجرى على غيرهم من الدول .

ومتى رأيت الغريب المناوى قد دبّ وتسنّم نرى المراتب الهمامة فى
الدولة ، فبشرها بسوء المصير .

هل يمكن لنا اليوم أن نرى مستشار خارجية انكلترا هندياً أو مصرياً ، أو
هل يخطر تلك ببال انكليزى ؟؟ كلا !! ثم كلا !!

ولكنك ترى ذلك فى الدولة العثمانية اليوم ، وهى فى دور الضعف
والتهقر ، فمستشار نظارة الخارجية العثمانية ، أرئين باشا " أرمنى " . وسفيرها
لدى أنكى دول الارض لها ، وأشدّها عداً وهى " انكلترا " موزوروس باشا " رومى " .
وحاكم جزيرة كريد ، فسكاكى باشا . . . وهكذا مناسب الدولة
العثمانية ، مشحونة بيورغاكى ، وفسكاكى ، وآغوب ، وأوخانس الخ . .

وكل فرد من هؤلاء الرجال ، له أمة محكومة من الدولة العثمانية ، بادلة
جهدها للتخلص من الحكم العثمانى ، تعمل فيها سياس الدول الغربية لتهاض
الدولة ، سعياً وراء استقلالها . فمع هذه الأمال والأمانى ، هل يعقل أو ينتظر
من أولئك الرجال إخلاص فى خدمة الدولة ، أو تعزيز جانبها ، والعمل على
صونها ، وتماليها ؟ ومصالحتهم القومية ، ومصصلحة أممهم فى خلاف تلك ؟

المراجع

- أولا : المراجع العربية
- ثانيا : معاجم وموسو
- ثالثا : النوريات
- رابعا : المراجع الأجنبية

أولا : المراجع العربية

- ١ - د. ابراهيم عكور : في القسمة لاسلامية . منهج وتطبيقه ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
- ٢ - ابو خلدون ساطع الحصري : ما هي القومية . ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٩ .
- ٣ - اجنتس جولد تسيهر : مذاهب التفسير الاسلامي ، ترجمة : د. عبد الحليم النجار ، مكتبة الخانجي ومكتبة المشي ببغداد ١٩٥٥ .
- ٤ - احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ٥ - د. احمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التحديد الاسلامي في العالم العربي الحديث . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٦ - ————— : تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- ٧ - ————— : افكار جمال الدين الافغانى السياسية . (دراسة في : المجلة التاريخية المصرية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦٠ - ١٩٦٢) .
- ٨ - د. احمد محمود صبحي : بعض جوانب التجديد في الفكر الاسلامي .
- ٩ - اسماعيل مظهر : ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء واثره في الانقلاب الفكرى الحديث . المكتبة العصرية بالظاهرة القاهرة ١٩٢٦ .
- ١٠ - د. انور عبد الملك : الفكر العربى في معركة النهضة ، ترجمة : بدر الدين عرويكى (دار الآداب بيروت ١٩٧٤) .
- ١١ - آما وتلين : عبد الحميد ظل الله على الارض ، ترجمة : راسم رشدى (دار النيل للطباعة بمصر ، ١٩٥٠) .
- ١٢ - الياس مرقص : نقد الفكر القومى ، ج ١ : ساطع الحصري ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٦ .

- ١٣- د. بطرس بطرس غالى ، المدخل فى علم السياسة ، ط ٥ ، مكتبة
الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .
- ١٤ - د. توفيق الطويل : العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى ، ط ١ ، دار
النهضة العربية ، القاهرة ، د. ت .
- ١٥ - جرجى زيدان : بناء النهضة العربية ، دار المعارف ، القاهرة د . ت
- ١٦ - ——— : مشاهير الشرق ، دار الهلال ، القاهرة ، د . ت
- ١٧ - جمال الدين الافغانى : الرد على الدهريين ، ترجمة (الشيخ محمد
عبد) ، القاهرة ، ١٩٠٣ .
- ١٨ - ——— : العروة الوثقى ، بالاشتراك مع (الشيخ محمد
عبد) ، دار البستانى ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ١٩ - جورج بوليتزر : المادية المثالية فى الفلسفة ، ترجمة : اسماعيل
المهدوى ،
- ٢٠ - د. حسن حنفى حسنين : قضايا معاصرة (١*) فى فكرنا المعاصر ،
ط ١ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ٢١ - د. حسن شحاته سغان : علم الانسان ، مكتبة العرفان ، بيروت ،
١٩٦٦ .
- ٢٢ - د. حسين فوزى للتجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ،
مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٢٣ - د. خليل عبد الحميد عبد العال : دراسات فى تاريخ الدول الاسلامية
الحديثة والمعاصرة ، الاسكندرية ، ١٩٥٧ .
- ٢٤ - رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، الجزء الاول ، مطبعة المنار ،
القاهرة ، ١٩٣١ .
- ٢٥ - د. زكى نجيب محمود : فلسفة وفن ، ط ١ ، مكتبة الانجلو المصرية ،
القاهرة ، ١٩٦٣ .

٢٦ - د. زكى نجيب محمود: وجهة نظر ، ط ١ ، مكتبة الانجلو
المصرية، القاهرة ١٩٦٧ .

٢٧ - —————: هموم المتقين ، ط ١ ، دار الشروق ،
بيروت ، ١٩٨١ .

٢٨ - د. عادل العوا : للكلام والفلسفة ، مطبعة جامعة دمشق ، دمشق ،
١٩٦١ .

٢٩ - عباس محمود العقاد : على الاثر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، د .
ت .

٣٠ - د. عبد الحميد متولى : لزمة الفكر السياسى الاسلامى الحديث :
مظاهرها - اسبابها - علاجها . ط ٢ ، منشأة المعارف
بالاسكندرية، ١٩٧٥ .

٣١ - عبد الرحمن الرافعى : جمال الدين الافغانى باعث نهضة الشرق
١٨٢٨-١٨٩٧ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦١
٣٢ - عبد العظيم محمد رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر سنة
١٩١٨ الى ١٩٣٦ ، دار للكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ،
١٩٦٨ .

٣٣ - عبد القاهر المغربى : جمال الدين الافغانى .. نكريات واحاديث ،
ط ٢ ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف بمصر ، د . ت .
٣٤ - عبد المتعال الصعيدي : المجددون فى الاسلام من القرن الاول الى
الرابع عشر الهجرى ، ط ٢ ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجواميز ،
القاهرة ، ١٩٦٢ .

٣٥ - د. عبد النعيم محمد حسنين : جمال الدين الاسد ابادى ، " المئمة " ،
دار للكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٣٦ - د. عبد الملك عوده : الكتلة الاسلامية (رسالة لنيل درجة الدكتوراة
فى العلوم السياسية من كلية التجارة ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٥ .

- ٣٧ - د. عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية في مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٣٨ - د. عبدالله العروى : الايدلوجية العربية المعاصرة ، ترجمة : محمد عيتاني ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٣٩ - د. عثمان أمين : رائد الفكر المصري ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٤٠ - ——— : رواد الروعي الانساني في الشرق الاسلامي ، دار القلم بالقاهرة ، ١٩٦١ .
- ٤١ - ——— : تقديم وتعليق ، الرد على الدهريين لجمال الدين الافغاني ، مكتبة الختجي بمصر والمثنى ببغداد ، ط ٢ ، ١٩٥٥ .
- ٤٢ - د. عثمان نجاشي : الادراك الحسي عند ابن سينا ، ط ٢ ، دار الشرق ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٤٣ - د. عزت قرني : العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة ، سلسلة (علم المعرفة) ، الكويت ، يونية (حزيران) ، ١٩٨٠ .
- ٤٤ - علي حسب الله : اصول للتشريع الاسلامي ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٩٢٦ .
- ٤٥ - د. علي الدين هلال : التجديد في الفكر السياسي المصري الحديث ومعهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٤٦ - د. علي المحافظ : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩١٤ . الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية . (ط ٢ ، الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٨) .
- ٤٧ - فتحي الرملي : البركان الثائر : جمال الدين الافغاني ، ط ١ ، دار الثقافة العامة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
- ٤٨ - فتحي الطوبجي : حركات الوحدة في الوطن العربي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، دون تاريخ .

- ٤٩ - د. فهمي جدعان : اسس التقدم عند مفكرى الاسلام فى العالم العربى
للحديث ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩
- ٥٠ - فيليب جتى ، وآخرون : تاريخ العرب ، مطول . دار العلم للملايين
بيروت ، ١٩٦٢
- ٥١ - قدرى حافظ طوقان : جمال الدين الافغانى . أولوه ، كفاحه واثره فى
نهضة الشرق . مطبعة بيت المقدس ، القدس ، ١٩٤٧ .
- ٥٢ - ————— : مقام العقل عند العرب . دار المعارف بمصر ،
للقاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٥٣ - قدرى قلجى : جمال الدين الافغانى . حكيم الشرق . ط ٢ ، دار
العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٢ .
- ٥٤ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية . ترجمة : نبيه امين
فارس ، ومنير البعلبكي ، ط ٤ دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- ٥٥ - مارون عيود : جند وقدماء ، بيروت ، ١٩٦٢ .
- ٥٦ - مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل منقلاوى وعبد
الصبور شاهين ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٥٧ - مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامى .، ترجمة عبد الصبور شاهين ،
دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٥٨ - ————— : الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة ، ط ٢ ، دار
الفكر ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٥٩ - د. محمد قبال : تحديد للتفكير الدينى فى الاسم ، ترجمة عباس
محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ٦٠ - د. محمد لبهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلاته بالاستعمار الغربى ،
ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٦١ - د. محمد جابر الانصارى : تحولات الفكر والسياسة فى الشرق
العربى ، سلسلة عالم المعرفة العدد ٣٥ ، الكويت ، نوفمبر ، ١٩٨٠ .

- ٦٢ - محمد شفيق غريال : من زلوية القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٦٣ - الشيخ مصطفى مصطفى عبد الرزاق : ترجمة جمال الدين الافغانى فى : العروة الوثقى ، دار الكتاب العربى ، لبنان ، ١٩٧٠ .
- ٦٤ - د. محمد ضياء الدين الرئيس : الشرق الاوسط فى التاريخ الحديث ، ط ٢ ، مكتبة الشهاب بالقاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٦٥ - محمد عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ، دار الهلال بمصر ، ١٩٢٦ .
- ٦٦ - الشيخ محمد عبده : التأثير الاسلامى جمال الدين الافغانى ، كتاب الهلال ، اكتوبر ، ١٩٧٢ .
- ٦٧ - محمد عمارة : الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى . ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٦٨ - ——— : جمال الدين الافغانى ، (الاعمال الكاملة) (دراسة وتحقيق) ، ج١ : الله . . . والعالم . . . والانسان ، ط ١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٦٩ - ——— : العرب والتحدى . . . عالم المعرفة عدد ٢٩ ، الكويت ، مايو ، ١٩٨٠ .
- ٧٠ - د. محمد على ابوريلان : المدخل الاسلامى للايديولوجية العربية ، جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٧١ - محمد باشا المخزومي : خاطرات جمال الدين الافغانى . ، المجل الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٧٢ - محمد سلام مذكور : الحكيم التأثير : جمال الدين الافغانى . ، المجلس للشئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٧٣ - د. محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ط ٣ جز ١ فى مجلد واحد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ .

- ٧٤ - د. محمد محمد حسين . الاسلام والحضارة العربية ، دار الارشاد ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٧٥ - محمود ابورية : جمال الدين الافغانى ، تاريخه ورسائله ، ط٢ ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٧٦ - ————— : جمال الدين الافغانى ، نوابغ الفكر العربى ، ط٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ .
- ٧٧ - ————— : جمال الدين الافغانى : تاريخه ورسائله ومبادئه ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، ١٩٦٦ .
- ٧٨ - د. محمود قاسم : جمال الدين الافغانى . حياته وفلسفته ، الانجلو المصرية ، د.ت .
- ٧٩ - د. محمود كامل : الاسلام والعروبة ، ط١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ٨٠ - د. منير مشايك موسى : الفكر العربى فى العصر الحديث ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٨١ - ميرزا لطف الله خان : جمال الدين الاسد ابادى المعروف بالافغانى ، ترجمة الدكتور محمد عبد النعيم حسنين ، ط١ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٨٢ - لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، تعليقات وهوامش شبيب ارسلان ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٢٥ .
- ٨٣ - لويس غرويه ، والاب قنواى : فلسفة الفكر الدينى بين الاسلام والمسيحية الترجمة العربية ، ج١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٦ .
- ٨٤ - د. يوسف عز الدين : الاشتراكية والقومية واثريهما فى الادب الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

ثانيا : معاجم وموسوعات :

- ١ - الموسوعة الفلسفية المختصرة :
ترجمة باشراف د. زكى نجيب محمود ، مكتبة الانجلو المصرية ،
القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٢ - المعجم الفلسفى :
مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ٣ - دائرة المعارف الاسلامية :
اعداد احمد الشنتاوى وآخرون ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

ثالثا : الدوريات :

- ١ - الجنان . بيروت ١٨٧٠ - ١٨٨٥ .
- ٢ - المنار . القاهرة ١٨٩٨ - ١٩٣٦ .
- ٣ - جريدة مصر .
- ٤ - جريدة السياسة اليومية .
- ٥ - الجامعة .
- ٦ - المقطف .
- ٧ - المجلة التاريخية المصرية .
- ٨ - جريدة الاهرام .
- ٩ - مجلة الطلبة .
- ١٠ - مجلة الموقف العربى .
- ١١ - Orient
- ١٢ - J. des Debats .

رابعاً : المراجع الاجنبية :

- 1 - Adams, C.C. Islam and Modernization in Egypt, London, 1933
- 2 - Al-Afghani, Jamal al-Din: L'Islamisme et la Science. J. des debats, 18 & 19 May 1883 (reprinted in frxtr. of al-Radd'ala'L-dahriyyin)
- 3 - ————— : Philosophie de L'union Nationale, tr. M. Hendessi. Orient,, Vi (1958), 123-8 .
- 4 - Binder, Leonard : The Ideological Revolution in the Middle East, NewYork : John Wiley and son, Inc., 1964 .
- 5 - Browne, E.G. The Persian Revolution, Cambridge, 1910.
- 6 - Cromer, The Earl of : Modern Egypt. London, 1911
- 7 - Fakhry, Majid: A History of Islamic Phiosophy. Columbia University Press. NewYork and london, 1970.
- 8 - Gibb, H.A.R. : Modern Trends in Isalm, Chicago, 1947.
- 9 - Goichon, A.M : Jamal Al-Din Al-Afghani “ Refutation des Matetialistes. Traduction sur La3 eEdition Arab Avec Introduction et Notes.
- 10 - Hourani, Albert: Arabic Thought in the Liberal age (london Oxford University Press, 1967) .
- 11 - Keddie, N.R; : An Islamic Response to Imperialism, Political and Religious writings of Sayyid Jamal Al-Din Al-Afghani., “ Berkeley, 1968 .
- 12 - Khaddurie, Majid: Political trends in the Arab world (Baltimore: the Johns Hopkins Press, 1970).

- 13 - Kedourie, Elie : Afghani and Abduh (London : Frank
cass Co. Ltd., 1966 .
- 14 - Nuselibeh, Hasem Zaki, : The Idea of Arab Nationalism,
Published by cornell University Press, New York. 1956 .
- 15 - Renan, E., : L'Islamisme et la Science. Paris, 1883.
- 16 - Safran, Nadav., : Egypt in search of Political Community.
(cambridge : Harvard university Press, 1961).
- 17 - Sharabi, Hisham, : Arab Intellectuals and the west the
Frmative Years, 1875 - 1914, Baltimore, 1970.
- 18 - Sharif, M.M., : A History of Muslim Philosophy. Otto-
Harroswitz-wiesbaden, 1963, (Volume Two), 1963 .
- 19 - Smith, Wilfred Cantwell: : Islam in Modern History
(Princeton, Princeton University press, 1956).
- 20 - Thompson Jack, and Reischauer Robert: Modernization
of Arab World (princeton: Van' Nostrand Company,
Inc., 1966).

فهرس تحليلي للدراسة

رقم الصفحة

٧	تقديم بقلم دكتور حسن حنفي
١٥	مقدمة ...
	فصل تمهيدى كمداخل لفكر جمال الدين الافغانى
	(١) العصر .. وارهائاته :
	- حقيقة عصره : لوروبا - للدولة العثمانية -
٢٥	حالة الشرق عامة كنتيجة لما سبق
٢٨	- الاطار العلم لظهور جمال الدين
٣٣	(٢) السيرة : مشكلة .. وحل :
	- المشكلة على وجه التحديد ، واهميتها
	- للقاتلين بأفغانية جمال الدين ، وحججهم .
	- للقاتلين بايرانية جمال الدين ، وحججهم .
	- رأى الباحث فى هذا الصدد .
	فى الفلسفة السياسية لجمال الدين
	الفصل الاول
	فكرة الوحدة .. والجامعة الاسلامية
٤٧	أ - الجامعة الاسلامية :
٤٧	- مدخل ، وقسمات الفكرية المميزة لفكر جمال الدين
	- جمال الدين والوحدة الاسلامية (تحليل لأراء المفكرين
٥٣	بصندا) .
	- الاتجاه الاول - الاتجاه الثانى - الاتجاه الثالث
٦٢	- تعقيب الباحث على هذه الاتجاهات
	ب - آراء جمال الدين فى الوحدة الاسلامية ، وتمهيد للفكرة
٦٥	المحورية لديه

رقم الصفحة

٨٠	جـ - الفكرة المحورية لدى جمال الدين (القومية) :
٨٠	- تمهيد
٨٥	- نص ينشر لأول مرة
٩٠	- العروة الوثقى
٨٧	- الرد على " إرنست رينان "
٩٦	- المخاطر
	- المقالة الفارسية
١٠٥	- خاتمة
	الفصل الثاني
	الحرية .. والديموقراطية
١١١	- مدخل
١١٧	- معاني الحرية لدى جمال الدين
١٢٠	- مفهوم السلطة .. والأمة
١٢٣	- مفهوم الدستور .. والحكم
١٢٧	- الحكم الجمهوري
١٣٣	- الحكم النيابي الدستوري
١٣٤	- رأيه في الأحزاب السياسية
	- مفهوم الحكم بين فكرة (المستبد العادل) ،
١٤١	و (نظرية الحكم الإلهي) .
١٥٣	ملحق النصوص
٢٨٣	المراجع

هذه السلسلة

هدفها العمل على خلق الأردية القديمة التي كنا - ولانزال - نرتديها حتى الآن، سواء بفعل المستعمر، أو المستشرق، أو حتى الجهل الذاتي الذي يدفعنا للإنسياق وراء مقولات جاهزة وترديدها دونما بحث أو تمعن، مما يخرقنا في متاهة انعدام الوعي .

ولتحقيق هذا الهدف سيقوم البحث في هذه السلسلة بمعارضة المعروف ومخالفة المألوف ، سعياً وراء هدف واحد هو : تجلي الحقيقة بوضوح .

ستقوم السلسلة بقراءة جديدة للعقل التجديدي الإسلامي كما تجلي في مشاريع التجديد لدى الأفغانى .

محمد عبده - محمد اقبال .. الخ، قراءة تعتمد التحليل والفحص النقدي، كي تستند عملية إعادة بناء الذات على الوقع الفعلى أولاً، قبل الوجود المأمول ثانياً .

هذا الكتاب

جمال الدين (الأفغانى) : الفكر والسياسة : الدين السياسى .
هذا هو الكتاب الأول من السلسلة يختص بالبحث فى مشكلة سيرة جمال الدين هل هو أفغانى / سنى، أم إيرانى / شيعى، وذلك ليس انصافاً لإتجاه منهما على الآخر - فكلاهما ينتمى للإسلام الحنيف - وإنما توضيحاً للأسلوب الملتوى الذى بدأ به الرجل حياته وتعامل به مع الناس .

ويتطرق الكتاب بعد ذلك بتفصيل دقيق لأفكاره واتجاهاته السياسية بخصوص : الحرية، الديمقراطية، الحكم، المستبد العادل .

كما يبرز الكتاب للمرة الأولى الإتجاه القومى لديه بخصوص فكرة : الوحدة / الجامعة الإسلامية، وذلك لإثبات أن السياسة - وليس الدين - هى لخدمة فكر الرجل وسداه، فهى الأساسى للبناء، وهى الوسيلة والهدف، هى الغاية النهائية قبل كل شئ، وبعد كل شئ .